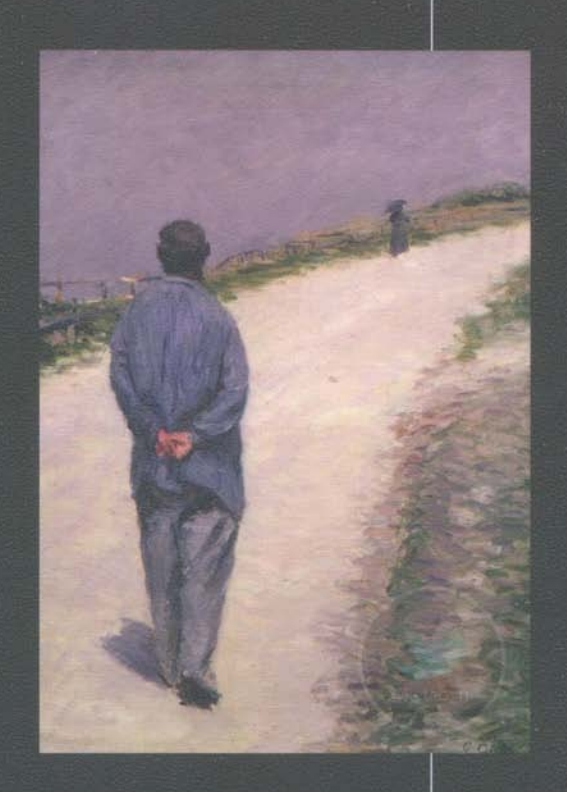
المشيُ فلسفةً

22.1.2022



فريديريك غرو

ترجمة: سعيد بوكرامي



فلسفةُ المشيِ



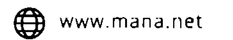
تمت ترجمة هذا الكتاب بدعم
مبادرة
ترجم
Tarjim Initiative

الكتاب: المشي فلسفة
تأليف: فريديريك غرو
ترجمة: سعيد بوكرامي
مراجعة: عبدالسلام بنعبدالعالي
الطبعة الأولى: 2021
ISBN: 978-603-91578-9-2
رقم الإيداع: 1442/5261
هذا الكتاب ترجمة لـ:
Frédéric Gros
Marcher, une philosophie

Cover Painting by: Gustave Caillebotte



الناشر:
دار معنى للنشر و التوزيع





@ManaPlatform

المحتويات

المشي ليس رياضة

المشي ليس رياضة.

الرياضة قضية تقنيات وقواعد، نتائج ومباريات، وهي تتطلب تدريبات: معرفةً بالأوضاع، وتمكّنًا من الحركات الجيدة، ثم، بعد فترة طويلة، يأتي الارتجال والمهارة.

الرياضة عبارة عن نتائج: ما ترتيبك؟ وما التوقيت الذي استغرقته؟ وما النتيجة؟ هناك دائمًا قسمةٌ بين غالبٍ ومغلوب. تمامًا كما في الحرب -هناك علاقة قرابة مع الحرب، وهي علاقة تنال منها الحرب شرفها والرياضة عارها، بدءًا من احترام الخصم إلى كراهية العدو.

بطبيعة الحال الرياضة أيضًا هي القدرة على المكابدة، واستطابة للجهد، وانضباط. إنها أخلاقٌ وعمل. لكنها أيضًا تجهيزات ومجلات وعروض وأسواق. إنها إنجازات. تُقدم الرياضة حفلات ذات إشعاع إعلامي هائل حيث يتهافت مستهلكو العلامات التجارية والصور. ومن هنا يجتاحها المال كي يفرغ النفوس، كما يجتاحها الطب من أجل بناء أجساد اصطناعية.

المشي ليس رياضة. وضع قدم أمام أخرى لعب أطفال. عند اللقاء، لا ننتظر نتائج ولا أرقامًا: سيخبرنا المشّاء أي طريقٍ سلك، وأي سبيلٍ سينفتح على أكثر المشاهد جمالًا، والمنظر الذي سينكشف لنا من هذا المكان المرتفع.

ومع ذلك، فقد تمت محاولات جدية لخلق سوق جديدة من الإكسسوارات: من أحذية ثورية، وجوارب لا تخطر على بال، وحقائب عملية، وبنطلونات ذات فعالية... كما يتم السعي إلى أن تقتحم المشيَ الذهنيةُ الرياضيةُ: فما عدنا نمشي، بل صرنا نقوم بجولة سياحية في مناطق صعبة. فصارت تُباع العصيّ المدببة التي جعلت المشّائين يشبهون متزلجين مستهجنين. لكن هذا لم يذهب بعيدًا. ولا يمكنه أن يذهب بعيدًا.

لم نجد شيئًا أفضل كي نتمكن من المشي ببطء أقل. لكي نمشي نحتاج أولًا إلى ساقين أما الباقي، فغير ذي جدوى. هل تريد أن تسرع؟ إذًا، لا

تمشِ، وافعل شيئًا آخر: اركب الدراجة، مارس التزلج أو الطيران. اترك المشي. بالإضافة إلى ذلك، فإن الإنجاز الوحيد الذي يؤخذ بعين الاعتبار أثناء المشي، هو الاستمتاع بكثافة السماء وسطوع المناظر الطبيعية. المشي ليس رياضة.

لكن بمجرد أن يقف الإنسان، فلن يمكث حبيس موقعه.

حريات

في البداية يمنحنا المشي حريةً تعلقُ به، حتى إن كان الأمر يتعلق بمجرد نزهة؛ فنحن نتخلص من عبء الهموم، ونتناسى الأشغال ولو مؤقتًا. نختار ألا نصطحب معنا انشغالات الإدارة؛ نخرج، نتجول، نفكّر في أشياء أخرى. وعند الرحلة الطويلة لأيام عدة، تتأكد حركة الانفصال؛ نتخلّص من ضغوطات العمل، ونتحرّر من قيود العادات.

لكن فيم يُشعرنا المشي بهذه الحرّية أكثر من أيّ رحلةٍ طويلة؟ لأن إكراهات أخرى، لا تقل ضيقًا تصادفنا هنا كذلك: ثقلُ الحقيبة، وطول المراحل، والشك في أحوال الطقس (المتمثل في تهديدات المطر والعواصف والحرارة الماحقة)، وخشونة المآوي، وبعض المتاعب الأخرى... لكن المشي وحده قادر على تحريرنا من أوهام الأشياء الضرورية. يبقى المشي، على هذا النحو، مملكة الضرورات القوية. لبلوغ هذه المرحلة، يجب على المرء المشي عدة ساعات، وهي تعتبر خطواتٍ كثيرةً جدًا. هنا الارتجال محدود، لأننا لا نمشي في ممرات حديقة يجتازها المرء، ويجب ألا يخطئ عند مفترق الطرق، وإلّا لدَفَع في الحال ثمنًا باهظًا. حينما يجتاح الضباب الجبل أو يبدأ المطر في النزول كالإعصار، فلا مناص من المواصلة والاستمرار في السير. الطعام والماء يخضعان لحسابات دقيقة، حسب المسارات والمنابع. ناهيك عما لا يوفر الراحة. والحال أن المعجزة ليس أن يكون المرء سعيدًا رغم كل هذه المتاعب، وإنما بفضلها. أعني أنه عندما لا يوجد خيار غير محدد فيما يتعلق بالأكل أو الشرب، وعندما يتعرض المرء للطقس وحتميته العظيمة، وعندما لا يعتمد المرء إلا على انتظام خطواته، فإن ذلك يكشف فجأة عن كون توافر العرض (من البضائع ووسائل النقل والشبكات)، وتضاعف المرافق (للتواصل، والشراء، والتداول) ضرورات قاهرة تحدّ من الحرية. كل هذه الأشكال الصغرى من التحرر لا تُشكّل إلا تسريعًا للنظام، الذي يسجنني بقوةٍ أكبر لأن كل ما يحررني من الزمان والمكان، سينفّرني من السرعة.

بالنسبة إلى أولئك الذين لم يختبروا ذلك، فإن مجرد وصف حالة المشّاء قد يبدو لهم على الفور، عبثًا، وشذوذًا، أو عبودية طوعية؛ لأن

ساكن المدينة سرعان ما يفسر ذلك تلقائيًا على أنه نوعٌ من الحرمان، في حين أن المشّاء يراه نوعًا من التحرر: ألا يكون أسير شبكة التبادلات، وألا يتحول إلى مجرد عقدة للشبكة التي تنشر المعلومات والصور، وتوزع السلع؛ وأن يدرك أن هذا كله ليس له حقيقة وأهمية إلا تلك التي نضفيها نحن عليه. إن عالمي لن ينهار من عدم التواصل فحسب، بل إن هذه الاتصالات ستَظهرُ لي فجأةً وكأنها تشابكٌ ثقيلٌ وخانقٌ وشديدة الضيق.

الحرية إذن هي قطعةٌ من الخبز، ورشفةُ مياهٍ عذبة، ومناظرَ طبيعيةٍ منفتحة.

مستمتعًا بهذه الحرية، سعيدًا بالذهاب، أنا أيضًا سعيدٌ بالعودة. إنها سعادةٌ بين قوسين، وحريةٌ مثل رحلةٍ ليومٍ واحدٍ أو أكثر. لا شيء تغيَّر حقًا عند الرجوع. وسرعان ما تستعيد العطالات القديمة مكانتها: السرعة، ونسيان الذات، والآخرين، والإثارة، والتعب. لم يدُم نداء البساطة سوى زمن المشي: «لقد وافق صحتكَ الهواء النقيّ». إنها إذًا حريةٌ لحظية، وسرعان ما أغوص من جديد.

الحرية الثانية عدوانيةٌ، وأكثر تمردًا. لا يسمح المؤقّت، لوجودنا، إلا بـ«انقطاعٍ» مؤقت: أهربُ من الشبكة بضعة أيام، وأمارس في مساراتٍ مهجورةٍ تجربة الحياة خارج المنظومة. لكن يمكننا أيضًا أن نقرر **الانفصال**. يمكن للمرء أن يجد، هنا، وبسهولةٍ نداءاتٍ للخرق والخروج الأعظم عن المنظومة في كتابات كيرواك Kerouac أو سنايدر Snyder: علينا أن نتخلّى عن العادات البلهاء، والأمان المخادع للجدران، والملل من تطابق الأشياء، وإنهاك التكرار، وتقلبات الأغنياء وكراهية التغيير. من الضروري استثارة الرحلات والتجاوزات، وأخيرًا تغذية الجنون والحلم. قرار المشي (الذهاب بعيدًا، نحو أي جهة، تجريب شيء آخر) أمر مفهومٌ هذه المرة بوصفه نداءً من البرية (The Wild). نكتشفُ في المشي النشاط الهائل للّيالي المرصعة بالنجوم، والطاقات الضرورية، ثم تنفتح شهيتنا الهائلة، فتصبح أجسادنا مكتفيةً حد الشبع. عندما نغلق باب العالم من ورائنا، لا نعود مرتبطين بأي شيء: لا تعود الأرصفة تتمسك بخطواتنا (المسار، يتكرر آلاف المرات، إلى حين العودة إلى الحظيرة). المنعطفات ترتعش مثل النجوم المترددة، فنكتشف من جديدٍ خوف الاختيار الذي يبعث الرعشة، نكتشف الحرية شبيهةً بالدوار.

هذه المرة، لا يتعلق الأمر بالتحرر من المصطنع لتذوق الملذات البسيطة، وإنما يتعلق بلقاء الحرية بوصفها حدًّا للذات وللإنساني، بوصفها تدفقًا داخليًا لطبيعةٍ متمردةٍ تتجاوز قدراتنا. يمكن للمشي أن يؤدي إلى إثارة هذه الإفراطات: الإفراط في التعب الذي يجعل العقل يصل إلى الهذيان، الإفراط في الجمال الذي يؤجج الروح، والإفراط في الثمالة فوق القمم (حيث ينفجر الجسد). ينتهي المشي بأن يوقظ فينا ذلك الوجه المتمرد السحيق: تصبح شهيتنا خشنة وعصيّة، واندفاعاتنا ملهمة. لأن المشي يضعنا وجهًا لوجه أمام محور الحياة: وهكذا نلفي أنفسنا مسحوبين بالسيل المنبجس من تحت أقدامنا.

أعني بذلك أننا لا نمضي، ونحن نمشي، للقاء أنفسنا، كما لو كان الأمر يتعلق باسترجاع الذات، والتحرر من أشكال الاغتراب القديمة لاستعادة الذات الحقيقية، والهوية المفقودة. عند المشي، يفلت المرء من فكرة الهوية نفسها، من الإغواء بأن يكون أحدهم، من الحصول على اسم وتاريخ آخر. أن تكون أحدهم، هذا يَصلُح للسهرات الجماعية، حيث يحكي كلٌّ منّا عن نفسه، كما يصلُح لعيادات علماء النفس. لكن أن تكون أحدهم، أليس ذلك إكراهًا اجتماعيًا مكبِلًا (يُجبر المرء نفسه على أن يكون وفيًّا لصورته عن نفسه) ووهمًا غبيًّا يثقل كاهلنا؟ الحرية عند المشي هي أن تكون لا-أحد، لأن الجسد الذي يمشي لا يملك تاريخًا، وإنما فحسب تيارَ حياةٍ لا ذاكرة له.

وهكذا فالمرء حيوان ذو قدمين يتقدّم، ليس سوى قوة خالصة وسط الأشجار السامقة، مجرد صيحة. وغالبًا ما يصرخ ذلك الحيوان عند المشي، ليعبّر عن وجوده الحيواني المفعم بالنشاط. من دون شك، في هذه الحرية العظيمة التي عززها الجيل الممزّق لغينسبيرغ Ginsberg أو بوروس Burroughs، في هذه الفجوة من الطاقة التي كانت تمزّق حياتنا، وتفجّر المعالم البارزة للخاضعين، كان المشي في الجبال وسيلةً من بين أمورٍ أخرى، شملت المخدرات والكحول والشرب والعربدة، كل تلك الأشياء التي حاول ذلك الجيل بواسطتها بلوغ البراءة.

لكن ذلك كشف عن حلم: هو المشي، تعبيرًا عن رفضٍ لحضارة متعفّنةٍ، ملوثةٍ، مستلبةٍ وبائسة.

قرأتُ وينمان Whitman، هل تعلمون ماذا يقول؟: **قفوا يا عبيدًا.**

وليرتعد المستبدون الأجانب. هذا هو ما يجب أن يكون عليه تصرُّف التروبادوري المجنون المستلهم لثقافة الزن (Zen)، وهو يخوض المسالك القديمة في الصحراء. إنه يعتقد أن من الضروري تخيُّل العالم بوصفه ملتقى من يهيمون على وجوههم حاملين حقائبهم على الظهر، ويتقدّمون إلى الأمام، ملتقى المتشردين الملائكيين الذين يرفضون الإرغام على استهلاك كل ما يُنتج، وبالتالي العمل من أجل الاستهلاك، وشراء كل هذه الخردة عديمة الفائدة: من ثلاجات وأجهزة تلفزيون، وكل أنواع المزابل غير الضرورية[...]. لهذا وجدنا الآلاف، والملايين من الشباب الأمريكي، يربطون حقائبهم فوق ظهورهم ويجوبون الطرقات...[1].

الحرية القصوى للمشّاء أكثر ندرة. إنها درجة ثالثة، بعد العودة إلى أفراح بسيطة واستعادة الحيوان القديم. إنها حرية **الرافض**. يخبرنا هاينريش زيمر Heinrich Zimmer، أحد أعظم العارفين بثقافة الهنود، أن الفلسفة الهندوسية تُميز بين أربع مراحل في مسار الحياة: المرحلة الأولى تخصُّ التلميذ، المتعلم، المريد. في فجر حياته، يكون عليه أن يطيع أوامر المعلم، وأن يستمع إلى دروسه، ويخضع للنقد ويتّبع التعاليم. يكون عليه أن يتلقّى. في المرحلة الثانية، عندما يصبح بالغًا، في ظهيرة حياته، يغدو سيّد البيت، متزوجًا، متحمّلًا مسؤولية الأسرة: يدير ممتلكاته قدر استطاعته، ويساعد على رعاية الكهنة وإعالتهم. يمارس حرفةً، ويخضع لإكراهاتٍ اجتماعيةٍ ويفرضها على الآخرين. يقبل أن يلبس أقنعةً اجتماعيةً تحدّد دوره في المجتمع والأسرة. في وقتٍ لاحقٍ، عندما يصبح الأطفال مستعدين لتولي المسؤولية، في فترة الزوال من حياته، يمكن للرجل أن يتخلى كليًا عن الواجبات الاجتماعية، ونفقات الأسرة، والهموم الاقتصادية، ليصبح ناسكًا. هذه هي مرحلة «الرحلة إلى الغابة»، حيث سيكون من الضروري، من خلال الاعتكاف والتأمل، أن يتعلّم كيف يتآلف مع ما بقي، دون تغيير في الداخل، منتظرًا لحظة الصحو والانبعاث من الأعماق: إنها الذات الأبدية التي تتجاوز الأقنعة، والوظائف، والهويات، والحكايات.

وأخيرًا، يخلُف الحاجَ الناسكَ، فيما يجب أن تكون عليه أمسية حياتنا الصيفية اللانهائية والمجيدة: إنها حياةٌ أصبحت الآن بلا مأوى (هذه هي مرحلة المتسوّل المتجوّل)، حيث المشي اللانهائي، هنا وهناك، يُجسد التطابق بين الذات بدون اسم (هوية) والقلب الموجود في كل مكان من

(1) ج. كرواك: المتشردون السماويون.

العالم. حينئذ يكون الرجل الحكيم قد تخلّى عن كل شيء. وهذه هي أعلى درجات الحرية: حرية الانفصال التام. أنا لست معنيًا، لا بنفسي ولا بالعالم. غير مبالٍ بالماضي والمستقبل، لست إلا الحاضر الأبدي للمطابقة مع الذات. وكما نتبين في يوميات الحج لسوامي رامداس Swami Ramdas، فاللحظة التي نتخلّى فيها عن كل شيء، هي التي يُقدّم لنا فيها كل شيء، في اللحظة التي لا نطالب فيها بأي شيء، نُمنح كل شيءٍ وبوفرةٍ مضاعفة. ونقصدُ بكل شيء، تحقيق كثافة الحضور نفسه.

يمكن أن نلاحظ جيدًا خلال النزهات الطويلة، تجلّيات حرية التخلي هذه. عندما نسير لفترة طويلة، يأتي وقتٌ لا نعرف فيه عدد الساعات التي انقضت بالفعل، أو كم سنستغرق من الوقت، للوصول إلى النهاية. نشعر بثقل الضروريات اللازمة فوق كاهلنا، فنقول في أنفسنا: هذا يكفي -إذا كان من الضروري حقًا الاستمرار في الوجود أكثر من ذلك- عندها يشعر المرء أن بإمكانه أن يستمر هكذا أيامًا وقرونًا. حينئذ، بالكاد نعرف إلى أين نحن ذاهبون ولماذا، وهذا لا يهم أكثر من ماضيٍ أو الوقت الحالي. نشعر بأننا أحرار، لأنه بمجرد أن يتعلق الأمر بتذكر العلامات القديمة لوجودنا داخل جحيم الواقع -الاسم، والعمر، والمهنة، والوظيفة- فإن كل شيء، يبدو قطعًا تافهًا وضئيلًا، وهميًا.

لماذا أنا مشّاء جيد (نيتشه)

«أن تظل جالسًا أقل ما يمكن: وألا تؤمن بأي فكرة لم تتشكّل في الهواء الطلق، وفي إطار حرية الجسد الحركية -ولا بأدنى فكرة لم تحتفل بها العضلات أيضًا. كل الأحكام المسبقة تأتي من السرير. أن تكون «خاملًا»، أكرر ذلك، إنها الخطيئة الحقيقية المرتكبة في حق الروح»[1].

كتب نيتشه أن القطائع صعبة، لأن الرابطة التي تقطع تسبب الألم. لكن عوضًا عنها نستطيع الطيران. صُنعت حياة نيتشه من هذه الانفصالات والقطائع والعزلة عن: العالم، المجتمع، رفاق الطريق أو العمل، النساء، الأصدقاء، الأهل. لكن كلما اشتدت عزلته، فقد كانت تعني تعمّقًا في حريته: لا يحتاج إلى تبرير أيّ شيء، لا توجد تسويةٌ تقف عقبة في طريق الرؤية الواضحة والمكشوفة.

كان نيتشه مشّاءً رائعًا ومكابدًا. يُشير إلى ذلك في كثير من الأحيان. كان المشي في الهواء الطلق يشبه العنصر المكوّن لأعماله، والمرافق الذي لا يتبدّل لكتابته.

كانت حياته تتكون من أربعة فصول عظيمة:

الفصل الأول، سنوات التكوين: منذ ولادته (1844) إلى تعيينه في جامعة بال أستاذَ فقه اللغة. كان والده قسًّا، ورجلًا مستقيمًا طيبًا، مات شابًا. يحب نيتشه أن يردّ نسبه إلى سلالة من النبلاء البولنديين (آل نيتشسكي). عندما مات والده، كان يبلغ من العمر (أربع سنوات)، سيصبح أمل والدته وجدته وأخته. وموضع اهتمامهن ورعايتهن الكبيرة، سيواصل الطفل دراسته بذكاء فائق في مدرسة فورتا الثانوية الشهيرة والصارمة، حيث سيتلقى تعليمًا كلاسيكيًا. هناك سيخضع لنظام حديديّ سوف يعترف لاحقًا بعظمته، نسبة إلى المعادلة اليونانية: يجب أن يعرف المرء كيف يُطيع، لكي يعرف كيف يقود. كانت أمّه تؤمن بقدراته وتغمره بإعجابها، على أمل أن يضع ذكاءه الرائع في خدمة الرب. كانت تحلم أن يصبح لاهوتيًا. كان نيتشه فتىً قويًا يتمتع بصحةٍ جيدة، يعاني فقط

---

(1) هنا هو الإنسان (لماذا أنا حكيم جدًا؟).

من قصر شديد في البصر، وبلا شك لم يصحح ضعفه بشكل جيد. تابع دراسات لامعة في فقه اللغة في جامعة بون ولايبزيغ. في الرابعة والعشرين من عمره، عُيّن أستاذًا في فقه اللغة بجامعة بازل، بناءً على توصية من الباحث الأكاديمي ريتشل. كان هذا أمرًا استثنائيًا لمن في مثل سنه. وهنا سيفتح الفصل الثاني.

***

سيدرّس نيتشه فقه اللغة اليونانية خلال عشر سنوات، عشر سنوات من الصعوبة والفشل. كان العمل مهولًا: بالإضافة إلى الدروس في الجامعة، يجب أن يضمن أيضًا عمله في المدرسة الثانوية في المدينة: البيداجيوم. لكن، هل كان نيتشه يريد فقط أن يكون عالم لغة؟ كان ميالًا جدًّا إلى الموسيقى ثم مفتونًا بسحر الفلسفة. وهنا سيفتح علم اللغة فسحة في صدره ويحضن القلب المضطرم، لأن هذا ليس موهبته النهائية. سيسمح له علم اللغة اليونانية، على الأقل، بقراءة الأدب والفلسفة الإغريقية: مؤلفي التراجيدية (إيخيلوس، سوفوكليس)، الشعراء (هوميروس، هزيود)، الحكماء (هيراقليطس، أناكسيماندر) والمؤرخين (سيسحره ديوجينيس لارتيوس لأننا، كما يقول، نرى البشر، فيما وراء المنظومات). السنة الأولى ستسير على ما يرام: سيعمل بحماس على تحرير دروسه، وسيحظى لدى الطلاب بحظوة حسنة، وسيلتقي بزملاء جدد، أحدهم سيصبح الصديق العزيز، الصديق المخلص وهو فرانز أوفربيك، أستاذ اللاهوت. الصديق الدائم، والشخص الذي تُطلب مساعدته ساعة العسر، الشخص الذي سيأتي لملاقاته في تورينو، بعد الكارثة. في عام 1869 قام نيتشه برحلة إلى لوسيرن، حتى يتمكن بعد ذلك من الذهاب إلى تريبشين، حيث سيقوم بزيارته المؤثرة إلى «المعلم» (فاغنر)، في محل إقامته الضخم والأثري. هناك سيفتتن بكوزيما، تلك التي سيسميها، في رسائله أيام جنونه «أميرته آريان، حبيبته العزيزة -حكمٌ مسبق أراد أن أكون إنسانًا، لكن الحقيقة أنني عاشرتهم منذ فترة طويلة» (يناير 1889).

لكن الحماس والمثابرة في العمل الجامعي والصحة الجيدة أمور لا تدوم طويلًا. وسرعان ما ستبدأ المنافذ والأزمات بالتكاثر. وسينتقم الجسم من سلسلة أشكال ثقيلة من سوء التفاهم.

سوء تفاهمٍ مهني أولًا. سينفجر إثر نشره سنة 1871 لكتابه «مولد

المأساة»، الذي سيخلّف اعتراضَ فقهاء اللغة المحترفين، بل غضبَهم. كيف يمكن أن يخطر للمرء تأليف مثل هذا العمل؟ إنه ليس كتاب بحث جدي بقدر ما هو مجرد حدوس عائمة ميتافيزيقية تمثّل الصراع الأبدي بين الكاووس[1] والنظام، ثم هو سوء تفاهم في الصداقات: سيسافر بانتظام إلى بايرويت لحضور التتويج السنوي للمعلم، ويعود إلى تريبشين، ويصبح رفيق السفر في أوروبا، لكنه سيتبين شيئًا فشيئًا أنّ فاغنر يمثل، في تعنته المتعصب، وغطرسته، كل ما يبغضه، وأن موسيقاه على وجه الخصوص أصبحت عسيرة الهضم عليه، بل إنها صارت سبب مرضه. سيكتب فيما بعد، إن موسيقى فاغنر، واعدة بالغرق في مياه راكدة، ويجب على المرء أن «يسبح» بداخلها، بشكل مستمر، لأنها تغرق مثل سيل عرمرم هائج. عندما نستمع إليها، نفقد توازننا. على العكس، فإن موسيقى روسيني تعطي الرغبة في الرقص. دون الحديث عن **كارمن** رائعة بيزيت، ثم سوء التفاهم العاطفي: من رفض طلباته للزواج، التي حدثت بطريقة فظّة. وأخيرًا سوء التفاهم الاجتماعي، لأنه لم يستطع أن يتجذر لا في الأوساط الاجتماعية المبهرجة لبايرويت، ولا داخل حلقة الأساتذة والعلماء.

كان من الصعب مواجهة كل هذه الأشكال من سوء التفاهم. فغدت كل دورة دراسية أصعب وأكثر استحالة. وصار يعاني مرارًا وتكرارًا، من صداع فظيع يُلزمه الفراش لفترةٍ طويلة، راقدًا في الظلام، صارخًا من شدة الألم. عيناه تؤلمانه، وبالكاد يستطيع القراءة والكتابة. كان يدفع مقابل كل خمس عشرة دقيقة من القراءة أو الكتابة، ساعات من الصداع النصفي، ثم استعان بمن يقرأ له الكتب، لأن عينيه تهتزان عند رؤيته للصفحة. يحاول نيتشه تقديم تنازلات، فيطلب إعفاءه من تقديم أحد الدروس، وفيما بعد بوقت وجيز، إعفاءه من تدريسه في المدرسة الثانوية، فيحصل على إجازة لمدة عام للاستراحة واستعادة طاقته واسترداد قوته.

لكن لا شيء عمل عمله.

وفي الوقت نفسه، فإن ما كان يقترح في ذلك الوقت علاجًا، كان يحمل علامةَ مصيره المستقبلي: مسيرات عظيمة وعزلة تامة. ضد آلام الخفقان الرهيبة، كان هذان هما العلاجين. الهرب من الإثارة، والإغراءات واهتياج

(1) Chaos: الفوضى. يعتبر نيتشه أن طبيعة العالم كله هي منذ الأبد طبيعة الفوضى، ولا يعود ذلك إلى غياب الحاجة لكن مرته إلى غياب النظام. (المترجم)

العالم، تلك الأمور التي يدفع ثمنها ساعات من المعاناة. ثم المشي، والسير طويلًا لتبديد، وإلهاء، ونسيان ضربات المطرقة على الصدغين.

لم يكن قد افتتن بعد بالصخور المعدنية الصلبة للجبال العالية أو الجفاف المعطر للمسارات الحصوية في الجنوب. كان يمشي في الأغلب بجانب ضفاف البحيرات (بحيرة ليمان، مع جيرسدورف، ست ساعات من المشي يوميًا)، أو يغوص بين ظلال الغابات (غابات الصنوبر، في شتاينآباد جنوب الغابة السوداء: «أمشي كثيرًا بين الغابات وأنا أحاور نفسي محاورات عجيبة»).

في شهر أغسطس عام 1877، كان في روزنلاوي، يعيش عزلة النساك: «لو كان بإمكاني الحصول على منزل صغير في مكان ما؛ كما هو الحال هنا، سأمشي من ست إلى ثماني ساعات في اليوم، مؤلفًا أفكارًا، سأبسطها على الورق بقلمي».

لكن لا شيء نجح. الآلام قوية جدًا. يشدّه الصداع النصفي إلى السرير لأيام عدة، وآلام القيء تعصر معدته، طوال الليل. عيناه تؤلمانه، وبصره يضعف. في مايو 1879 قدم رسالة استقالته من الجامعة.

***

هنا تبدأ المرحلة الثالثة العظيمة من حياته. عشر سنوات، من صيف عام 1879 حتى الأيام الأولى من عام 1889. سيعيش هذه الفترة من عائدات ثلاثة معاشات صغيرة مما سيسمح له بالعيش بشكل متواضع للغاية، والسكنى في الفنادق الصغيرة، ودفع ثمن القطار الذي سيقله من الجبل إلى البحر، ومن البحر إلى الجبل، وإلى البندقية في بعض الأحيان، حيث يزور بيتر جاست. آنئذ سيصبح ذلك المشّاء الفريد من نوعه الذي تحتفظ به الأسطورة. سيمشي نيتشه، يمشي كما نشتغل. ويشتغل وهو يمشي.

منذ الصيف الأول، اكتشف جبله في أعالي إينجادين، وفي العام التالي سيكتشف قريته: سيلس- ماريا. حيث الهواء شفاف، والرياح نشيطة، والضوء ساطع، ولأنه يكره الحرارة المفرطة، سيقضي هناك كل الأصياف حتى لحظة السقوط (ما عدا السنة التي قضاها في اللو). يكتب إلى صديقيه (أوفيبرك، وكوزليتز)، أنه اكتشف طبيعته، وما يلائمه، وإلى أمه، أنه

وجد هناك «أفضل المسالك التي يمكن أن يأملها الشخص المكفوف الذي أصبحته، والهواء الأكثر حيوية» (يوليو 1879). إنها مشاهده الطبيعية، كأنما تربطه بها قرابة دم، «بل أكثر من ذلك»[1].

منذ الصيف الأول، سيمشي ويمشي بمفرده ثماني ساعات في اليوم تقريبًا، فيكتب (**المسافر وظله**).

كل شيء في هذا الكتاب، ما عدا ربما بعض الأسطر، تم التفكير فيه وأنا أمشي، وتسجيله على عجل في ستة دفاتر صغيرة[2].

سيمضي الشتاء في مدن الجنوب، ولا سيما في جنوة، وخليج رابالو، ونيس لاحقًا («أمشي في المتوسط ساعة واحدة في الصباح، ثلاث ساعات في فترة ما بعد الظهيرة، بوتيرة جيدة - دائمًا الطريق نفسها: إنه جميل بما يكفي لتحمّل التكرار»، مارس 1888)، سيشير مرة واحدة: («وجدت ثماني نزهات، نوفمبر 1884). ستكون التلال طاولة كتابته، والبحر قنطرته العظيمة («البحر والسماء النقية، ماذا حصل لي كي أعذب نفسي في الماضي!» (يناير 1881).

وهو يمشي، سيذأ على العالم والبشر، يؤلف في الهواء الطلق، ويتخيّل ويكتشف، ويتحمس ويخاف مما يكتشفه، يضطرب ويؤخذ بما **يقع** أمام خطواته.

«يجعلني زخم مشاعري أضحك وأرتعد في الوقت ذاته - لم أتمكن من مغادرة غرفتي عدة مرات لسبب مثير للسخرية أن عينيّ صارتا حمراوين - ولماذا؟ لأنني في اليوم السابق، بكيت كثيرًا أثناء مشيي لمسافات طويلة، ليست تلك الدموع العاطفية، ولكن دموع السعادة والغناء والذهول، كنت مفتونًا بنظرة جديدة تسم امتيازي على بشر هذه الأيام»[3].

سوف يكتب، في غضون عشر سنوات، أعظم كتبه، من **الفجر** إلى **جينالوجيا الأخلاق**، من **العلم المرح** إلى **ما وراء الخير والشر**، دون أن ننسى زرادشت. سيصبح الناسك («أجد نفسي مرة أخرى ناسكًا، يمشي عشر ساعات في اليوم بخطوات الناسك»، يوليو 1880)، المتوحد، المسافر.

(1) المسافر وظله، ص 338.

(2) رسالة شهر سبتمبر، 1879.

(3) رسالة شهر أغسطس، 1881.

***

المشي هنا ليس، كما هي الحال عند كانط، أي ما يروّح عن النفس بعد العمل، وذلك الحد الأدنى من النقاهة التي تسمح للجسم بالتعافي من الجلوس، والانحناء، والانقصاف إلى قسمين. بالنسبة إلى نيتشه، المشي شرط العمل. وليس رغبة في استرخائه، أو حتى مرافقته، المشي هو بالضبط عنصره المكوِّن[1].

«نحن لسنا من أولئك الذين يفكرون فقط في خضم الكتب التي تنتظر فكرتها أن تولد من محفزات الصفحات؛ تتمثل روحنا في التفكير في الهواء الطلق، والمشي، والقفز، والتسلق، والرقص، ويفضل أن يكون ذلك في الجبال الوحيدة أو على شاطئ البحر، حيث المسارات نفسها تغدو غارقةً في التأمل»[2].

كثيرون آخرون كتبوا كتبهم فقط، انطلاقًا من قراءة كتب أخرى، لذلك كتب كثيرة تتضوع برائحة المكتبات المغلقة. كيف نحكم على كتاب؟ من رائحته (وأكثر من ذلك، كما سنرى: من خلال إيقاعه). بالنسبة إلى رائحته: تفوح من كتب كثيرة الأجواء الكثيفة لغرف القراءة أو المكاتب. غرف بدون نور، سيئة التهوية. يدور فيها الهواء بشكل سيئ بين الرفوف مُحمّلًا بالعفونة، والتحلل البطيء للورق، والتدهور الكيميائي للحبر. الهواء خانق بالميازما.

تتنفس كتب أخرى هواء نابضًا بالحياة: هواء الخارج النقي، ورياح الجبال العالية، التي تهبّ بهواء المرتفعات القارس الذي يغمر الجسم، أو في الصباح، الهواء النقي للمسالك الجنوبية المحفوفة بأشجار الصنوبر، الرياح العابرة بالعطور. هذه الكتب تتنفس. فهي ليست مثقلة، وليست مشبعة بسعة الاطلاع الميت، وغير النافع.

سندرك بسرعة كبيرة أن المؤلف توصل إلى فكرته وهو جالسٌ أمام محبرته، بطنه مرتخٍ، ورأسه محشور بين أوراقه، لا نحتاج إلى كثير من الوقت لقراءة كتابه! نشعر فورًا بضغط في الأمعاء وضيق في التنفس بالسرعة ذاتها التي نحس فيها بقلة الهواء، وانخفاض السقف، وضيق

---

(1) المعرفة المرحة، ص 366.

(2) المصدر نفسه.

الغرفة[1].

لكن، هناك البحث عن نور آخر، لأن المكتبات هي على الدوام، شديدة العتمة. تراص المجلدات وتراكمها، وارتفاع الرفوف، كل تلك الأشياء تتلاحم في المكتبة لتمنع ضوء النهار من الانسلال إلى الداخل.

أما الكتب الأخرى، فتعكس الضوء الساطع للجبال، أو بريق البحر تحت أشعة الشمس. وعلى الخصوص: الألوان. المكتبات رمادية، والكتب التي تؤلف داخلها كذلك: كل شيء مثقلّ بالاقتباسات والمراجع والهوامش والتنبيهات الحذرة والتفنيدات اللامحددة.

يجب أن نتحدث أخيرًا عن جسد الكاتب: يديه وقدميه وكتفيه وساقيه. الكتاب، تعبيرًا عن فيزيولوجيا. في العديد من الكتب، يشعر المرء أن الجسد منحنٍ، قاعد، مقوس، ومتقلص حول نفسه. أما الجسد الذي يمشي فهو ممدود وممدّد مثل قوس: مفتوح على الأماكن الفسيحة مثلما تتفتح الزهرة على الشمس. القامة منتصبة، الساقان ممدودتان، واليدان متحفزتان.

لكي نعبر عن تقديرنا لكتاب أو شخص أو موسيقى، فإن ردة فعلنا الأولى تكون بأن نتساءل: هل يعرفُ المشي[2]؟

إن كتب المؤلفين، أولئك المحبوسين خلف جدرانهم، المغروسين في مقاعدهم، عسيرة الهضم ثقيلة. إنها تولد من انتحال كتب أخرى موضوعة فوق الطاولة. إنها كتب مثل الإوز السمين: متخمة بالاقتباسات، محشوة بالمراجع، مثقلة بالهوامش. إنها ثقيلة وبدينة، وهي تُقرأ ببطءٍ وملل وصعوبة. إنهم يصنعون كتابًا من كتب أخرى، مقارنين بين سطور وأخرى، مكرّرين ما قاله الآخرون عما أمكن لآخرين أن يرووه. يتحقّقون، ويدقّقون، ويعدّلون: الجملة تصبح فقرة، وفصلًا. يصبح الكتاب تعليقًا لمئة كتاب عن جملة لكاتب آخر.

وعلى العكس من ذلك، فإن الذي يؤلف أثناء المشي متحرر من الارتباطات؛ فكره ليس عبدًا للمجلدات الأخرى، وليس مثقلًا بالتحقيقات،

(1) نفسه.
(2) نفسه.

ولا رازحًا تحت وطأة فكر الآخرين. إنه ليس مدينًا لأي أحد. إنه يفكّر ويحكم ويقرر فحسب. إنه الفكر المتولد من حركة، من وثبة. نُحس عنده بمرونة الجسم، وحركة الرقص. إنه فكر يحصّل، ويفيض طاقة، واندفاعًا للجسد. إنه تفكير في الشيء ذاته، بدون تشويش وضباب وحاجز وجمارك الثقافة والتقاليد. لن يعود التفكير براهين طويلة ومتلاحقة، وإنما يكون أفكارًا خفيفة وعميقة.

هذا هو الرهان: كلما كان التفكير أخفّ ارتفع، وغدا عميقًا لأنه عندما يحلق عموديًّا، يرى المستنقعات سميكة بالاعتقادات الراسخة والرأي والمعرفة المنصوص عليها. بينما الكتب المصمّمة في المكتبات، فهي على العكس، سطحيةٌ وثقيلة. إنها تبقى في مستوى النسخ المدرسي.

التفكير أثناء المشي، والمشي أثناء التفكير. وعلى الكتابة ألاّ تكون سوى استراحة خفيفة، كما يستريح الجسم أثناء المشي من خلال تأمل الفضاءات الشاسعة.

ختامًا، فهذا يعني، عند نيتشه امتدادًا للقدم. إننا لا نكتب باليد فقط، بل لا نكتب جيدًا إلاّ «بالقدمين». القدم دليلٌ ممتاز، وربما الأكثر ضمانة. من الضروري معرفة ما إذا كانت القدم، أثناء القراءة، «تفتح الأذن» -لأن القدم تسمع عند نيتشه، مثلما نقرأ في «نشيد الرقص» الثاني **لزرادشت**: «تنتصب أصابع قدمي للاستماع، لأن الراقص يحمل أذنيه على أصابع قدميه»- إذا ارتجف بلذة القراءة، فلأنه مدعو إلى الرقص، إلى الرحيل، إلى **الخارج**. للحكم على جودة الموسيقى، ينبغي الثقة في القدم. إذا أخذت القدمَ، أثناء الاستماع، رغبةٌ في الاحتفال بالإيقاع، واتكاءٌ على الأرض للقفز، فتلك علامة جيدة. كل موسيقى هي دعوة إلى الخفة. وعليه، فإن موسيقى فاغنر تُحبط القدم: وتبثُّ فيها الذعر، فلا تعود تعرف كيف تتموضع. والأدهى من ذلك أنها تُفتر، وتسحب، وتدور في كل الاتجاهات وتغضب.

أثناء الاستماع إلى فاغنر، كما سيقول في نصوصه الأخيرة، من المستحيل أن يشعر المرء بالرغبة في الرقص، لأنه يغرق في منعرجات موسيقى تبعث الدوار، وسيولٍ غامضة، واندفاعاتٍ مشوشة.

ما إن تعمل هذه الموسيقى عملها فيّ، حتى أشعر على الفور بصعوبة في التنفس: تتوتر قدمي وتتمرد؛ لأنها تودّ أن تتمكن من تحديد الإيقاع،

والرقص، والمشي -لأنها لا تطلب من الموسيقى على وجه الخصوص سوى سكرة المشي بشكلٍ جيّد[1].

كما رأينا، كان نيتشه يمشي طوال اليوم، يخربش هنا وهناك بما كان يوحي به إلى فكره هذا الجسدُ الذي يمشي، والذي كان يُجابه السماء، والبحر، والأنهار الجليدية، من جراء هذا التحدي. احتفظ من هذه الخطوات دائمًا بالحركة التصاعدية. يقول زرادشت أنا «الرجل الذي يرحل ويتسلق الجبال. أنا لا أحب السهول، لا أستطيع البقاء جالسًا في سلام لفترة طويلة؛ ومهما كان مصيري المستقبلي وما سأزال متمكّنًا من عيشه، فسوف يتطلب الأمر نهجَ طريقٍ وصعودًا؛ لأننا لا نقوم بالتجربة إلا على ذواتنا»[2]. المشي عند نيتشه هو أولاً ارتقاءٌ وتسلقٌ وصعود.

كان في عام 1876، وفي سورينتو قد اختار، لنزهاته اليومية مسالك جبلية خلف المدينة. وفي نيس، كان يُحبّ تسلق الطريق المفضي إلى قرية إز (Eze) الصغيرة، حيث كانت الطريق شديدة الانحدار فوق البحر. وفي سيلز ماريا، كان يسلك المسارات التي تصعد إلى الوديان العالية. وفي رابالو، كان يصعد مونت أليجرو («القمة الرئيسية في المنطقة»).

عند نيرفال، كانت مسارات الغابات -المتاهات المسطحة- والسهول المنخفضة تدعو الجسم المشّاء إلى النعومة والاسترخاء مستعيدًا الذكريات تمامًا كحركة الغمام. وعند نيتشه يشعر أن الهواء أكثر حيوية، وجاف، على الخصوص، وشفاف. الفكر حاد، والجسد متيقظ، ومرتجف. فلا مجال لذكريات تعود، وإما هي أحكام تسقط: تشخيصات، اكتشافات، تحزيز، وأحكام.

يبذل الجسم وهو يصعد قصارى جهوده، لأنه في توتر مستمر. وهو يساعد الفكر في تقصيه: قليلًا نحو الأبعد، قليلًا نحو الأعلى. ينبغي ألا تضعف، عليك أن تعبئ الطاقة للمضيّ قدمًا، عليك أن تطأ الأرض بقوة وترفع الجسم ببطء، ثم تعيد التوازن. والأمر مماثل بالنسبة إلى الفكر: عليك أن تبحث عن الفكرة التي تجعلك ترتفع إلى أكثر مما تعتقد، أكثر مما لم يتقدم له نظير، الأكثر جدة.

(1) كتاب قضية فاغنر.

(2) هكذا تحدث زرادشت، (المسافر).

ثم أيضًا: يتعلق الأمر بالارتفاع عاليًا. هناك أفكار لا يمكن أن تخطر بالبال إلا على ارتفاع ستة آلاف قدم فوق السهول والشواطئ الغائمة.

«على ارتفاع ستة آلاف قدم فوق الإنسان والزمان» في ذلك اليوم كنت أسير في الغابة على طول بحيرة سيلفابلانا. توقفت على مسافة ليست بعيدة عن سورلي، بالقرب من كتلة صخرية ضخمة، منتصبة مثل هرم. في ذلك الحين، داهمتني تلك الفكرة[1].

معرفة العالم وهو يهتز تحت قدميك (Suave turba magna).[2] كم هو عذب أن تأتي الحدوس، من خلال شفافية الأنهار الجليدية، الآسنة في المكان نفسه، أسفل الحشد الساكن؟ كلّا، مع ذلك، لم تبلغ أرستقراطية نيتشه هذه الدرجة من الازدراء المتغطرس.

يعني ذلك، بالأحرى، أن المرء، لكي يفكر، يجب أن يمتلك رؤية واضحة، وإطلالة شمولية على المكان، ويتوفر على هواء شفاف. كما يتطلب ذلك مرحًا حتى يكون المرء قادرًا على التفكير بعيدًا. وحينئذ لا أهمية للتفاصيل والضوابط والدقة: مصير الإنسان هو ما يجب أن تُحدد معالمه. من الأعالي، يمكننا أن نرى حركة المناظر الطبيعية، ورسم التلال. وكذا هو الحال بالنسبة إلى التاريخ: العصور القديمة، المسيحية، العصر الحديث. ما الذي يتمخض عنه هذا من نماذج وشخصيات وماهيات؟ بمجرد أن نلتصق بالتواريخ، والوقائع، حتى ينكمش كل شيء على طبيعته المتوترة. في حين يجب أن نبني الخيالات، والأساطير، والأقدار العامة.

ما زال يتعين علينا تسلّق مسافة طويلة، ببطء، ولكن دائمًا إلى الأعلى، لكي نحصل على رؤية واضحة جدًا عن حضارتنا القديمة[3].

شيء واضح مثل خط مسار. ليس هذا احتقارًا سخيفًا للجالسين، بل إنه التعاطف الذي يعترف نيتشه، بأنه كان مشكلته الدائمة («منذ أن كنت طفلًا، لم أتوقف مطلقًا عن التحقق من أن «الشفقة هي أكبر خطر يتهددني»، سبتمبر 1884)، هذه الشفقة لرؤية أناس يعملون، أو يذهبون إلى القداس أو الألعاب، للحصول على اعتراف من أشباههم، والتورط في

---

(1) هذا هو الإنسان (هكذا تكلم زرادشت).

(2) جملة لاتينية تعني (حشدًا كبيرًا لطيفًا) «المترجم».

(3) رسالة شهر يوليو، 1876.

صور حزينة: إنهم يفتقرون إلى ذواتهم. بينما من الأعلى، نفهم ما الذي يجعل الإنسان مريضًا، سمُّ أخلاق الإقامة والسكون.

ثم هناك دائمًا، أثناء المشي لمسافات طويلة جدًا، ذلك الممر بين جبلين حيث ينكشف فجأةً منظر طبيعي آخر. ثم هناك الجهد، والتسلق، ثم يستدير الجسد ليرى تحت قدميه الطبيعة الهائلة الممنوحة، أو عند منعطف مسار، حينها يحدث تحولٌ كامل: سلسلة من الجبال، حيث كانت الروعة في انتظار.

كثير من الشذرات كتبت حول هذه التقلبات للمنظورية، وهذه التعجبات الختامية، حيث ينكشف **شيء آخر**، سر العثور على مشهد طبيعي جديد، وما يصاحب ذلك من ابتهاج.

وفي الأخير، ربما ينبغي أن نقول ما يدين به «العود الأبدي» إلى تجربة المشي. علمًا بأن الرحلات الطويلة التي قام بها نيتشه كانت في اتجاهات معروفة، وهي مسارات معلَّمة، كان يرغب في تكرارها. لكل من يقطع شوطًا طويلًا للوصول عند منعرج الطريق إلى التأمل المنشود، هناك دائمًا ذبذبة المناظر الطبيعية. يتم التكرار في جسد المشّاء. إن توازن الحضورين، مثل وترين متناغمين، يهتزّان ويتغذّيان على اهتزازات بعضهما، يشبه اندفاعةً لانهائية.

العود الأبدي هو أن ينفتح في دائرة مستمرة تكرار هذين التأكيدين، وتتحول ذبذبة الحضور إلى دائرة. إنه سكون المشّاء أمام سكون المشهد الطبيعي، كثافة هذا الحضور المشترك نفسه، هي التي تولّد دورانًا لانهائيًا من المبادلات: كنتُ دائمًا هنا، وغدًا، لتأمُّل هذا المشهد الطبيعي.

***

ومع ذلك، ففي منتصف سنة 1880، سيشتكى نيتشه هنا وهناك من أنه لم يعد بمقدوره المشي كما كان يفعل في السابق. صار يعاني من آلام في الظهر ويضطر إلى قضاء وقتٍ طويلٍ مستلقيًا على أريكة. ومع ذلك كان يصر على المشي، لكن نزهاته أصبحت أقل طولًا. بل إنه في بعض الأحيان كان يصطحب معه مرافقًا. «ناسك السيلس»، كما كان يطلق عليه، كان في الغالب يمشي رفقة حاميات، فتيات معجبات: هيلين زيمرن التي ترجمت

شوبنهاور مربيًا، وميتا فون ساليس، الأرستقراطية الشابة التي تمنحه ضمانة واسعة للنبلاء المحليين، والطالبة ريزا فون شيرنهوفر، وهيلين دروسكوفيتش التي تنبهت للفلسفة.

لم تعد النزهات هي نفسها، وأمست أقل عزلة. صار نيتشه يلعب، أكثر فأكثر، لعبة الرجل المهذب، اللطيف مع النساء، والمحاط بالمثقفات. وهو يُطلعهن على الصخرة التي ألهمته إشراقة «العود الأبدي»، ويكشف أسرارًا جارحة، بخصوص صداقته مع فاغنر.

ثم تعود معاناته للظهور ببطء: منذ عام 1886، أخذ يشتكي مرة أخرى من الصداع النصفي الممتد الفظيع. وتعود أيضًا نوبات القيء. كان عند كل رحلة يقوم بها، يستغرق أيامًا عديدة كي يتعافى من آلامه. في بعض الأحيان، إذا قام بنزهة طويلة قليلًا، يلزم الفراش منهكًا أيامًا عديدة.

أصبحت المدن تثير اشمئزازه أكثر فأكثر: يجدها متّسخة ومكلّفة. ليس لديه ما يكفي من المال، خلال إقامته الشتوية، ليستأجر إقامة في نيس تُشرف على الجنوب، لهذا بدأ يعاني من البرد. في سيلس خلال الصيف، أصبح الطقس يبدو في معظم الأوقات سيئًا جدًا. أما البندقية فأصبحت، بالنسبة إليه، محبطةً بشكل مروع. زادت حالته الصحية تدهورًا.

التحوّل النهائي. هذا هو الفصل الأخير من حياته الذي ابتدأ كما لو أنه نشيد انبعاث، كما لو أنه نشيد الفرح. يكتشف تورينو، للمرة الأولى، في إبريل عام 1888. كأنها إشراقة: كانت المدينة كلاسيكية تمامًا بالنسبة «للمتجول كما للناظر -ويا لها من أرصفة!». كان يشعر بالغبطة وهو يمشي لمسافات طويلة على طول نهر «بو».

وبعد صيفٍ أخيرٍ حالكٍ في سيلس، كان لا يفارقه («الصداع النصفي الأبدي، والقيء المتواصل»)، عاد إلى تورينو في سبتمبر. إنه الفرح مرة أخرى، المعجزة نفسها.

يعيش نيتشه حالة من السعادة المفاجئة، ومن الصحة الرائعة. لقد توقفت المعاناة بكل مظاهرها، كأنها حياة سحرية. لم يعُد يشعر بثقل جسده وإنما بخفةٍ، وقوةٍ دافعة. صار يعمل بسرعةٍ وجودة. لم تعد عيناه تؤلمانه. وأضحت معدته تتحمل كل شيء. وخلال أشهر معدودة سيكتب

مؤلفات عديدة، مثل نثارات البارود. كان يمشي بشغف ويجمع الملاحظات في المساء عن عمله الهائل حول قلب القيم.

في الأيام الأولى من شهر يناير من عام 1889، توصل جوزيف بوركاردت برسالة من نيتشه مؤرخة في السادس من يناير. أحس بالخطر: إنه خطاب شيطان، ومجنون («في نهاية الأمر، كنت أفضّل أن أكون أستاذًا في بازل بدل أن أكون الرب، لكنني ترددت في أن أدفع الأنانية إلى هذه الدرجة إلى حد أنني استغنيت عن خلق العالم»).

ستشهد رسائل أخرى في هذا الأسبوع الأول من يناير عن الحالة نفسها. بدأ نيتشه يوقع رسائله باسم ديونيزوس، أو المصلوب («ما إن اكتشفتني، حتى سهل عليك أن تجدني، لكن الصعوبة، من الآن فصاعدًا، تكمن في أن تضيّعني»).

يكتب بوركاردت على الفور إلى أوفيربيك محذرًا، هذا الأخير سيهرع إلى تورينو. عندما وصل إلى هناك، لم يجد صعوبة في العثور على نيتشه في بيته المأجور الصغير، عند فينو. لم يعد مستأجروه يعرفون كيف يتصرفون معه، فقد: أصبح نيتشه منفلتًا عن السيطرة، طوّق رقبة حصان كان سائسه قد ضربه بقسوة، فأجهش نيتشه بالبكاء طويلًا. كما أنه شرع يتجول متفوهًا بكلماتٍ مفكّكة، منتقدًا الجمهور، ومقتفيًا الجنازات ومعلنًا موته.

يدلف أوفيربيك فيجد نيتشه مكوّمًا داخل أريكة، شاردًا، يُحدّق بفزعٍ في مسودة كُتيبه الأخير. عندما سيرفع بصره، سيرى صديق العمر، سيشعر نيتشه بوقع صدمة المفاجأة، فينهض، ويلقي بنفسه في حضن صديقه: تعرف إليه، فتشبّت به باكيًا. يكتب أوفيربيك واصفًا المشهد: كما لو أنه رأى الهاوية السحيقة تنفتح أسفل قدميه.

يجلس متكوّمًا على نفسه مرة أخرى. أصبح نيتشه يلقي خطابات مطولة: إنه أمير والكل مدين له بالاحترام. نُقل بواسطة القطار: يُغنّي بصوتٍ عالٍ ومجعجع. أصبح نيتشه مجنونًا. لكن في الأخير نجحوا في إعادته إلى بازل، بعدما أخبروه أنه إذا عاد، فسيقام حفل تكريم على شرفه.

صار نيتشه مجنونًا. فأُدخل مصحةً في بازل. ثم بدأ ينقل من بازل إلى

يينا، لكن دون تقدم ملحوظ، فأخذته والدته في نهاية المطاف إلى بيتها في نومبورغ، حيث ستعتني به حتى وفاته بتفانٍ وصبرٍ وحب. كانت تحمّمه، وتهتم به، وتواسيه وتأخذه في نزهات. خلال سبع سنوات. سيبقى نيتشه حبيس الصمت أكثر من أي وقت مضى، في بعض الأحيان يتلو خطابات عشوائية. كما أضحت جُمَلُه عبارة عن شذراتٍ وبقايا كلام، بل لم يعد يفكر مطلقًا. وفي أحيان أخرى كان يرتجل عزفًا على البيانو. وسرعان ما توقف الصداع النصفي نهائيًا، ولم تعد عيناه تؤلمانه.

أدركت أمّه أن النزهات وحدها ولمسافاتٍ طويلةٍ تُحسّن من حالته الصحية. لكن الأمر لم يكن سهلًا: كان نيتشه يهاجم المارة في الشارع ويصدر أنينًا. لهذا ستقلل من خرجاته، ولأنها صارت تخجل، تخجل من ابنها الكبير البالغ من العمر أربعين عامًا وهو يصرخ مثل الدب، أو يسبّ الرياح، فاضطرت إلى تغيير توقيت الخروج إلى المساء، حينما لا يكون في الخارج أحد، وبذلك يمكنه الصراخ دون أن يزعج الآخرين.

لكن سرعان ما سيتحول الجسد نفسه إلى عائق: بدأ الشلل يغزو الظهر تدريجيًا، فوجد نيتشه نفسه قابعًا في كرسي: يُدفع، ويُحرّك مثبتًا نظره على يديه لساعات طويلة، متأملًا الواحدة تلو الأخرى، أو يحمل الكتب مقلوبة، يغمغم ببضع كلمات. كان متكومًا على الأريكة، بينما الحركة من حوله. لقد أصبح طفلًا مرة أخرى. تُخرجه أمه إلى الشرفة على كرسي متحرك. مع بداية خريف عام 1894، لم يعد يتعرّف على أحدٍ ما عدا أمه وشقيقته، سيبقى نيتشه خائر القوى. بلا حراك في الغالب، منكمشًا في الأريكة، مستغرقًا في التحديق إلى يديه. يتمتم بجمل قليلة جدًا: «مجمل القول، موت»؛ «أنا لا أزرع الخيول»؛ «مزيدًا من النور».

كان لا مناص من الانهيار البطيء. أصبحت عيناه غائرتين، ونظراته زائغة.

توفي يوم 25 أغسطس 1900، في مدينة فايمار.

من المحتمل أن أكون، بالنسبة إلى الإنسان القادم، قضاءً وقدرًا، لذلك فمن المحتمل جدًا أن أصبح أخرس محبةً للإنسان!

خارج

المشي يعني أن تكون في الخارج. الخارج، كما يقال حيث «الهواء الطلق». يؤدي المشي إلى انقلاب منطق قاطن المدينة، وحتى منطق وضعنا البشري الأكثر انتشارًا.

عندما نذهب إلى «الخارج»، يكون دائمًا الانتقال من «داخل» إلى مكان آخر: من المنزل إلى المكتب، ومن المنزل إلى المتاجر المجاورة. نذهب للقيام بشيء ما، في مكان آخر. لهذا يعتبر الخارج انتقالًا: مما يفصلنا، وما يعدّ عقبةً تقريبًا. بين الـ«هنا» والـ«هناك». لكن ذلك ليس له قيمة خاصة. نعبر المسافة من المنزل إلى المترو، في الأوقات جميعها، بجسدٍ مضغوط، وفكرٍ ينشغل بالتفاصيل الخاصة، مقذوفٍ نحو التزامات العمل قذفًا، والساقان راكضتان، بينما تتأكد اليد، وتتحسس الجيوب بعصبية، إذا ما كنا قد نسينا شيئًا. يوجد الخارج بالكادّ: مثل ممرٍّ كبيرٍ يفصل، مثل نفق كبير.

أحيانًا أيضًا، نخرج فقط «لاستنشاق الهواء»: لانتشال أنفسنا بعيدًا عن ثقل حركة الأجسام والجدران، ولأننا نشعر بالاختناق كثيرًا في الداخل، «للتهوية» عندما تشرق الشمس هناك وحتمًا حين يتبيّن أنه ليس من العدل أن نرفض النور المعروض علينا. وإذًا، نعم، نحن نخرج للمشي بعض خطوات، فقط لكي نكون بالخارج، وليس للذهاب هنا أو هناك، للشعور بالطراوة المنعشة لنسيم الربيع أو الدفء المؤقت، لشمس الشتاء. من أجل توقُّف. من أجل استراحة. يخرج الأطفال أيضًا لمجرد الخروج. «اذهب خارجًا» معناه هذه المرة: إلعب، إجرِ، إضحك. وفيما بعد سيعني «الخروج»: الالتحاق بالأصدقاء، والابتعاد عن الوالدين، والقيام بشيء آخر. ولكن في معظم الأحيان، الخارج يوجد مرة أخرى بين مكانين داخليين: ما بين استراحة، وانتقال. إنه فضاء يستغرق بعض الوقت.

خارج.

خلال المسيرات الممتدة على طول عدة أيام، وفي رحلةٍ كبيرة، ينقلب كل شيء. «الخروج» لن يعود مرحلة انتقالية، ولكن عنصرًا للاستقرار. ينقلب كل شيء؛ نذهب من الكوخ إلى السكن، من الملجأ إلى المأوى. «الداخل»

هو الذي يتغير دائمًا، وإلى أجل غير مسمى. لا ننام مرتين في السرير نفسه، لأن ضيوفًا آخرين ينتظرون كل ليلة دورهم في النوم، المفاجآت تجدد الديكورات، والأجواء. نلاحظ مجموعة متنوعة من الجدران والحجارة.

فنتوقف. الجسد متعب، والليل يُرخي سدوله، يجب أن نستريح. ولكن في الداخل هناك مراحل في كل مرة، وطرق للبقاء في الخارج لفترة أطول، أمام شق الانتقالات.

يجب أن نذكر أيضًا الانطباع الغريب الذي تُحدثه خطوات الصباح الأولى. ونحن نسترشد بالخريطة، ونحدد المسار، نأخذ قسطًا من الراحة. نُعيد توازن الحقيبة، نرصد المسار، ونتأكد من الاتجاه. تفترض هذه الأشياء، كلها تخفيفًا للمشي، وتراجعًا إلى الوراء، ولحظات توقف: نتوقف، نتأكد، ندور حول الموقع، ثم ينفتح الطريق، فننخرط سريعًا، ونكتسب الإيقاع. نرفع رؤوسنا، وها نحن قد انطلقنا، ولكن الانطلاقة هي من أجل المشي، والبقاء في الخارج. حسنًا! يعني هذا الخارج أننا هناك. الخارج هو عنصرنا: الشعور الدقيق بالعيش هناك. نترك مأوى من أجل مأوىً آخر، لكن الاستمرارية، التي تدوم وتُصرّ، هي ذلك البهاء الذي يحيطنا، البارز في سلاسل التلال الموجودة دائمًا هناك. بينما أنا أحوم حولها، أتجوّل وكأنني داخل بيتي: أثناء المشي، أباشر قياس مسافة مسكني. إن ما نجتازه من مسالك مفروضة، ونجوبه ونتركه خلفنا، هي غرف ليلة واحدة، صالة طعام ليلة واحدة، وساكنوها وأشباحها، وليس مناظر الطبيعة.

وبذلك، فإن الفصل الكبير بين «الخارج» و «الداخل» يضطرب نتيجة المشي. لا ينبغي أن نقول إن المرء يعبر الجبال والسهول ويتوقف للاستراحة في مآوي. إنه عكس ذلك تقريبًا: خلال عدة أيام، أعيش داخل منظر طبيعي، وأستحوذ عليه ببطء، وأجعله ملاذي الخاص.

ومن ثمة يمكن أن يظهر هذا الانطباع الغريب في الصباح، عندما نترك وراءنا جدران الاستراحة، ونصير وجهًا لوجه أمام الرياح، في وسط العالم. هنا أهتف: هنا بيتي طوال اليوم، هنا سأمكث ماشيًا.

بطء

سأتذكر، لفترة طويلة، عبارته. كنا نتسلق مسارًا حادًا في جبال الألب الإيطالية. من المؤكد أن ماتيو كان يتمتّع بميزة تجربةٍ طويلةٍ من المشي دامت نصف قرن على الأقل: يبلغ من العمر أكثر من خمسة وسبعين عامًا. كان نحيفًا كحبل، ويده كبيرة وخشنة، ووجهه محفور بالتجاعيد. يقف مستقيمًا على الدوام. كان يطوى ذراعيه وهو يمشي، مثلما نفعل في الجو البارد. وكان مرتديًا سروالًا من الكتّان البنيّ الفاتح جدًا.

هو من علّمني المشي. وأنا، الذي قلت قبل حين: إننا لا نتعلم المشي، على الأقل، لا توجد هناك تقنية، ولا حقيقة للوصول إلى هناك، ولا القيام بهذا الأمر بدلًا من الآخر، هناك دائمًا الاستدراك، والتكرار، والتركيز. الجميع يعرف طريقة المشي. قدمٌ أمام الأخرى، هذا هو المقياس الصحيح، والمسافة الصحيحة للذهاب إلى مكان ما، إلى أي مكان. يكفي أن نبدأ من جديد.

قدمٌ أمام أخرى.

لكن عندما أقول «تعلّم» المشي، فمن أجل التعبير فقط. لبضع دقائق كنا نسير على مسلكٍ متصاعد، شعرنا بضغطٍ وراءنا. كانت مجموعة من الشباب يُحدثون ضوضاء، يريدون السير بسرعة، بغية تجاوزنا، قد شرعوا في خبط أقدامهم ليشعرونا بوجودهم، لذلك تنحّينا جانبًا، وتركنا المجموعة الزاعقة والمتعجّلة تمرّ إلى الأمام، وهي تشكرنا بابتسامات الزهو. وهنا قال ماتيو وهو يراقبهم ينسلّون: «وإذًا، يخشون ألا يصلوا، لهذا يمشون بهذه السرعة الكبيرة!».

كان الدرس أن الدليل الحقيقي للثقة أثناء المشي هو البطء الجيد. أريد أن أتحدث، مع ذلك، عن بطء المشّاء الذي ليس بالضرورة ضد السرعة. إنه أولًا التناسق الدقيق للخطوات، وانتظامها. وعند هذه النقطة يمكن القول إن المشّاء الجيّد ينزلق أثناء المشي، أو بالأحرى ينبغي أن نقول إنّ ساقيه تدوران وتشكّلان دوائر. يمكن للمشّاء السيئ أن يسير بسرعة، ثم يرفع من السرعة، ثم يبطئ. ستكون حركاته متشنجة، وسوف ترسم الساقان زوايا

منكسرة. إن سرعته ستقوم على التسارع المفاجئ، ثم يصبح النفس ثقيلًا. وتصير الحركات الكبيرة طوعية، والقرارات في كل لحظة تدفع الجسم دفعًا إلى الانجرار. الوجه محتقن ومتعرّق. لهذا فالبطء، هو على الخصوص، ضد التسرع.

عندما التحقنا عند القمة بمجموعة الرياضيين، كانوا جالسين يُعلّقون بحماسٍ على نتائج توقيتهم وهم يقومون بحساباتٍ عجيبة. إذا كانوا مستعجلين بهذه الكيفية، فلأنهم يريدون إنجاز توقيت معين. **تحقيق توقيت**، يا لها من عبارة عجيبة. توقفنا لحظة، لكي ننظر إلى مشهد طبيعي، في حين واصلت المجموعة تعليقاتها الطويلة ومقارناتها اللامنتهية، ثم انصرفنا بأناةٍ وتمهّل. إن وهم السرعة يكمن في اعتقادنا أننا سنكسب الوقت. يبدو الحساب للوهلة الأولى بسيطًا: القيام بالشيء في ساعتين بدل ثلاث ساعات، وهذا يعني ربح ساعة. إنه مع ذلك حسابٌ مجرد: يبدو الأمر كما لو أن كل ساعة من اليوم كانت هي ساعة الساعة الميكانيكية، وأنها مساوية لها تمامًا.

لكن العجلة والسرعة تسرّعان الوقت، الذي يمر بشكل أسرع، وساعتان على عجل تختصران يومًا. كل لحظة تتمزق لفرط تجزيئها، وحشوها حد التصدّع، نكدس في ساعة جبلًا من الأشياء.

إن نهارات المشي البطيء طويلة للغاية: فهي تجعل الحياة أطول، لأننا أفسحنا المجال لكل ساعة، وكل دقيقة، وكل ثانية، كي تتنفس وتتعمق، بدلًا من ملئها بإرغام المفاصل والضغط عليها. الاستعجال هو أن تفعل أشياء عدة في وقت واحد، وبسرعة، هذا الشيء، وذلك الشيء، ثم شيئًا آخر. عندما نكون في عجلة من أمرنا، يكون الزمن مليئًا حد الانفجار، مثل الدرج المملوء، بدون ترتيب، تتكدّس فيه الأشياء بعضها فوق بعض.

أما البطء فهو الالتصاق تمامًا بالوقت، لدرجة أن الثواني تنغرس، وتقوم بالتنقيط مثل زخات مطر فوق حجر. **هذا التمدّد للوقت يعمّق الفضاء.** يكمن أحد أسرار المشي في الدنو البطيء من المناظر الطبيعية، بحيث نجعلها مألوفة تدريجيًا. إنها تشبه المخالطة المنتظمة بين الأشخاص التي ترتقي إلى مقام الصداقة. وإذًا، هناك صورة جبلية نحتفظ بها معنا طوال اليوم، ونُخمّنها تحت أضواء مختلفة، فتتحدد وتتدقق. عندما نمشي لا شيء يتحرك، ولكن كلما اقتربت التلال شيئًا فشيئًا من بعضها،

يتغير المنظر الطبيعي. كما يحدث عند النظر من نافذة القطار أو السيارة، نلاحظ جبلًا قادمًا إلينا. العين سريعة ويقظة، تعتقد أنها فهمت كل شيء، واحتوت كل شيء. عند المشي، لا شيء يتحرك حقًا: إنه حضور ما يستقر في الجسم ببطء. عند المشي، لا يعني أننا نقترب أكثر، بل إن الأشياء الموجودة هناك تصرّ دائمًا على الإقامة في أجسادنا.

إن المنظر الطبيعي عبارة عن حزمة من النكهات والألوان والروائح، لا تنفك تُبثّ في الجسد.

هوس الهروب (رامبو)

«لا أستطيع أن أعطيك عنوانًا ردًّا على سؤالك، لأنني لا أعرف شخصيًا أين سأنجزُ قريبًا، وعبر أيّ طريق، ولا إلى أي اتجاه، ولا لماذا، ولا كيف!»[1].

اعتبره فيرلين «الرجل الذي انتعل الرياح» في سن مبكرة، قال رامبو عن نفسه: «أنا أمشي على قدميّ ولا شيء أكثر من ذلك» مشى رامبو حياته كلها.

بعنادٍ وهوس. ما بين الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة، مشى للحاق بالمدن الكبرى: باريس الآمال الأدبية، ليعترف بنفسه وسط دوائر بارناس، ولملاقاة شعراء مثله،وهو الوحيد إلى حد اليأس، ولكي يكون محبوبًا و(قراءة قصائده)؛ ثم بروكسل مرة أخرى، للعمل بالصحافة. وما بين العشرين والأربعة والعشرين عامًا، وعاد إلى البيت لقضاء فصل الشتاء. حاول أن يسلك طريق الجنوب عدة مرات، ثم التحضير للرحلة. كانت هذه الرحلات المتواصلة ذهابًا وإيابًا بين موانئ البحر المتوسط (مرسيليا أو جنوة) وشارلوفيل. هي محاولات للمشي نحو الشمس. وما بين الخمسة والعشرين ووفاته، سيسلك طرقات الصحراء. المشي هذه المرة تحت الشمس. من عدن إلى هارار، ولمرات عديدة.

هيا إلى المشي، هيا إلى العبء، الصحراء، السأم والغضب.

***

في الخامسة عشرة من عمره، افتتن رامبو بمدينة الشعراء، باريس، ولأنه كان يشعر بالوحدة طويلًا وباللاجدوى في شارلوفيل، هرب رامبو مترعًا بالأحلام الساذجة. غادر مشيًا على الأقدام، في صباح أحد الأيام من شهر أغسطس، وفي وقت مبكر جدًا، دون أن يقول أي شيء. مشى بلا شك إلى جيفت، ثم أخذ القطار. لكن الكتب التي باعها (كتب الجوائز التي تلقّاها، لأنه كان طالبًا ممتازًا) لم تكن كافية لدفع تكاليف الرحلة الكاملة إلى العاصمة. وصل إلى باريس، وفي محطة ستراسبورغ، كانت

(1) رسالة عدن، 5 مايو 1884.

الشرطة بانتظاره: أُلقي عليه القبض بتهمة السرقة والتشرد، ونُقل على الفور إلى قسم الشرطة، ثم إلى سجن مازاس. لكن أستاذه لمادة البلاغة، إيزامبارد الشهير، هبّ لمساعدته، وتحرير تلميذه، فدفع المبلغ المستحق على رامبو مقابل الرحلة إلى شركة السكك الحديدية. كان خط شارلوفيل ما زال مقطوعًا، بسبب الحرب، فذهب رامبو إلى دواي، عند عائلة عرّابه. سيقضي أيامًا سعيدة، وهو يتحدث عن الأدب، مُدللًا من طرف أختين كبيرتين، لكن أمه ستستدعيه مرة أخرى. بعد شهر بالكاد، يبيع رامبو المزيد من الكتب، ويهرب مرة أخرى. يأخذ القطار إلى فوماي، ثم يواصل سيرًا على الأقدام، من قرية إلى قرية (فيرو، غيفت)، على طول نهر الميوز، إلى أن بلغ شارلروا.

منذ ثمانية أيام، مزقتُ حذائي

فوق حصى الطرقات، ودخلت شارلروا.

هناك سيعرض خدماته على صحيفة شارلروا، لكن صاحبها سيرفض توظيفه. حينئذ سيذهب إلى بروكسل، دون بنس واحد، ودائمًا مشيًا على الأقدام، ليجد، على الأقل، عرابه إيزامبارد، بعد قطعه مسافة خمسين كيلومترًا.

أسير، يداي في جيبيّ المثقوبين،

معطفي كذلك أصبح نموذجيًا؛

كنت أسير تحت السماء، أيها الإلهة موز! وكنت مخلصك؛

آه! من هناك! يا للحبّ الرائع الذي حلمت به!

سيقطع خمسين كيلومترًا مشحونة بالتعجُّب المبهج، يداه في جيبيه حالمًا بالمجد الأدبي والحب. لم يجد إيزامبارد في المدينة. سيعطيه دوراند، صديق أستاذه، قليلًا من المال ليعود أدراجه. لن يرجع رامبو إلى المنزل مباشرة، لكنه سيذهب إلى دواي، عائلته الجديدة: «هذا أنا، لقد عدت» لقد وصل مشحونًا بأشعارٍ وُلِدت على طول الطرقات إنها -استنارات الهروب- المؤلَّفة من إيقاع المسارات وحركة الذراعين المتأرجحين.

إنه شعر السعادة والراحة الاحتفالية في المآوي الريفية. والرضا من المسافة التي قطعها، والجسم المترع بالفضاء. إنه الشباب.

مغتبطًا، مددتُ ساقيَ تحت الطاولة.

سيمضي أيامًا وأيامًا من المشي خلال فصل الخريف، بين الألوان الشقراء.

وليالٍ ضاحكةٍ في العراء، على قارعة الطرقات، وتحت سقف من النجوم.

كان مأواي في لاغراند- أورس (الدب الكبير)

كان لنجومي في السماء حفيفٌ عذب.

سيقوم رامبو بنسخ ابتكاراته بعناية على أوراق بيضاء كبيرة. بسعادةٍ غامرةٍ يستمدُّها من شعوره بمودة عائلته الجديدة. كان في السادسة عشرة. في 1 نوفمبر، أمرت أم رامبو («فم الظل»)[1] إيزامبارد بإعادة ابنها إليها دون تأخير. وتم ذلك عن طريق الشرطة، «لتتجنب التكاليف». فبراير 1871 إنها الحرب الفرنسية البروسية. يحلم رامبو دائمًا بباريس، التي لم يتعرّف إليها بعد، لأنه أثناء زيارته الأولى أمضى أيامه فيها وراء جدران السجن. في شارلوفيل، سيشتد البرد. يعطي آرثر لنفسه مظهرًا لافتًا، سيطيل شعره بشكل غير متناسق. يمشي بفخر في الشارع الرئيسي، يدخّن غليونًا مستشيطًا غيظًا. ودون أن ينبس بكلمة، وخلسة يعدّ فرارًا جديدًا. باع هذه المرة ساعةً فضية، وأصبح يملك ما يكفي لدفع ثمن تذكرة القطار للذهاب إلى وجهته الجديدة.

في 25 فبراير، سيتسكع في باريس، محدقًا بانفعال في واجهات المكتبات، مستفسرًا عما يُكتب من شعرٍ جديد، سينام في قوارب الفحم، ويتغذّى على بقايا الطعام. ويحاول محمومًا التواصل مع السيناكل[2]. ولكن الوقت لم يكن مناسبًا للأدب: فالبروسيون يقتحمون المدينة، والمدينة تُغطى بالحجب السوداء. كانت معدته فارغة مثل جيوبه، يعبُر رامبو خطوط العدو للعودة إلى المنزل، سيرًا على الأقدام، وأحيانًا يحظى بمساعدة عربات الفلاحين. لقد عاد إلى المنزل «شبه عارٍ ليلًا، ويعاني من التهاب رئوي حاد».

(1) إحدى الصفات التي وصف بها رامبو أمه القاسية وهي مستوحاة من قصيدة شهيرة لفيكتورهيغو، (المترجم).

(2) حلقة أدبية في باريس، المترجم.

هل سيرحل في الربيع؟ هل هذه الأسطورة حقيقية؟ أم لغز؟ لن نعرف أبدًا. يجب أن يكون رامبو قد تفاعل مع أخبار الكومونة. إنه غاضب في شارلوفيل من أن يشعر بأن ثورة تحدث هناك، وهو كاتب دستور شيوعي. كانت طفولته تقية، لكنه أصبح جمهوريًا شرسًا، ومنتقدًا ومعاديًا لرجال الدين. جعله إعلان الانتفاضة، باسم الأخوة والحرية، يعيش حالةً من الاضطراب، لا يتوقف عن ترديد عبارة «النظام مهزوم». في شهر مارس أُعلنت الكومونة. وربما شوهد في باريس خلال شهر إبريل. لن نعرف أبدًا. يروي ديلاهاي أن آرثر أصبح عضوًا، وتطوع جنديًا في ثكنات بابل، جنديًا غير نظامي. سيستمر الحدث خمسة عشر يومًا. سيصل على متن قارب الفحم، ومن المحتمل أنه عاد إلى المنزل سيرًا على الأقدام، في ذروة البؤس والتعب، لأنه لا يملك مالًا.

سيعود للمرة الرابعة (أو الثالثة فقط؟) إلى باريس. يجب أن تكون هذه المرة عودة حقيقية، لأنها لحظة الاعتراف بالموهبة. في خريف عام 1871 كان في حدود السابعة عشرة. هذه المرة أخطر والدته. هذه رحلة رسمية تقريبًا. لأنهم في انتظاره هناك. بل هو مدعو. بفضل بعض العلاقات من طرف فيرلين «تعالي، تعالي بسرعة، أيتها **الروح العزيزة العظيمة**» الذي كان قد أرسل إليه أشعاره. جمعت من أجله تبرعات لدفع ثمن القطار. سيحضر رامبو مصحوبًا بـ «القارب المخمور» إلى باريس كضمانٍ وقربانٍ وبرهانٍ على موهبته.

سيتلو ذلك، كما نعلم، ثلاث سنوات مديدة سيقوم فيرلين برعاية رامبو، ثلاث سنوات طويلة من العلاقة العاطفية العاصفة: جنون زوتيك (zutiques)[1]، ثلاث ليال مضطربة معًا في لندن، بين شرب الكحول بإسراف، وعواصف رهيبة، ومصالحات سامية، ثم كانت الطلقة المؤسفة التي ستنهي كل شيء في بروكسل. إثر ذلك سيذهب فيرلين إلى السجن، ويعود صديق النار بضع مرات إلى (شارلوفيل أو روش). ما زال يشعر بالملل بشكل رهيب. أبعدته مغامراته مع فيرلين من الشلل الأدبية. منذ بداياته في باريس، سيُعرف بأنه طفل قذر، سوقيٍ ووقح، ومدمن على الكحول.

في عام 1875، صار في العشرين من عمره، فكتب (**فصل في الجحيم**،

(1) حلقة الشعراء الزوتيكيين أو الزوتيسيين تضم نخبة من الأدباء والفنانين يجتمعون في فندق الأجانب في زاوية شارع راسين وشارع مدرسة الطب في باريس. بداية من شهر سبتمبر إلى شهر أكتوبر 1871.

وإشراقات، وربما **مطاردة روحية** التي ضاعت إلى الأبد). لن يؤلف بعد الآن. كان نشر **فصل في الجحيم**؛ كارثة حزينة. لا يمكنه أن يدفع للناشر، لن يحمل معه سوى عدد قليل من النسخ. ولن يرى أبدًا نشر **إشراقاته**. في غضون خمس سنوات، تمكّن هذا الفتى من تغيير الأدب برمته. وبعد ذلك، لن يكتب قصيدة واحدة. ربما العديد من الرسائل، بأسلوب تلغرافي، على شكل (ومضات)، ولكنه لن يكتب قصيدة كاملة. في المقابل، سيمشي كثيرًا، مرة أخرى، بعناد.

هذه المرة، يريد السفر بعيدًا، داخل غرفته، سيتعلم اللغات معتمدًا على نفسه. سيدرس اللغة الألمانية، وسيبدأ بالتحدث بالإيطالية، سيعكف على دراسة اللغة الإسبانية، ويعمل على قاموس يوناني- روسي، وربما تعلم أيضًا مبادئ اللغة العربية. طوال خمس سنوات، سيقضي فصول الشتاء في التعلم. ويخصص فصول الربيع للمشي الطويل.

في عام 1875، سيقرر من شتوتغارت الذهاب إلى إيطاليا. سيعبر سويسرا، أولًا بالقطار، لكن المال سينفد منه قريبًا، فيواصل السير على الأقدام، سيتسلق جوتهارد، ويصل منهكًا إلى ميلانو حيث ستستضيفه امرأة غامضة. ثم سيذهب إلى بريندیزي مشيًا على الأقدام، لكن في الطريق بين ليفورنو وسيينا، سيتعرض لضربة شمس. على إثرها سيعود إلى مرسيليا، ومن ثمة إلى باريس، ثم مرة أخرى إلى شارلوفيل.

في عام 1876، ستبدأ مغامراته الحقيقية، إذ ستتجاوز جموحه للمشي. سيغادر إلى روسيا، بعد أن حلق جمجمته، لكنه لن يتجاوز فيينا، لأنه وُجد نصف ميت وبدون وثائق، إذ تعرض للضرب على يد سائق عربة. ثم جُنِّد في الجيش الهولندي، لكنه هرب إلى سالاتيجا (إندونيسيا).

في عام 1877، سيذهب إلى بريمن، حيث سيحاول أن يبحر إلى أمريكا، لكنه سيجد نفسه في استكهولم يعمل في سيرك بائعًا للتذاكر. ثم يعود مرة أخرى إلى شارلوفيل.

في عام 1878، سيقرر في مرسيليا ركوب سفينة متوجهة إلى مصر، لكنه سرعان ما سيمرض، فيرحَل قسرًا إلى وطنه. سيعود إلى منزل أسرته سيرًا على الأقدام. ثم يسافر إلى سويسرا مرة أخرى، وبعد ذلك سيصعد إلى سان جوتهارد مشيًا على الأقدام إلى أن يصل إلى جنوة حيث سيتوجه

منها إلى قبرص (سيعمل رئيس ورش عمل). ولكن في ربيع عام 1879، لن تدعه الحمى في حال سبيله، فيعود القهقرى إلى المنزل. مع بداية شتاء بارد، سيقصد مرسيليا، لكن الحمى مرة أخرى ستوقف مسيرته، وتضطره اضطرارًا للعودة خائبًا.

سيعيش رامبو دائمًا الحركة نفسها، والتأرجح البطيء ذاته، إذ سيعيق فصل الشتاء الممل الذي أمضاه في المنزل حركته، سيتعلم قواميس اللغة؛ وبقية الوقت سيحاول تجريب حظه.

غادر عام 1880 إلى قبرص مرة أخرى. ومن هناك، وبعد مغادرة متسرعة (هل تسبَبَ في جرح عاملٍ جرحًا قاتلًا؟)، لن يعود إلى الشمال، ولكن لأول مرة سيواصل نحو الجنوب. ومن البحر الأحمر إلى عدن.

سيكون هذا آخر فصلٍ في حياته: سيقضي عقدًا بين الصحراء والجبال، وبين عدن وهارار.

تتحوّل عدن إلى فرنٍ عند حدود الأربعين درجة. سيشرف رامبو على فرز القهوة، سيكون موضع تقدير من قبل أرباب العمل. يفكر باردي، وهو تاجر مقيم، في إنشاء وكالة جديدة لهارار، في الحبشة الداخلية، على مرتفعات 1800 متر من المناخ المعتدل. يقبل رامبو العرض ويُعدّ قافلة.

لكن للوصول إلى هارار، من الضروري السفر أكثر من ثلاثمائة كيلومتر، في طريق مدغلة، وصحاري من الحصى، ثم مسافات من الغابات والجبال، وأخيرًا عبور الممرات. سيمتطي رامبو حصانًا، ولكنه كان ملزمًا في كثير من الأحيان، بالسير على الأقدام. القافلة تتحرك ببطء. ستستغرق المسيرة أسبوعين.

وعندما سيصل الموظف الجديد إلى الوكالة الجديدة، سيحاول التأقلم، غير أنه سيشعر بالملل، والغضب، لهذا سينظم حملات استكشافية. سيقضي عامًا في هارار، ثم يعود إلى عدن. ثم مرة أخرى سيرحل إلى هارار ويعود إلى عدن من جديد. دائمًا الطريق نفسها، والتعب عينه. يغيّر وظيفته، وفقًا لتقلبات الوكالة. لا شيء ينجح حقًّا. لديه مشاريع مجنونة، لا تدوم حتى تتلاشى سدى. يريد كسب المال، بعض المال فقط، حتى يتمكن أخيرًا، من الاستقرار والعيش هانئًا.

في عام 1885، ستخطر بباله فكرة من شأنها أن تسمح له في النهاية بجمع ثروة. سيقوم بنقل مخزون من الأسلحة والذخيرة إلى **شوا**[1] بواسطة قافلة، حيث ينبغي أن يبيعه إلى الملك **منليك**. سيستثمر كل مدخراته. سيعثر على مساعدين وشريكين، سوليل ولاباتو اللذين سرعان ما توفيا. لن يستسلم رامبو. سيستثمر مدخراته «الطريق طويلة للغاية، شهران من المشي تقريبًا إلى غاية أنكوريبر» (ينطلق في سبتمبر 1886). يراه فيراندي وهو يغادر: «كان يتقدم القافلة، ودائمًا سيرًا على الأقدام». «تمتد الطريق مسافة خمسين يومًا في أكثر الصحاري قحطًا». الطريق من تاجورة إلى أنكوريبر، مسلكٌ وحيدٌ عبر الكثافة الميتة لصحراء من حجر البازلت. التربة حارقة. هذه هي «الطرق المروعة، التي تذكرنا بالرعب المزعوم للمناظر الطبيعية في القمر». عندما وصل، لم يجد الملك. فتحوّلت الحملة إلى كارثة مالية. يشعر رامبو بالإنهاك، فيعود إلى هارار، بعد أن فقد كل شيء، ليستأنف بهدوء أعمالًا صغيرة. إلى غاية اليوم الذي سيشعر فيه بآلام شديدة في ركبته التي تورمت بشكل مفرط. كان، آنذاك قد بلغ من العمر ستة وثلاثين عامًا.

***

كان آرثر رامبو، في الخامسة عشرة من عمره فتى ضعيفًا، يشع اللون الأزرق العنيد والقصيّ من عينيه. ذات فجر، وبدون أي ضجيج، في صباح فراره المتكرر، سيستيقظ في المنزل المترع بالظلال، ليغلق الباب خلفه بهدوء. وبقلب خافق، يرى بسكينة المسالك الصغيرة البيضاء وهي تستيقظ. هاتفًا «هيا بنا!».

يقيس بـ «ساقيه الفريدتين»، ودائمًا مشيًا على الأقدام عرض الأرض.

كم مرة سينطلق من شارلوفيل إلى شارلروا؛ وكم مرة كي يذهب مع دلاهاي، كل تلك الأشهر من الحرب عندما أغلقت المدرسة الإعدادية، وعندما يريد شراء التبغ من بلجيكا؛ كم مرة من أجل العودة من باريس، معوزًا، وجائعًا. كم مرة بعد ذلك على طرقات الجنوب: طريق مرسيليا أو إيطاليا. وكم مرة أخيرًا عبر الطريق الصحراوي (من زيلة إلى هارار، وخلال رحلة 1885).

(1) تعتبر مقاطعة تاريخية في إثيوبيا حيث تقع العاصمة الحالية للبلاد، أديس أبابا.

في كل مرة، وسيرًا على الأقدام دائمًا، يصرح رامبو قائلا: «أنا مشّاء على الأقدام، ولا شيء غير ذلك» لا شيء أكثر.

أنت بحاجة إلى الغضب للمشي والمضيّ قدمًا. كانت دائمًا في أعماقه صرخة الرحيل، وغبطة الغاضب.

هيا، يداي في جيبي، مرتديًا قبعتي ومعطفي، يداي في جيبي: هيا نخرج.

إلى الأمام أسير،

لنمض!

وكنت تمشي.

الرحلة والمشي، يحتاجان إلى قليلٍ من الغضب. وهذا لا يأتي من خارج. ليس مشيئًا مثل نداءٍ بركوب بحر، ووعدُ حقيقةٍ أو إغراء كنز. ولكن أولًا وقبل كل شيء هذا الغضب الداخلي. في أغوار الأعماق، حيث ألم الوجود هنا، واستحالة البقاء في المكان نفسه، والانطمار على قيد الحياة، والمكوث بكل بساطة. الطقس رديء عندكم، كتب من جبال هارار. تكون فصول الشتاء عندكم طويلة والامطار باردة جدًا! لكن أخيرًا هنا، في اتجاه الحبشة، فلا إمكان أيضًا لتحمل هذا البؤس وهذا الملل، هذا الجمود المتعب: لا شيء للقراءة، لا أحد نتحدث إليه، لا شيء نجنيه.

هنا، مستحيل. مستحيل هنا، أن تمكث يومًا آخر. هنا «الفظاعة».

عليّ بالرحلة. «إلى الأمام، أمضي عبر الدروب!» كل الدروب جيدة للمضي قدمًا، كل الدروب تُفضي نحو الشمس، نحو مزيد من النور، والعماء الأصم. ربما لا يكون المكان الآخر أفضل، لكنه على الأقل بعيدٌ عن هنا. قد يستغرق مسافة طويلة، للوصول إلى هناك. «القبضتان في جيبيّ المثقوبين». فقط على الطريق، وفي المسالك، على الدروب، لا يكون الـ «هنا».

وداعًا يا هنا، وإلى أي مكان.

المشي تعبيرًا عن غضب، عن قرار فارغ. أخذ الطريق هو دائمًا عبارة عن رحيل: أي أننا نخلّف شيئًا وراءنا. ثمة دائمًا، في هذه المغادرات مشيٌ على الأقدام، شيءٌ نهائيٌ يفتقر إلى وسائل النقل، بحيث يعود الشخص

إلى الوراء، حيث لا توجد وسائل للنقل للعودة من حيث أتى، لذلك نجد، عندما نغادر، نجد هذا الخليط من المشاعر بين القلق والخفة. القلق لأننا نتخلى (الرجوع يعني الفشل، من المستحيل، ونحن نسير على الأقدام، أن نعود، باستثناء القيام بنزهة بسيطة، ولكن عندما نسير لفترة طويلة، عدة أيام، يكون ذلك مستحيلًا؛ إلى الأمام، الطريق طويل، سنضيّع ساعات للعودة، كما أن الطقس قاس وخانق)، بيد أنّ الخفة تأتي من كل ما تركناه خلفنا: مكوث الآخرين وثباتهم في أمكنتهم. بينما تأخذنا خفّتنا إلى مكان آخر مرتجفين.

عاش رامبو هروبًا متكررًا إلى باريس، التسكع في لندن، والرحلات في بلجيكا، وعبور جبال الألب، والمشي في الصحراء. وأخيرًا، في هارار، تتورم الركبة بإفراط. في 20 فبراير 1891، يكتب: «في الوقت الحالي، لست على ما يرام» لم يعد ينام، تؤلمه ساقه. ورغم تحمّله المعاناة، استمر في العمل، وواصل نشاطه. إنه يكافح. وعندما أصبحت الساق متصلبة تمامًا، قرر الرحيل وتصفية كل شيء في هارار، وإن بخسارة. في 7 إبريل، غادر هارار في الساعة السادسة صباحًا محمولًا على نقالة. استأجر ستة رجال لحمله بالتناوب. أحد عشر يومًا من المعاناة الشديدة. وجد نفسه مضطرًا لأن يبقى مرة أخرى ست عشرة ساعة تحت وابل أمطار غزيرة. «آلمني هذا كثيرا» أكثر من ثلاثمائة كيلومتر، في أحد عشر يومًا، محمولًا، مرتجًّا، وهو الذي تعوّد على الركض جيدًا! وصل منهكًا. «صارت ركبتي منتفخة بشكل واضح، والألم يزداد باستمرار. بعد توقفي قصير، لتسوية بعض الأمور، استغرقت الرحلة مرة أخرى أحد عشر يومًا على متن مركب (الأمازون) في اتجاه مرسيليا.

نقل إلى مستشفى لاكونسيبسيون. «أنا في حالة سيئة، سيئة للغاية» يجب بتر الساق، على وجه السرعة. قُطّع ما فوق الركبة جيّدًا. «يقول الطبيب إن الأمر سيستغرق أكثر من شهر، وحتى ذلك الحين يمكنني البدء في المشي ببطء شديد» سيُشفى الجرح بشكلٍ صحيح. «أوصيتُ على ساق خشبية، تزن كيلوغرامين فقط، سوف تكونِ جاهزة خلال ثمانية أيام. سأحاول المشي بها بلطف». يشتد غضبه نتيجةً الإعاقة. جاءت أمه للحظةٍ لرؤيته، ثم غادرت. «أريد أن أقوم بعدة أشياء، أذهب إلى أمكنة كثيرة، أرى، أعيش، وأنطلق. لم يعُد بإمكانه الوقوف في المستشفى، فقرّر العودة بواسطة القطار إلى روش، بين عائلته. العودة مرة أخرى، بعد عشرين

سنة، إلى البيت الأول.

ستعتني به أخته إيزابيل، بإخلاصٍ هائل، تعالجه، أما هو فكان سريع الغضب. حالته، تُواصل التدهور، مع ذلك. بالكاد يأكل، جفاه النوم، جسده يؤلمه كليًا. كان يشرب منقوع الخشخاش طوال اليوم.

صار هزيلًا، واهنًا مثل ورقة الخريف، ورغم ذلك يقرّر الرحيل. إنها الوثبة النهائية. كان الصيف حتمًا باردًا جدًا في الشمال. رغم الصيف البارد، استقل مركبًا في مرسيليا. وبعد ذلك، ستكون وجهته الجزائر أو عدن. كان منهكًا، لكنه يريد أن يغادر، ويرحل «يا إلهي، عندما يكون المرج باردًا». في اتجاه الشمس. في 23 أغسطس، ترافقه أخته على متن القطار. يكون الانتقال من منزل إلى آخر، ومن عربة إلى أخرى، ومن محطةٍ إلى محطة، كابوس حقيقي، في كل مرة. يدخل إلى المستشفى بمجرد وصوله إلى مرسيليا. أنهكته رحلته تمامًا.

بالنسبة إلى الأطباء الذين عاينوا حالته فقد بلغ نهايته. هذه ستكون محطته الأخيرة. سيرجح الأطباء أن المدة المتبقية له هي بضعة أسابيع، أو ربما بضعة أشهر. لا أحد سيكشف تردّي حالته. في 3 سبتمبر، تمكّن من الكتابة بخط يدٍ لا ترتجف: «أنا في انتظار الساق الاصطناعية. أرسلها لي فورًا بمجرد وصولها، وأنا مستعجلٌ لمغادرة المكان». ينتظر ساقه ليتمكّن من المشي مرةً أخرى. يتحدّث كل يومٍ عن ساقه الجديدة، ويطالب بها «لكي يحاول النهوض، والمشي». إنه يعاني أكثر فأكثر، يبكي، وينظر من النافذة إلى السماء الأشد زرقة، ينادي. وكأنه يلوم أخته: «أنا سيواريني التراب وأنتِ ستمشين تحت الشمس!» جسده يتخشّب تدريجيًا، ويتصلّب. «أنا مجرد قطعة خشبٍ بلا حراك». يُعطى المورفين طوال الوقت تقريبًا، وإلا ستظل الآلام فظيعة. في الأيام الأولى من نوفمبر أصبح في حالة من الهذيان. سيكون هذا أسبوعه الأخير **هنا**.

في مذكرات إيزابيل[1]، إذا كان على المرء أن يختار، فإنني، في **موت رامبو**، أفضل كثيرًا، على قصة التحوُّل النهائية، الحكاية المتعلّقة بالهذيان المطلق المصاحب للاحتضار. رامبو مسمّر على السرير، وصل الشّلل إلى الأطراف العلوية. قريبًا سيصابُ القلب. إنه يهذي: يرى نفسه يمشي، ويرحل مرةً

(1) صدرت عن دار ميركور بفرنسا تحت عنوان: ردود.

أخرى. يرى نفسه في هارار، ومن هناك يجب أن يغادر إلى عدن. «لنذهب!» كم مرة أعلن فيها نداءه «لنذهب»، رامبو يهذي: يجب إعداد القافلة، والبحث عن الجمال. يحلم: أن ساقه الميكانيكية ناجحة، «يمشي بسهولةٍ شديدة بساقه المفصلية الجديدة». يركض، يغضب من انتظار الرحيل. «أسرع، أسرع، إنهم ينتظروننا، أغلق الحقائب ولنغادر». كانت كلماته الأخيرة: «أسرع، إنهم ينتظروننا»، يستشيط غضبًا: لا يجب أن يُترك مستغرقًا في النوم، لأن الوقت تأخّر. لقد فات الأوان. «يا إلهي، متى يبرد هذا المرج» يريد الرحيل بعيدًا، الهروب دائمًا من الأسرة والأم (لادرومف)[1] الهروب من برد الأردين، وعويل الرياح الصقيعية بين الغابات المظلمة، الهروب من الحزن والملل، والطقس الغائم، والأيام المظلمة، والغربان السود في السماء الرمادية، والهروب من كآبة الشتاء المروعة، الهروب من غباء الجلوس. «اترك طيور الدُخّلة لشهر مايو».

المشي. نُلفي عند رامبو معنى المشي وكأنه هروب. هذا الفرح العميق، الذي نشعر به دائمًا، أثناء المشي، تاركين وراءنا كل شيء. لا مجال للعودة عندما نسير، لا بدّ من الذهاب قُدمًا حاملين معنا هذا الفرح الهائل والمكمّل للتعب والإرهاق ونسيان الذات والعالم، وحكاياتنا القديمة كلها، وتلك التذمرات المزعجة، المطمورة بالدوس على الطريق. الإرهاق الذي يغمر كل شيء. نحن نعرف دائمًا لماذا نمشي؛ للمضي قدمًا، للرحيل، للالتحاق، للمغادرة من جديد.

هيا إلى الطريق! [2]

أنا مشّاء، ولا شيء أكثر من ذلك.

مات رامبو في 10 نوفمبر 1891. وكان قد بلغ السابعة والثلاثين. في سجل الوفيات في مستشفى مارسيليا، نقرأ ما يلي: «ولد في شارلوفيل، وكان عابرًا مرسيليا».

عابر. لم يجئ هنا إلا من أجل الرحيل.

---

(1) لادرومف تعني بالعامية: السيد.

(2) ضمن الكاتب مقاطع عديدة من أشعار رامبو المأخوذة من أعماله الكاملة الصادرة عن منشورات ب. برونيل. باريس. 1999 (المترجم)

عزلة

«في الوقت الحاضر، للاستمتاع بالذات كما يلزم، عليّ بجولة على الأقدام وحيدًا. وإذا مارستها ضمن مجموعة أو حتى مع شخص آخر، لن يكون لها من الجولة إلا الاسم، ستكون شيئًا آخر يشبه النزهة. يجب أن نقوم وحدنا بجولة على الأقدام، لأن الحرية شيء أساسي، يجب أن تكون حرًّا في التوقف أو السير، أو اتخاذ هذا المسار أو ذاك، تمشي كما يحلو لك، ما عليك إلا أن تسير حسب وتيرتك»[1].

هل يجب أن نمشي وحدنا حقًا؟ ثمة كثير من الأمثلة على ذلك، نذكر منها نيتشه، ثورو، روسو...

إن الرفقة أثناء المشي تلزم خطواتك بالاصطدام، والمنع، والتعثر؛ لأن المشي يرتبط بالعثور على إيقاع أساسي خاص، والحفاظ عليه. الإيقاع الضروري هو ما يناسب كل فردٍ على حدة، لدرجة أنه لا يتعب وبذلك يستطيع المرء المشي لأكثر من عشر ساعات دون أن يستنفد قواه. لكنه يكون أكثر دقة. لهذا، عندما يتعلق الأمر بالتوقف عند خطوة الآخرين، لتسريع أو إبطاء المشي، فإن الجسم لا يتابع الوتيرة بشكل جيد.

ومع ذلك، فإن العزلة الكاملة ليست ضرورية بكيفيةٍ مطلقة. عندما يكون الماشون ثلاثة أو أربعة... يكون بإمكاننا المشي دون تجاذب أطراف الحديث. يأخذ كل واحد خطوته، وهذه المسافات الصغيرة تأخذ في الاتساع، من وقت لآخر، يلتفت الأول، يقف لحظة، يلقي نظرة: هل «كل شيء جيد؟» منفصلًا عن الآخرين، بتلقائية، وغير مبالٍ تقريبًا. نُجيبه بإيماءة يدٍ. قبضات اليد على الأوراك، ننتظر الأخير، نغادر، وتتحول الأوامر. الإيقاعات تأتي وتذهب، وتتقاطع بعضها مع بعض، لأن السير على وتيرتك لا يعني إطلاقًا السير بشكل منتظم ومتناسق تمامًا: الجسم ليس آلة. إنه يمنح نفسه استرخاء خفيفًا أو لحظاتٍ من الفرح الإيجابي. إلى حدود ثلاثة أو أربعة مشّائين، يتيح المشي هذه اللحظات من الشعور بالعزلة المشتركة؛

(1) ر.ل ستيفنسون: رحلة مع حمار في السيفن. ترجمة ل. بوكيه. باريس. ص 10 و18. 2001. (روبرت لويس بلفور ستيفنسون (1850-1894) روائي وقاص وشاعر أسكتلندي). المترجم.

لأن العزلة أيضًا تُقتسم، مثل الخبز والنهار[1].

عندما نتجاوز أربعة مشّائين نصبح أمام حشد، جيش في مسيرة. صخب الأصوات، صفير، نذهب من شخص إلى آخر، وننتظر، ونشكّل مجموعات، تصبح سريعًا جماعات. الجميع يستعرض مُعدّاته. حتى في وقت تناول الطعام. نحاول خلق مفاجآت للتذوق، لكنها تتحوّل إلى مزايدات. إنه الجحيم. لا شيء بسيط أو متقشف. إنه المجتمع بكامله وقد نُقل إلى الجبال. لهذا لا نتوانى عن إجراء مقارنات. يجب أن تكون وحيدًا كي تمشي. عندما يتجاوز العدد خمسة، من المستحيل اقتسام العزلة.

لكن أن تكون وحيدًا، وحيدًا بحق: تكون واحدًا. بدايةً، لا يمكن أن نكون وحدنا أبدًا. كما كتب ثورو: «بقيت الصباح كله مع رفقة جيدة، إلى أن جاء شخصٌ لزيارتي»[2] (كانت مصاحبة الأشجار والشمس والحصى). في الأساس، إن لقاء الآخر، في كثير من الأحيان، هو ما يردّنا إلى العزلة. تعيدنا المحادثة إلى الحديث عن الذات واختلافاتها عن الآخر. وهكذا يعيدنا الآخر بلطف إلى أنفسنا وتاريخنا وهويتنا، وهذا يعني أن نرجع إلى سوء الفهم والأكاذيب. كما لو أنها كانت موجودة فعلًا.

بدل أن نكون منغمسين في الطبيعة، فإننا نعيش إغراءً دائمًا. كل شيء يتحدث إليك، يُحيّيك، يلفت انتباهك: الأشجار، والأزهار، ولون الدروب. أنفاس الريح، وأزيز الحشرات، وتدفق الجداول، ووقع الخطوة على الأرض: إن الحفيف كله يستجيب لوجودك. المطر نفسه. المطر الخفيف والناعم يشكّل رفقة دائمة، تستمع إلى الهسيس، بنبراته، وبهائه، وفواصله: اندفاع المياه المميّز الذي يرتد فوق الحجر، أو ستائر المطر الطويلة المنسوجة نسجًا وهي تنسدل بسرعة منتظمة. من المستحيل أن نكون وحدنا عندما نمشي، نمتلك الكثير من الأشياء بنظرتنا، التي وُهبنا إيّاها، ومن خلال هذا التأمل الأزلي، أصبحت مُلكنا. يجب على المرء أن يكتشف ثمالة الرعن، عندما نصعد بعد جهدٍ جهيدٍ إلى رأس صخرة، ونجلس هناك، نكون قِد منحنا في الأخير أفقًا طبيعيًا لمشهد خلاب. كل هذه الحقول، هذه المنازل، هذه الغابات، هذه المسارات، كل شيء يصبح ملكنا. لقد أصبحنا أسيادًا بفضل الصعود، يتعيّن علينا الاستمتاع بهذا التمكّن. من يمكنه

(1) يقصد الكاتب أن المشائين يقتسمون فيما بينهم العزلة في الخلاء كما يشتركون في الطعام وتنظيم وقت المشي نهارًا بطبيعة الحال. (المترجم)

(2) ثورو: والدن أو الحياة في الغابات.

أن يشعر بالوحدة حينما يمتلك العالم؟ إن الرؤية، والهيمنة، والنظرة تعني الامتلاك. ولكن من دون السقوط في عيوب المِلْكية: يمكن أن نستفيد تقريبًا من اختلاس مشهد العالم. تمامًا كلصوص، لا ليس الأمر كذلك، لأنه كان علينا أن نبذل جهدًا كبيرًا كي نتسلق. لهذا فكل ما أراه، يمتدّ تحت ناظري، هو مِلكي. فقد صرتُ أمتلك كل ما أستطيع أن أراه، وكل ما ينأى بعيدًا عني. وإذًا أنا لست وحدي: العالم ملكي، وُجد من أجلي، وهو دائمًا بصحبتي.

تُروى عن حاجٍّ حكيمٍ هذه الحكاية: كان يسير لفترة طويلة، بينما كانت السماء مكفهرة تُهدّد بعاصفة وشيكة، على طريقٍ طويلٍ حظيَ بمشهدٍ في أسفل الوادي لحقلٍ صغيرٍ من القمح الناضج. وقد صنع هذا الحقل المميز جدًا، في وسط الأعشاب الضارة وتحت السماء المظلمة، مربعًا مثاليًا من الضوء تُموّجه الرياح بلطف. كان جميلًا، فاستمتع المشّاء بمنظره استمتاعًا كاملًا وهو يمشي ببطءٍ شديد. وبينما كان يتقدم إلى الأمام، رأى الفلاحَ وهو يعود أدراجه من حقله وعيناه منخفضتان بعد يومٍ من العمل، فأوقفه الحاجّ، وضغط على ذراعه، وهمس بنبرة منفعلة: «شكرًا لك» صاح الفلاح: «أيها الرجل الفقير ليس لديّ ما أعطيك إياه» حينئذ أجاب الحاجّ بهدوء، «أنا لا أشكرك لكي تعطيني شيئًا، بل لأنك منحتني كل شيءٍ سلفًا. لقد جعلت هذا المربع من القمح موضوع اهتمامك، وبواسطة عملك، حصل اليومَ على جماله. أنت الآن مهتمّ بشكل خاص بتكاليف الحبوب. أما أنا فقد مشيت، وطوال الوقت تمكنتُ من إطعام نفسي بلونه الأشقر» واستمر الرجل العجوز في الابتسام. استدار الفلاح، وواصل سيره، مومئًا برأسه ظانًا أن العجوز مجنون.

لذلك لسنا وحدنا، لأننا نكسب أثناء المشي تعاطفًا مع كل الأشياء الحيّة التي تحيطنا: الأشجار والأزهار. إلى هذه الدرجة، نذهب في بعض الأحيان للمشي كي نقوم بزيارة: زيارة المناطق الخضراء، مجموعة من الأشجار، الوديان الأرجوانية. نقول لأنفسنا بعد أيام قليلة، بضعة أسابيع، بضع سنوات: لقد مر وقت طويل منذ أن كنت هناك. إن الطبيعة تنتظرني، يجب أن أمشي إلى هناك. لنجد مرة أخرى كل شيء، السير ببطء، والشعور بالصلابة تحت الخطوات، وهيئة التلال، وارتفاع الغابات: لأنها صارت من المعارف.

وأخيرًا، إننا لا نكون وحدنا لأننا بمجرد أن نبدأ المشي، نصبح على الفور اثنين. على الخصوص بعد مشي دام فترة طويلة. أعني أنه يوجد دائمًا، حتى إن كنا وحدنا، هذا الحوار بين الجسد والروح. عندما يكون المشي منتظمًا، أُشجع، وأَمتدح، وأُهنئ: نِعم الساقان الجيدتان اللتان تحملاني... ونصلُ إلى درجة الضرب على الفخذين، وكأننا نربّت على رقبة الحصان. خلال لحظات طويلة من الجهد، عندما يعاني الجسم، أنا هنا لأقدم له الدعم. أقول له: هيّا، مرة أخرى، يمكنك بالطبع ذلك. بمجرد أن أمشي، أصبحُ على الفور اثنين. جسدي وأنا: قرينان متلازمان. إن الروح شاهد الجسد حقًّا. شاهدٌ نشِط، ويقِظ. من الضروري اتباع إيقاع خاص، يرافق جهده: عندما يضغط المرء على الساق عند الصعود الحاد، نشعر بثقلها على الركبة. ندفع صعودًا، ودائمًا ما يؤكد الذهن «حسنًا، حسنًا، حسنًا...»، تصبحُ الروح حينئذ فخر الجسد. ما إن أمشي حتى أَصْطَحبُ نفسي. أنا اثنان. وبذلك يمكن أن تدوم المحاورة التي أشرع فيها إلى حدود المساء دون سأم. لا يمكن أن نمشي دون أن نرصد في أعماقنا هذا التقاسم الذي يُشعرنا بالمضي قدمًا. وأثناء المشي دائمًا أنظر إلى نفسي وأشجع نفسي.

بالطبع يحدث أحيانًا أن نجد أنفسنا محاصرين مثلًا بصخور معدنية، دون أثر للطبيعة الخضراء -فوق مكانٍ عالٍ جدًا وصلبٍ جدًا، على دروبٍ من الحصى- فنشعر باليأس قليلًا، لأننا صرنا منعزلين جدًا، أي في العمق، أصبحنا مقصيين. يكفي أن نصادف يومًا مكدرًا قليلًا ليصير الانطباع شعورًا لا يطاق، ولا يقهر. ينعقد الحلق، فنندفع في المسارات الصعبة بسرعةٍ وقلق. من المستحيل المشي لفترةٍ طويلةٍ بمفردنا، في هذا الصمت الساحق لكتل الصخر الضخمة: تصطدم الخطوة بعنفٍ لا يصدق. فيغدو جسدنا اللاهث، وهو يتحرك، مرفوضًا، هنا، مثل فضيحة حياةٍ بين الصخور المعدنية الباردة، والمتعجرفة، والنهائية والأبدية. أو خلال أيام المطر أو الضباب، عندما لا نستطيع رؤية أي شيء، وحيث لم نعد في وسط اللامكان، سوى جسمٍ باردٍ يتحرك نحو الأمام.

صمت

«غالبًا ما يُعلّمني الإنسان الذي أصادفه أقل ممّا يعلمني الصمتُ الذي يكسره ذلك الإنسان»[1].

فكما أن هناك الكثير من العزلات، فهناك العديد من أنواع الصمت.

نمشي دائمًا في صمت. بالطبع هناك في البداية -بمجرد مغادرة الشوارع والطرقات والأماكن العامة (كل هذه السرعة، هذه الصدمات: قرقعة الآلاف من الخطوات، بلبلة الصراخ والأصوات والهمسات، الضجيج الحاد للمحركات)- بداهة العثور على الصمت، أولًا كشفافية. كل شيء هادئ ويقظ، وكل شيء يبعث على الارتياح. وقد انتهينا من ثرثرة العالم، وأصوات الرواق، والشائعات. أثناء المشي. تلتقط الأذن الصمت، في البداية مثل تنفسٍ هائل: نتلقى الصمت مثل ريحٍ عظيمةٍ منعشةٍ تطرد الغيوم.

هناك صمت الغابات. كتل الأشجار تُشكّل من حولنا جدرانًا متحركة وغامضة. نمشي على مساراتٍ مرسومة، بشرائط ترابيةٍ ضيقةٍ وملتوية. نفقد الاتجاه بسرعة. عندئذ يغدو الصمت راجفًا حزينًا.

وهناك صمت الخطوات الشاقة خلال فترة ما بعد الظهيرة الصيفية، فوق الصخور الجبلية، ومسارات الحصى، المكشوفة تحت أشعة الشمس العنيدة. صمتٌ ساطع، معدني، وساحق. نسمع فقط الصرير الطفيف للأحجار. صمت لا هوادة فيه، نهائي، مثل الموت الشفاف. السماء بزرقةٍ منفصلةٍ تمامًا. نتقدّم بعيونٍ منخفضة، مطْمئنين أنفسنا بغمغمةٍ مكتومةٍ في بعض الأحيان. السماء خالية من السحب، ولا نرى غير الحجر الجيري للصخور البارزة: الصمتُ الذي لا شيء يعلو عليه. صمتٌ كامل، سكونٌ راجف، ممتدٌّ مثل قوس.

وهناك صمت الصباح الباكر. ينبغي أن نغادر مبكرًا في الخريف عندما تكون الرحلة طويلة. في الخارج كل شيء بنفسجي، يزحف الضوء تحت الأوراق الصفراء والحمراء. إنه صمت حذر. نسير الهوينى بين الأشجار

---

(1) هـ.د. ثورو. اليوميات.

المظلمة الكبيرة، التي ما تزال مغلّفة بظلمة زرقاء فاتحة. نمشي ونحن نخشى إيقاظها. يهمس كل شيء بخفوت.

ثم هناك صمت الخطوات فوق الثلج. صمت خطوات مكتومة تحت سماء بيضاء. في كل مكان من حولنا لا شيء يتحرك. احتجزَ الجليد الأشياء. سكونٌ أصم، وتوقفٌ كلي. كل شيء موحد، وملبّد. إنه صمت من السبات، ما بين قوسين قطنيين، بيضاويين، ومعلقين.

وأخيرًا هناك صمت الليالي، صمتٌ فريد. عندما يكون ذلك ضروريًا، لأن الليل داهمنا فجأة أو أن المأوى كان بعيدًا جدًا، نضطر للنوم تحت النجوم، نسعى بنشاطٍ لإيجاد مكان جيد، والحصول على الدفء، وتناوُل الطعام، ثم سرعان ما ننام. ثم هناك دائمًا لحظة الاستيقاظ، بعد بضع ساعات من النوم، في قلب الليل. حينما نفتح العينين فجأة كما لو كانت مغمورة في أغوار الصمت. فتأخذ الحركات الضرورية التي نقوم بها، مثل ضوضاء أفرشة النوم المحمولة، أبعادًا هائلة. ما الذي يوقظنا إذن؟ أهو صوت الصمت ذاته؟

يستحضر ستيفنسون في فصله «ليلة في غابة الصنوبر»[1] ظاهرة الصحو المفاجئ، التي يجعلها حوالي الساعة الثانية صباحًا، وهي تحدث للكائنات الحية جميعها، وفي الوقت نفسه، حينما ينام المرء في الخلاء. ويرى فيه ستيفنسون لغزًا كونيًا صغيرًا: هل يحدث ذلك بسبب رعشة للأرض تمر عبر أجسادنا؟ لحظة تسارع الليل؟ ندىً غير مرئي آتٍ من النجوم؟ تظل هذه اللحظة مؤثرة: يتناهى الصمت حتمًا وكأنه موسيقا، أو على الأرجح في هذه اللحظة بالذات نرفع رأسنا، فنسمع بوضوح أغنية النجوم.

ما يسمى بـ «الصمت» خلال المشي، ليس سوى نهاية للثرثرة، من هذا الضجيج الدائم الذي يحجب ويطمس كل شيء ويغزو مثل عشبٍ ضارٍ المروجَ الواسعة لوجودنا. الثرثرة تصم الآذان: لا نعود نسمع أيّ شيء، إنها تثملنا وتُفقدنا العقل. إنه يوجد في جميع الجوانب دائمًا، إنه يطغى، وَينتشر في كل مكان، وفي جميع الاتجاهات.

لكنه قبل كل شيء، تبديدٌ للغتنا. كلّ شيء في هذا العالم، بدءًا بالعمل، والترفيه، والنشاط، والتكاثر واستهلاك الأشياء، كل شيء له

(1) ر.ل ستيفنسون: رحلة مع حمار في السيفن. ترجمة ل. بوكيه. باريس. 2001، ص 10 و18.

وظيفته، ومكانته، وفائدته، والكلمة الصحيحة التي تناسبه، وحتى قواعدنا التي تعيد إنتاج تسلسل أفعالنا، ومنجزنا الشاق، وانشغالاتنا. علينا دائمًا القيام بأعمال، وأن ننتج وأن نشتغل. تنقسم لغتنا إلى تعاقداتٍ بين الأشياء المصنعة، والإشارات المتوقعة، والسلوكات المعيارية، والمواقف الملقَّنة. حيلٌ متكيّفةٌ بعضها مع بعض: تستخدم اللغة في صناعة اليوميّ في العالم كله، والمشاركة فيه، وهي من الجوهر ذاته للجداول والأرقام والتقييمات التي تتشكّل من كلمة السر، وأمرٍ قضائي، واستنتاجٍ، وقرارٍ، وتقريرٍ، ورموز. اللغة هي طريقة استعمال، إطار مرجعي. في غمرة صمت المشي، عندما ينتهي بنا الأمر إلى فقدان استخدام الكلمات -لأننا لا نفعل شيئًا سوى المشي، يجب أن نكون حذرين من مُرشدي الجولات السياحية، الذين يعيدون تفسير التفاصيل والإخبار عنها، إنهم يعلّمون المسيرة بالأسماء والشروحات (لمعالم وشكل الحجارة والمنحدرات وأسماء النباتات وفوائدها)، مما يوحي بأن ثمة اسمًا لكل ما نراه وقواعد لغوية لكل تجربة- في هذا الصمت، نستمع بشكل أفضل، لأننا في النهاية نستمع إلى المتعذّر إعادة ترجمته أو إعادة ترميزه أو إعادة صياغته.

قبل أن يتكلم الإنسان، يجب أن يرى[1].

لا تتبقّى للمشاء سوى الكلمات الوحيدة، التي هي كلمات عن اللاشيء، الكلمات التي يفاجئه نطقها («هيّا دعنا نذهب، دعنا نذهب، دعنا نذهب»، «الأمر هكذا»، «حسنًا، حسنًا»، «ها هو ذا، ها هو ذا»)، كلمات مثل أكاليل معلقة على الثواني، كلام عادي، كلمات ليست للقول، ولكنها من أجل ترقيم صمت دبدبة إضافية، تمتدّ فيُسمع صداها.

(1) هـ.د ثورو. اليوميات.

الأحلام اليقظة للمشّاء (روسو)

يؤكد روسو أنه لا يستطيع فعلًا التفكير والتأليف والخلق وإلهام نفسه إلّا وهو يمشي. إن مجرد رؤية مكتب وكرسي كاف ليجعله يشعر بالغثيان، فينتزع عنه كل قوّته. تأتيه الأفكار خلال المشي لمسافاتٍ طويلة، وعلى الطرقات تنثال الجُمل من شفتيه، مثل ضبطٍ لإيقاع الحركة. المسالك هي ما يستثير خياله.

أنا لا أفعل شيئًا إلا أثناء النزهة، فالريف مكتبي. إن مظهر الطاولة والورق والكتب يشعرني بالملل، ومكتب العمل لا يشجعني. وإذا جلست لأكتب لا يحضرني أيّ شيء، والضرورة الملحة على التنبه تُذهبه عني[1].

نجد عند روسو ثلاث تجارب رائعة للمشي، وهي مراحل زمنية: الفجر والظهيرة والغروب. خاض روسو تجربة المشي الأولى منذ سن السادسة عشرة وإلى التاسعة عشرة. هذه هي فترة رحلات الشباب الطويلة، المليئة بالإثارة والحماس. بعد ذلك، سيصبح طوال عشرين عامًا -يصبح «حضرة السيد» كما يقول- لا يتنقل إلا بواسطة عربة، ويسعى بحمأة إلى المجد والاعتراف.

لم أسافر سيرًا على الأقدام إلا أيام الشباب الجميلة، ودائمًا بمتعة وابتهاج. لكن سرعان ما أجبرتني الواجبات والانشغالات وحمل متاع على تقمص دور «حضرة السيد» فركبتُ العربات، وتزايدتْ معها مخاوف القلق والعقبات والإحراج، ومنذ ذلك الحين -أصبحتُ عكس الزمن السابق- بدل أن أشعر بمتعة السفر في رحلاتي، أشعر فقط برغبةٍ ملحّة للوصول[2].

بعد المهزلة الطويلة لحمل الأقنعة، والقلاقل المتعبة، ستأتي، في الأربعين، القطيعة الأولى. ومرة أخرى، سيعود للمشي التأملي، لمسافاتٍ طويلة، سيأخذ مسارات الغابات أو مسارات البحيرة مثل دب.

---

(1) صورتي.

(2) الكتاب الثاني من الاعترافات.

في وقتٍ لاحق، وهو اللحظة التي سيصبح فيها محظوزًا ومطرودًا في كل مكان، الرائد غير المرغوب فيه، المحكوم عليه في باريس، وجنيف. كما ستحرق كتبه في الساحة العمومية بل سيهدد بالسجن. في موتييه، سيُرجم بالحجارة. سيهرب من هنا، ومن هناك، سيتسكع مرتابًا حتى فيمن سيدافع عنه. وعندما ستخفّ الكراهية وتنطفئ وساوسه المؤرقة؛ بدافع التعب، ستكون الخطوات الأخيرة، **أحلام** الغروب. لقد أصبح ذلك الرجل العجوز الذي لا يحبّ شيئًا أكثر من المشي لمسافات طويلة، لاستنفاد النهارات. عندما لا يوجد حقًّا شيء لفعله أو للإيمان به. لن يتبقّى إلا التذكُّر. عندئذٍ يساعدنا المشي كي نستعيد البساطة المطلقة للوجود، فيما وراء كل أمل، وما خلف كل انتظار.

***

وصف روسو في **اعترافاته** أن مشيهُ الأول كان عبارة عن رحلاتٍ طويلةٍ سعيدة، ومشمسة، وأساسية. لأنه كان مضطرًا، بسبب نقص المال وحالاته المزاجية، للقيام برحلات طويلة سيرًا على الأقدام: من أنيسي إلى تورينو، ومن سولوتورن إلى باريس، ومن باريس إلى ليون ومن ليون إلى شامبيري. كان روسو في السادسة عشرة فقط. خلال إحدى الأمسيات في مارس 1728، عاد من أحد أشكال الهروب التي يقوم بها الأطفال، فوجد أبواب جنيف مغلقة. فقرر عدم الانتظار حتى اليوم التالي للعودة إلى ورشة النقاشة، خوفًا من ضربات معلمه والاشمئزاز أيضًا من عمله. ولأنه يجب أن يجد مصدرا للعيش، ذهب للبحث عن العزاء غير بعيد عن جنيف، في سافوي رفقة كاهنٍ كاثوليكي.

هذا الأخير، بعد أن أطعمه واشتكى من كالفينيته[1]، أرسله إلى آنسي لزيارة ناسكةٍ بغية أن تلقّنه تعاليم الدين الحقيقي، وتوفر له الحماية وسبل الراحة. في طريقه أخذ الشاب يستعد لإرضاء المربّية العجوز. لكنه عندما رآها تفاجأ أنها في الثامنة والعشرين من العمر كانت ذات (نظرة لطيفة جدًا، وثغرٍ ملائكي...) إنها السيدة دي وارنز.

غمره مظهرها بالحب والرغبة. لقد وجد الحب للتو مجسّدًا في ملاك

(1) الكالفينيّة: مذهب مسيحي بروتستانتي يعود إلى المصلح الفرنسي جون كالفن، وضعه بين عامي 1536م و1559م، مؤلّفه (مبادئ الإيمان المسيحي) والذي يعتبره الكثيرون من أهم ما كتب في الحركة البروتستانتية. (المترجم)

من السخاء والود، والمساعدة، اضطرمت مشاعره رغبةً. لكنه للأسف، لم يكد يقابلها، حتى اضطر إلى تركها على الفور لكي يعبّر لها عن امتثاله الشديد لها. لقد أرسلته إلى تورينو ليتحوّل إلى ديانةٍ بروتستانتية في إيطاليا. وعدها بذلك وانطلق مشيًا على الأقدام مع السيد والسيدة صبران اللذين كان سيرهما بطيئًا. ستستغرق الرحلة عشرين يومًا، خاصة أن الجبال كانت مغطاة بثلوج كثيرة. لكن في الأخير، عبروا جبال الألب، ومرّوا عبر جبل سينيس، كان يعتقد نفسه حنبعل... في الواقع تُمنح كل شيء في فترة الشباب.

لم أعد قلقًا على نفسي، لأن آخرين يعتنون بي. لهذا كنت أمشي بخفّةٍ متخففًا من هذا العبء، تغمر روحي رغبات الشباب، والأمل الساحر، والمشاريع الرائعة[1].

بعد ذلك بعامٍ فقط، حاول روسو، بعد أن ذهب إلى تورينو كاثوليكيًا خلال أسبوع كاملٍ، أن يصبح خادمًا، لكنه عاد إلى مربيته وراعيته. كانت الرحلة سيرًا على الأقدام دائمًا، مع رفيق مؤقت ذي مزاجٍ فرحٍ وشديد الاستهتار. أما الرحلة الثالثة فكانت في عام 1731، بعد عدد لا يحصى من الظروف الطارئة والمغامرات الرائعة. سيصل روسو إلى سولور، في سويسرا، ومن هناك ستوجهه بعض النفوس الطيبة إلى باريس، للقاء كولونيل متقاعد يبحث، على ما يبدو، عن ابن أخ يوجّهه إلى مهنة الأسلحة، ليصبح حاكمًا عسكريًا. سيستغرق الأمر أسبوعين من المشي، وعلى طول الطريق كان روسو يحلم أنه صار جنرالًا يسير بجيوشٍ رائعةٍ نحو المجد. لكن الضابط العجوز ليس سوى رجلٍ شحيح، بغيض. حاول استغلال روسو، لكن هذا الأخير هرب مشيًا على الأقدام مجددًا إلى ليون، ثم إلى شامبيري وأخيرًا للقاء «ماما». ستكون هذه رحلته الطويلة الأخيرة.

لم يكد يغادر السيدة دي وارنز صاحبة العينين الزرقاوين الواسعتين، والصدر الشهيّ، والحضن النديّ، حتى أخذ يحلم بها على طول الطرقات متخيلًا أنه سيعثر على أشباحها، ونُسخها المضاعفة على عتبات المآوي. خلال مساراته الطويلة والسهلة، على الطرقات المرصوصة جيدًا. وعندما يتعلّق الأمر فقط باتباع خيطٍ لا نهاية له، فإننا نضع ألف مشروع، ونخترع ألف قصة. يتقدم الجسم ببطء، بخطواتٍ موزونة، هذه السكينة نفسها

(1) الكتاب الثاني من الاعترافات.

تمنح الذهن الكثير من الراحة. بفضل الجهد التلقائي للجسد، نتخيّل تتماتٍ لأهوائه، ونُلقي بأنفسنا في خضم مجموعة من الحكايات. كما أن التمايل اللطيف، على نحو سلسٍ لأقدامٍ سعيدة تواصل استدعاء الحكاية المخترعة: تظهر الحبكات، وتكتشف الحلول، وتنشأ مصاعب جديدة. بينما نتابع الطريق الواسع والفريد من نوعه، هناك آلاف التشعبات التي تتبادر إلى الذهن. يأخذ القلب واحدًا، ويتخلّى عن الآخر، ثم يختار الثالث. يغادر، ويعود.

كنت شابًا، وكنت بصحة جيدة، سافرت وسافرت سيرًا على الأقدام، سافرت بمفردي. قد نتفاجأ بأني أحسب لصالحي هذه الميزة، إذا لم نكن نعرف بالفعل نوعية مزاجي. تُرافقني خيالاتي الحلوة، ولم تلد حرارة مخيلتي أبدًا ما هو أكثر روعة. عندما تقدم لي بعض المقاعد الشاغرة في عربة، أو عندما يدنو مني شخص أثناء الطريق، كنت أستاء من رؤية الثروة التي قمت ببنائها بالمشي تنهار أمامي[1].

وعندما تكون في عمره لا يمكنك أن تقول «كنت قد أحببت»، لأن الحب هو مجرد مستقبل مزدهر نناديه مدى الحياة. وهذا يجرّ الساقين: إنه الحب العظيم المنتظر دائمًا في نهاية الطريق. في سبيل ذلك اخترق روسو جبال الألب. إن الآفاق التي تكشف عن نفسها عند قمة المرتفعات، والرؤية الساحرة للقمة، هي بمنزلة تأكيد للطموحات الأكثر جنونًا. ما الذي سنجده في المأوى التالي؟ ماذا سنأكل في العشاء؟ كل شيء ممكن، ويجب أن يصبح كل شيء مناسبة للقاءات استثنائية: أصدقاء طيبون، نساء غامضات، شخصيات مريبة، متآمرون رائعون. في كل مرة نقترب من قرية صغيرة أو مزرعة أو مبنى كبير، يمكن أن يحدث أي شيء. وعندما يأتي المساء، من الضروري أن نأكل، حتى لو كانت المضيفة أقل جمالًا مما كنا نحلم به، وصاحبة النزل أقل جاذبية، فمن الصعب جدًا ملاحظة ذلك: يَسعد الجسم بالامتلاء، كما لو أن الريح قد حفرت جيوبًا ضخمة في البطن، فينام في بضع ثوانٍ مستسلمًا لأحلام أخرى. هذا المشي الأول عذبٌ بلا حدود. في السادسة عشرة، أو حتى في العشرين، لا يحمل المرء معه سوى الآمال الخفيفة. الذكريات لا تشكّل عبئًا على الكاهلين. كل شيء ممكن مرة أخرى، كل شيء يمكن أن يُعاش. نشعر في أعماقنا أن الرغبات تأخذ شكلًا، ونحن سعداء بكل الاحتمالات. إنها مسيرة الفجر السعيد،

(1) الكتاب الرابع من الاعترافات.

ومشي الصباحات المتألقة للوجود.

لم أفكر قط بهذا القدر، ولم أحيَ بهذا القدر، ولم أعِش بهذا القدر، وإذا أسعفتني العبارة فقد كنت هذا القدر الكبير كله. في رحلاتي التي قمت بها وحدي مشيًا على الأقدام [...]. كنت سيد الطبيعة كلها؛ وقلبي المتنقل من موضوع إلى موضوع يتّحد مع ذاته، ويتّحد مع أولئك الذين يمدحونه، ويحيط نفسه بالصور الساحرة، ويسكر بالمشاعر اللذيذة[1].

***

صار روسو الآن في الأربعين. لقد عاش حقًا حياة زخمة: سكرتيرًا في سفارة فينيسيا، ومدرسًا للموسيقى، ومساهمًا في الموسوعة... فأنشأ صداقات، وأعداء، وسمعة، أصبح اسمه ذاته معروفًا... لقد أثار الاهتمام وكتب واخترع وسعى إلى المجد والتقدير. لكن ها هو يقرر ألا يخالط العالم تاركًا الدوائر المرموقة، ومتخليًا عن السعي إلى النجاح الذي لا يريد أن يتحقّق بقوة، وهكذا لم يعد مباليًا به أكثر من أي وقت مضى. سيتخلى عن الشَّعر المستعار والملابس الجميلة، ويهجر الصالونات، ويزهد في الوظائف المرتقبة. وسرعان ما ارتدى ملابس رجل فقير، وبدأ ينسخ مؤلفات الموسيقى ليعتاش من ذلك. لأنه لا يريد، كما سيقول كثيرًا، إلا الاعتماد على نفسه. يتحدثون عنه بوصفه ديوجين الجديد. أصبح روسو كلب التنوير. لم تكن القطيعة صريحة مثل نصلٍ قاطع. لأن في هذا الوقت بالتحديد، سيكتشف الملك موسيقاه ويشغف بها ويجعلها مشهورة. في الوقت نفسه، صار الناس يقرؤونه ويتحدثون عن خطابه حول الفنون بحماس وفي كل مكان. كما بدأ روسو عزمه الدفاع عن أطروحاته حول الموسيقى الفرنسية.

ومع ذلك، فهو لم يكن يرغب إلا في شيءٍ واحد: البقاء لفترة طويلة بمفرده، أو التوغل في الغابة، أو مغادرة باريس. كان قد كتب بالفعل أن الثقافة والأدب والمعرفة ساهمت في تدهور الإنسانية، وليس في كمالها. عندما كان مفكرو عصره، ومَن حوله، لا يجيدون سوى ترديد أغنية التحرر عن طريق العقل والإتقان، من خلال التعليم. وتحقيق التقدم من خلال العلم، كان روسو يحاول أن يبيّن أن المجتمع يُفسد الإنسان. ولكن عندما كتب هذا في خطابه الأول، كان يصبو إلى بلوغ المجد بواسطة ذلك. خلال

---

(1) الكتاب الرابع من الاعترافات.

هذه المرحلة من حياته كان ما زال شاغله الوحيد أن يصير معروفًا ومُعترفًا به ومحبوبًا ومغمورًا بالتصفيقات.

عندما نبلغ الأربعين، يجب أن نطوي صفحة الأسئلة الاجتماعية، والصداقات الشهيرة، والأساليب الملتوية، والقيل والقال الدائم. لا يريد روسو إلا المشي عبر دروب الغابات. وأن يكون وحيدًا، بعيدًا عن الضوضاء. لم يعد مضطرًا إلى التحقق كل يوم من قيمته الاجتماعية، وحسابات أصدقائه، وقياس أعدائه، ومجاملة حماته، وقياس أهميته باستمرار في أعين المغفلين والمغرورين، والثأر من هذه النظرات، للانتقام من الكلمات. يريد لقاءً في مكان آخر، بعيدًا عن مكان إقامته: أن يتوغل في الغابات، يريد أن تكون الليالي صامتة وعميقة، والصباحات شفافة. لتحقيق ذلك، يجب أن تستعد لمواجهة كراهية الكثيرين. لكنه يعرف كيف يواجه ذلك. يجب أن يرتب حياته حتى لا يضطر إلى الجري أو الزحف، ولكن إلى المشي.

حان الوقت الذي سيكتب فيه روسو خطابه الثاني: **حول جذور وأسس عدم المساواة بين الناس**. كان يغادر في الصباح ليغوص في غابات سان جيرمان أو بولون.

إنه شهر نوفمبر الجميل والاستثنائي من عام 1753: سماء الخريف الزرقاء الناعمة والعميقة، وهسيس الأوراق والألوان الذهبية والحمراء. وإذًا ماذا سيفعل روسو؟ المشي، والعمل، والاكتشاف. كان روسو يمشي مسافاتٍ هائلةٍ وبمفرده، وبشكلٍ منتظم، يمشي يوميًا يدوس الأرض بحذائه الثقيل، ضائعًا بين الأيك، مزدهرًا بين الأشجار الموغلة في القدم. وحيدًا محاطًا بها، أو بالأحرى مترعًا بالضوضاء المكتومة الصادرة من الحيوانات والأشجار، ونسيم الريح بين أوراق الأشجار، وخشخشة الغابات. وحيدًا ومفعمًا. لأنه هنا: يتنفس. يتنفس مستكينًا إلى سعادة بطيئة مثل طريق غابوية. بدون بهرجة المدينة، ولكن في سكينة مطلقة. سعادة دافئة، وملحّة مثل يوم رتيب: السعادة أن تكون هنا فحسب، أن تحس بدفء أشعة شمس الشتاء على الوجنتين، أن تسمع طقطقة الغابات الخفيفة. وهنا يستمع روسو ماشيًا. إنه يستمع إلى نبضات قلبه، التي كفّت عن النبض بالعواطف الدنيوية، قلبٌ لم تعُد تحرّكه رغبات المجتمع، قلبٌ متروك في النهاية إلى حركته الطبيعية الأولى. وهنا، وهو يمشي طوال اليوم، سيتخيّل روسو مشروعه المجنون كي يعثر بداخله على

-الهوموفياتور: الإنسان المشّاء- أي الإنسان الطبيعي، الذي لم تشوّهه الثقافة والتعليم والفنون، ويعني إنسان العهود السحيقة، عهد ما قبل الكتب والصالونات، وما قبل المجتمعات والعمل.

لم يكن المشي من أجل العثور على هويةٍ كاملة، وليس لإعادة اكتشاف مهزلة التفرّد، وليس للاستراحة من حمل الأقنعة. ولكن المشي طويلًا، ليجد في أعماقه إنسان العهود السابقة، الإنسان الأول. ولكن في تصوّره هذا المشي ليس مثل الذهاب إلى الصحراء للانفصال عن العالم وآلامه، وتطهير النفس بواسطة العزلة، والاستعداد للقدر السماوي، ولكن المشي الذي يجعل المشّاء يستكشف في داخله الإنسان الحقيقي المنبثق من الطبيعة البدائية كليًا. سيمشي طويلًا متوغلًا عميقًا في أقصى الطبيعة البريّة، متسائلًا ألف سؤال: ما الذي يقاوم في داخلي، ما المزامن الدقيق في داخلي، لخطورة الأشجار، الشقيق القلق لهؤلاء الحيوانات التي أتوقع رجفتها؟ ما الطبيعي الذي سأجده في نفسي، ما الذي اكتشفته ولا يوجد في الكتب، ومع ذلك، لا يمكنني العثور عليه إلا بالمشي بمفردي؟ هل من أجل استعادة صورة الإنسان الأول، الإنسان الوحشي تمامًا، الذي يكشط، بعد الإنهاك البطيء لمشيه في الغابة، ما بداخله من مظهر برّاق للإنسان الاجتماعي، ثم تحقيق صورة الإنسان الأول التي لا توجد في الكتب، لإنها لا تتحدث إلا عن الإنسان المتأخر، المتحضر، المشوّه، المتخم بالمشاعر الاجتماعية. ومن أجل أن نكتشف في أعماق ذواتنا الإنسان الأول لا بد من المشي الانفرادي المتواصل، المقفر، والبعيد عن العالم، حيث لا رفقة إلا الأشجار والحيوانات.

طوال بقية اليوم، كنت أتوغّل في الغابة، أبحث فيها، وقد وجدت هناك صورة الزمن الأول الذي كنت أرسم تاريخه بفخر؛ متحكمًا في أكاذيب البشر الصغيرة، متجرئًا على تعرية طبيعتهم، لمتابعة تقدُّم الزمن والأشياء التي شوهتها، ومقارنة الإنسان المعاصر بالإنسان الطبيعي، مبينًا أن فيما يدعيه من كمال يوجد المصدر الحقيقي لبؤسه[1].

وبينما هو يجري عمليات بحث عسيرة، تطلبت منه أيامًا طويلة من التيه في الغابات بدلًا من قراءات لا متناهية، كان روسو يتساءل دون انقطاع فشعر أن ظلًا هزيلًا ومرتجفًا لإنسانٍ بدائيٍ وحشيٍ وبريء، على وشك

(1) الكتاب الثامن من الاعترافات.

أن يستيقظ بهدوءٍ في أعماقه. هذا الشبح المنبعث بهدوء، الذي يخمّن ظله الخفي في زاوية من زوايا أشجار البلوط، لا يراه شرسًا، ومخبولًا، تستولي عليه الدوافع المضطربة والغرائز العنيفة، ولكن يعتريه الخوف، فهو مستكين تمامًا للطبيعة التي تحضنه كأمّ، بل يراه وحيدًا وسعيدًا، بشكل استثنائي. لأن هذا الإتراع، وهذه السعادة البسيطة التي يرى روسو أنها تشفي من المشاعر الوهمية والمرهقة للعالم الواسع، والتي استعذبها هناك، وهو يمشي بمفرده، يجب أن تكون أيضًا مشاعر الإنسان الأول، الذي كان يمضي «أيامًا هادئة وبريئة». وكم كانت سعادته تلك أسمى من الإثارة المصطنعة، والرضا الغبيّ والأفراح الوهمية، لهذه الدنيا!

في خضم الكثير من الفلسفة والإنسانية والتهذيب والحكم الرفيعة، ليس لدينا سوى مظهر خارجي خادع وأرعن، من الشرف بلا فضيلة، والعقل بلا حكمة، والمتعة من غير سعادة[1].

يبدو تاريخ البشرية للمشّاء، بما يلقه من تطور وصراع، على شاكلة سقوطٍ تدريجيٍّ مسببٍ للدوار. وهنا يصبح الإنسان المتحضر، المشبع بالتهذيب والرياء، المملوء بالشر والرغبات، هو الوحش الحقيقي. ويغدو العالم الاجتماعي بظلمه وعنفه وعدم مساواته وبؤسه، والدول بقوات شرطتها وجيوشها، هو ما يشكّل الأدغال الحقيقية. إن الإنسان المترع بالحقد والكراهية والغيرة والاستياء، هو الإنسان في المجتمع. ولكن عندما حاول روسو، المشّاء الأعزل، العثور تحت أعماق الثقافة على الحقيقة الفطرية لعواطف الإنسان، لم يجد إلا حبًّا ساذجًا ومتواضعًا للذات (بعيدًا عن الأنانية والحب الخاص الذي هو وسيلة لتفضيل الذات، بيدَ أن التفضيل هو دائمًا نقيض للحب)، وهذا يعني، في الأساس، أن حركة غريزية تدفعه ببساطة إلى الاهتمام بنفسه، وتدعوه للحفاظ على نفسه، حتى يكون منتبهًا لرفاهه الذاتي. وبذلك فالإنسان بالطبيعة يحبّ نفسه، لكنه لا يفضّل نفسه أبدًا. في المجتمع فقط، نتعلّم ذلك. عليك أن تمشي مسافة طويلة لتتعلّم من جديدٍ كيف تحبّ نفسك.

عندما بقي روسو لوحده، بعد أن طرد من قلبه المشاعر الغبيّة كلها، وتخلّى عن تلك الأقنعة على طول المسارات الوعرة، بدأ يشعر أيضًا أن تعاطفًا طاهرًا شفافًا ينمو بداخله من غير نيّاتٍ مبطّنة. استنفدت هذه

(1) خطاب عن عدم المساواة بين الناس وأصلها.

الساعات الطويلة من المشي الغيرة والأحقاد، مثلما تفعل إلى حدٍّ كبير الحدادات والنكبات الكبيرة: تبدو الكراهية القديمة بلا جدوى وتافهة. هذا لا يعني أننا مستعدون فجأةً للحب، لنلقي بأنفسنا بين أحضان أعدائنا السابقين. هذا اللقاء العاطفي يغلّفه النسيج نفسه الذي يغلف الأحقاد الدفينة. ولفرط المشي تطفو أشياء أخرى: لا يشعر المرء بشيء تجاه الآخر، لا بالعدوانية الخبيثة، ولا بالكلام الأخوي. مجرد حضور محايد، يصطبغ بلون محدد بمجرد اكتشاف أن شخصًا ما يبكي. ثم بدافع الشفقة الطبيعية، ينفتح قلبي، ويتمدّد تلقائيًا أمام المعاناة، مثل بتلاتٍ تغمرها أشعة. فأهبّ لمساعدته، راغبًا من أعماق قلبي أن أقدم له يد المساعدة.

عندما تركتُ الكتب العلمية جميعها التي تُعلمنا فقط أن نرى البشر كما تكوّنوا، وأخذتُ أتأمّل أبسط عمليات النفس البشرية في بداياتها، أعتقد أنني رأيت فيها مبدأين تقدّما العقل أحدهما يُهم بشدة رفاهيتنا والحفاظ على أنفسنا، والآخر يلهمنا اشمئزازًا طبيعيًا من رؤية هلاك الكائنات المرهفة أو معاناتها، وبصورة أساسية، المخلوقات المماثلة لنا[1].

لذلك فإن الخبث والريبة والكراهية لا تتجذّر في البدائية الأولى: لأنها تغرس فينا غرسًا، نحن المحاصرين في حديقة العالم الاصطناعية، ولا تفتأ تنمو وتنبت براعيمها، وتخنق القلب الرحيم بالطبيعة.

كان هذا ما اكتشفه من خلال مشيه اللانهائي في الغابات، ومن خلال اقتفائه لدروب غامضة: التيه من أجل الاستماع، بشكل أفضل، إلى القلب، والشعور بنبض الإنسان الأول في أعماقه. نخرج من هذه التجربة أكثر تناغمًا مع نفسنا، ولا نعود نعبدها، بل نكتفي بأن نحبها. كما أننا نصبح أكثر تناغمًا مع الآخرين، فلا نعود نكرههم، وإنما نرثي حالهم بكل صدق. أخيرًا، انطلاقًا من هذه المسارات التي تغمرها سكينةُ شمسٍ متعبة، فإن نعومة الأوراق الذابلة المتساقطة على الأرض، والتنفس الطبيعي العظيم والبطيء، والعالم المتحضر، والمجتمع بمخاوفه، وأباطيله العظيمة، وسعادته المضطرمة وغضبه، وخلف الحاجز اللطيف للأشجار، فإن روسو لن يرى في هذه الأشياء غير نكبة مديدة.

قارن دون أحكام مسبقة حالة الإنسان المتمدن مع حالة إنسان

(1) نفسه.

الطبيعة، وابحث إذا استطعت، كم كان، إلى جانب شرّه واحتياجاته ومآسيه، أولَ من فتح أبوابًا جديدة للألم والموت[1].

***

أفول. بلغ روسو الآن حوالي ستين عامًا. لقد أصبح يُعدّ خارجًا عن القانون، ومرفوضًا من طرف الجميع، ومطرودًا في كل مكان: من جنيف الجمهورية كما من فرنسا الملكية. كما أنه سعى نحو منفىً مثيرٍ للشفقة في إنجلترا، لكنه اخترع لنفسه الكثير من الأعداء. جال لفترةٍ طويلة، هنا وهناك، مختبئًا في بعض الأحيان، ومفكرًا عدة مرات بأن يلقي بنفسه في السجن، ليستمتع بهدوء جدران الزنزانة. ثم تأتي تلك اللحظة، التي أتت ببطء، حينما سيقرر التنازل والاستسلام. ستكون هذه هي النزهات الأخيرة: سيعود إلى باريس، من غير حماس، إنه لا يريد أن يحارب بعد الآن. وهنا، سينسى شيئًا فشيئًا، وينتقل الناس إلى الاهتمام بأشياء أخرى، وإلى كراهيات أخرى.

لا شيء بعد الآن.

أريد أن أتحدث عن آخر النزهات، تلك التي يترنّم بها كتاب **أحلام اليقظة**، أو بالأحرى ليست هي بالضبط: وإنما تلك التي تتراءى فيما وراء الكتب. أريد أن أتحدث عن هذه النزهات اللامحدودة، تلك التي لا **تُعدّ** شيئًا، تلك التي لا تعود فرصة **للعثور** على كلمات جديدة (دفاعات جديدة، وهويات جديدة، وأفكار جديدة). تلك التي نتخيّلها في إرمنونفيل: خلال الأيام الأخيرة من شهر مايو ويونيو 1778. ما عاد فعل المشي يمثّل وسيلة، استكشافية، وإسقاطية. لم نعُد نمشي من أجل الابتكار، ولكن بالضبط، من أجل **لا شيء**: اللهم إلا من أجل الاقتران بحركة الشمس التي تغرب، ومجاوزة إيقاع الدقائق والساعات والأيام بخطىً بطيئة. نمشي حينئذ لضبط إيقاع اليوم، دون أن نفكر حقًا في ذلك، مثل تلك الأصابع المقوّسة التي تنقر خشب الطاولة بلا مبالاة على صوت الموسيقى. يتعلّق الأمر كله بعدم انتظار أي شيء، والسماح بقدوم الزمن، والفوز بمدّ الأيام وإرهاق الليالي. وهكذا تريد السعادة «حركةً موحدةً ومعتدلةً ليست هزّاتٍ ولا فواصل»[2]. هذا هو المشي: إنه مرافقةٌ للزمن، أي أن نضع أنفسنا في وتيرة

(1) نفسه.

(2) أحلام المتنزه الوحيد (النزهة الثامنة).

واحدة كما نفعل ذلك حيال الطفل.

حينئذ تصعد الذكريات المنسيّة إلى سطح الوعي، فنحييها مثل صديقين قديمين، خلال مسيرات المشي الشفقية الطويلة هذه. نتسامح مع الذكريات، في نهاية المطاف، لأنها ما عادت تجرحنا كما كانت تفعل في المراحل المؤلمة، أو أنها ترهق الروح بالحسرة، لأنها كانت سعيدة. ولكنها صارت مثل بعض الزهور المائية التي تطفو، ولا تفعل شيئًا سوى أنها تتبادل فيما بينها اللون والشكل. ولا يغدو الضحك المتهور سوى يقينٍ غامضٍ ومسلّ، ومنفصل عما عشناه. هل أنا حقًّا، هذا الطفل الحالم، هذا الشاب السكران بالحياة الدنيوية؟

كان بإمكان روسو، فيما مضى، أن يقول إنه أثناء المشي كان سيّد مخيلته، وكان عليه أن يؤلف في خياله فقط، متأكدًا تمامًا من أحلامه. لكن العكس ما حصل، فإن النزهات الأخيرة تتمتّع بما لها من عذوبة الانفصالات. أقصد بذلك: أن لا شيء يمكن رجاؤه أو انتظاره غير العيش فقط، والسماح للنفس بالوجود. لأنه لم يعد علينا أن نصير أحدًا، بل نترك التيار يخترقنا، أو بالأحرى، بذلك الجدول المصرّ على الاستمرار.

ذلك ما يمنح الذكريات المستعادة مظهرًا أخويًا: فهي، بالنسبة إلينا، مثل إخوةٍ قدامى متعبين. مع العلم أننا سنصبح بنفسنا هذا الأخ الطاعن في السن: ذلك الشخص الذي نحبّه لسبب وحيد أنه استطاع البقاء على قيد الحياة. وإذًا من خلال هذا المشي، نُعوّد النفس على محبّة نفسها، ونسامح أنفسنا، بدلًا من خلق الأعذار. لا شيء سنخسره، يجب فقط أن نمشي. وبذلك يأخذ كل مكان حولنا، هذا الوجه الجديد: نتعامل بتسامحٍ مع الطائر الخائف المترقب، وبتسامحٍ مع الزهرة الهشة التي تنحني، وبتسامحٍ مع تساقط الأوراق الكثيفة. لأنه في الوقت الذي لا ننتظر فيه أي شيء من العالم، فإننا خلال هذا المشي الهادئ الذي لا طائل منه، نسلم أنفسنا ونهبها ونتخلى عنها. عندما لا ننتظر شيئًا. حينئذ نُمنح كل شيءٍ تمامًا كعلاوة، ونعمةً مجانيةً عن الحضور. لقد متنا بالفعل في عالم العناء والنجاحات والمشاريع والآمال. لكن هذه الشمس، هذه الألوان، هذا الدخان الأزرق المنبعث هناك والذي يرسم زخارفه الحلزونية، المتصاعدة بلطف، مع حفيف الأشجار: يمنح كل شيء بسخاء. إنها هدية. أما الهويات، والتاريخ، والسرود المكتوبة، عن الحذق، والانتقام، والتكرار،

فإنها تمكث كلها وراءنا. انتهت الجولة. ومُنِح كل شيء بسخاء كبير: شمس ربيع عام 1778، وميض بحيرات فالوا، ونعومة خضرة إرمونفيل.

توحي **أحلام اليقظة** أننا أمام النزهات الأخيرة من شهر يونيو، فيغمرنا شعورٌ بالرضا الرائع: المشي إلى أبعد ما تحقق إنجازه، مثل استراحة الكائن. كما أن الأقدار بلغت نهايتها، وأغلقت، وتوقفت، وانتهت. أغلقت الكتب. لن يتحتم عليه الآن أن يكون روسو ولا جان جاك، لا مع ولا ضد، ولا أحد. وإنما دبدبة فقط، بين الأشجار والحجارة، وعلى الدروب. إن المشي شبيهٌ بتنفُّس المناظر الطبيعية. كل خطوةٍ هي مصدر إلهام، لكنه يولد ليموت في الحال، بعيدًا عن أثر الكاتب.

أحبُّ أن أمشي على سجيتي، أتوقف عندما يعجبني ذلك. الحياة المترحّلة هي ما يلزمني. أن أذهب مشيًا على الأقدام في طقسٍ جميلٍ وفي بلدٍ جميلٍ دون أن أكون في عجلةٍ من أمري، وأن أحصل في نهاية المطاف على شيء ممتع؛ هذا ما يروقني بشدةٍ، من بين طرق العيش كلها [1].

(1) الكتاب الرابع من الاعترافات.

أبَديات[1]

يجب أن نتخلّى في يوم من الأيام عن «الأخبار». إن قراءة الصحف لا تُعلمنا أبدًا أي شيء، ولكن ما لم نعرفه بعد، هو بالضبط، ما نبحث عنه: الشيء الجديد. لكن ما لا نعرفه هو بالتحديد ما ننساه على الفور. لأن بمجرد معرفته يجب أن نفسح المجال لما لم نعرفه بعد أي الخبر القادم غدًا. ليس للصحف ذاكرة: لأن «خبرًا جديدًا» يطرُد خبرًا آخر، ويحلّ ما حدث محل حدثٍ آخر، فيختفي دون أن يترك أثرًا. تنتشر الشائعات، ثم تتلاشى فجأة. تتوالى كلمات «قالوا» ولا تنفك تنهمر شلالًا من غير شكل.

لكن ما إن نمشي، حتى لا تعود للأخبار أهمية. ما إن يستغرق المشي مسافات طويلة جدًا، قد تمتد لأيام، ولأسابيع عدة. حتى ننسى كل شيءٍ عن العالم وهزّاته، والتحوُّل النهائي للقضية الأخيرة. لا ينتظر المرء انقلاب الوضع، ولا معرفة كيف بدأ الأمر، ولا معرفة كيف انتهى. هل علمت بما جرى مؤخرا؟ ولكن بمجرد أن نمشي، لا تعود لكل هذا أهمية. لأننا لا نضع في الحسبان ما يفْصلنا بشدّةٍ عن هذه الأخبار الجديدة، التي تجعلنا عادة مشدودين إليها. إنه لأمر مدهش أن نرى كيف أن المشي طويلًا يجعلنا لا نسأل حتى عن سبب استئثارها باهتمامنا. يؤدي التنفس البطيء للأشياء إلى ظهور اللهاث اليومي كحركة عبثية غير صحية.

أول أبديّة نواجهها هي أبدية الحجارة، وحركة السهول، وخطوط الأفق: هذه الأشياء المقاومة كلها التي نواجه صلابتها التي تجعلنا نرى الحقائق الصغيرة، الأخبار السيئة مثل غبارٍ تجرُّه الرياح. إنها أبدية خالدة، تهتز في مكانها. المشي يعني خوض تجربة تلك الحقائق الملحة، بهدوء، وتواضع -حينما تنمو الشجرة بين الصخور، والطائر المترقب، والجدول الذي يجد مجراه- دون انتظار أي شيء. يُخرس المشي فجأة الشائعات والشكاوى، ويوقف الثرثرة الداخلية التي نعلق بها باستمرار على الآخرين، ونقيّم بها أنفسنا، ونعيد التركيب، ونؤول. المشي يسكت المناجاة النفسية اللانهائية التي تستدعي الضغينة الفاسدة، والرضا الأحمق، والانتقام السهل. أنا أمام هذا الجبل، أمشي بين الأشجار السامقة وأفكر: إنها هنا. إنها هنا، لم

(1) مصدر صناعيّ من أَبَد: دوام لا نهاية له يتّسم بالخلود والأزلية. المترجم.

تنتظرني، إنها هنا منذ الأزل. لقد تجاوزتني إلى أجل غير مسمى، وستستمر من بعدي.

لا بد أن يأتي يوم نتوقف فيه عن انشغالاتنا، ونتخلّص من هيمنة أشغالنا، ونتوقف عن أن نستمر أسرى لها. مع العلم، وبالنسبة إلى الكثيرين، نحن من اخترعها، نحن من فرضها علينا. أن نعمل: أن نجمع المدخرات، ونكون على أهبة كي لا نفوت أي فرصة وظيفية، أو مطاردة منصب آخر، أو الانتهاء في عجلة من أمرنا، أو القلق من أجل الآخرين. نفعل هذا الشيء، ونذهب لرؤية ذاك، نستدعي ذلك الشخص: القيود الاجتماعية، الأوضاع الثقافية، الانشغال... دائمًا ما نفعل شيئًا ما، لكن أن نوجد؟ نترك ذلك لوقت لاحق: هناك دائمًا ما هو فضل، وما هو أكثر إلحاحًا من أي وقت مضى، ودائمًا أكثر أهمية للقيام به. سنؤجل ذلك إلى الغد، لكن الغد يجلب معه مهام اليوم التالي. إنه نفقٌ بلا نهاية. ومع ذلك يسمون هذا عيشًا. إن الحياة تصير حافلةً إلى درجة أنه حتى لحظات الاسترخاء تحمل سمة هذا الإصرار: الرياضة المفرطة، الاسترخاء المحفز، الأمسيات المكلفة، والليالي الناجحة، والعطلات باهظة الثمن. بهذه الطريقة لم يعد هناك، من مخرجٍ، سوى الكآبة أو الموت.

نحن لا نفعل أي شيء أثناء المشي غير المشي. لكن عدم القيام بأي شيء سوى المشي يسمح لنا باستكشاف بهجة الحياة البسيطة، والإحساس بما يشكّل الطفولة كلها. وهكذا يسمح المشي، عن طريق التخلص من أعباء أنفسنا، وعن طريق انتزاعنا بعيدًا عن هوس فعل الشيء، يتيح لنا أن نلتقي مرة أخرى بهذا الأبد الطفولي. أقصد أن المشي لعبة أطفال. فلكي تنبهر بطقس النهار، وسطوع الشمس، وعظمة الأشجار، وزرقة السماء، لست بحاجة إلى أي خبرة ولا أي مهارة. لهذا السبب بالضبط يجب أن نكون حذرين من أولئك الذين يمشون كثيرًا وبعيدًا: لقد رأوا كل شيء بالفعل ولا يفعلون شيئًا غير عقد المقارنات بين المشاهدات. إن الطفل الأبدي هو الذي لم يشعر قط أنه رأى شيئًا جميلًا مماثلًا، لأنه لا يقارن. عندما نذهب بعيدًا لأيام أو أسابيع عدة، فإن الأمر لا يقتصر فقط على مغادرة عملنا وجيراننا وشؤوننا وعاداتنا ومخاوفنا، بل أيضًا هوياتنا المعقدة، وجوهنا وأقنعتنا. لا شيء من هذا يثبت، لأن المشي لا يطلب منك غير جسدك. لا يريد شيئًا من معرفتك، وقراءتك، وحتى علاقاتك لن تنفعك في هذا المقام: ساقان كافيتان للمشي، وعينان محدقتان للرؤية،

والذهاب وحيدًا، وتسلق الجبال أو عبور الغابات. لسنا نكون بالنسبة إلى التلال وأوراق الأشجار الكثيرة أحدًا بعينه. لا نعود لا وظيفة، ولا وضعًا، أو حتى شخصية، بل جسمٌ يشعر بحدة الحصى على الطرقات ومداعبة العشب العالي وطراوة الرياح. عندما نمشي، لا يعود العالم حاضرًا ولا مستقبلًا. لا توجد سوى دورة الصباح والمساء. ودائمًا تفعل الشيء نفسه طوال اليوم، إنه المشي. لكن المشّاء المعبّر عن انبهاره من (زرقة الحجارة تحت ضوء ليلة من ليالي شهر يوليو، والخضرة الفضية لأوراق الزيتون عند الظهيرة، والتلال الأرجوانية في الصباح) ليس هو ماضيًا، ولا مشاريع، ولا خبرة. يقبع في داخله دائمًا طفل أبدي. أنا أثناء المشي لست إلا مجرد نظرة.

يترك الرجل في الغابة سنواته كما ينسلخ الثعبان من جلده القديم -ومهما كانت فترة حياته في ذلك الوقت، فإنه يبقى طفلًا. يوجد في الغابة الشباب الأبدي [...]. هناك أشعر أن لا مكروه يمكن أن يصيبني، لا مصيبة ولا محنة، يمكن أن تعجز الطبيعة عن إصلاحها، لأن نظري لم يؤخذ مني. واقفًا على الأرض العارية، ورأسي يستحم في جوّ بهيج، وينتصب في الفضاء اللانهائي، حينها تتلاشى أنانيتنا الدنيئة. وأصبح حدقتين شفافتين؛ أنا لا شيء، أنا أرى كل شيء[1].

بهزّاتها العظيمة توقظنا الطبيعة على هذا النحو من كابوس الإنسان.

أخيرًا، ربما، أبدية أخيرة: تلك التي ترتبط بالتناغم. عندما نمشي يجب أن نصف بالتحديد ما يحصل للمنظر الطبيعي وما لا يمكن أن يتم بطريقة مختلفة. هناك مناظر طبيعية أراها مارة وأنا داخل السيارة: أتأمل الخطوط النقية للجبال، ثم أُنقل داخل صحارٍ رائعة، وأعبر غابات مدهشة. أحيانًا أطلب التوقف: أمشي بضع خطوات وألتقط بعض الصور. يدلّونني على شيء، ويصفونه لي بالتفصيل: اسم الأشجار، وشكل النباتات، وخلفية المعالم البارزة. بالطبع، تكون الشمس أشد حرارة، والألوان أكثر سطوعًا، والسماء أكثر سخاء.

ولكن المشي يُحدث إشباعًا. المشي إلى ما لا نهاية، أن نجعل مسام الجلد منافذ لمرتفعات الجبال عندما نواجهها لفترة طويلة، ونتنفس لساعات شكل التلال ونحن نهرول فوقها طويلا آنئذ يصبح الجسم معجونًا بالأرض

(1) رم. إمرسون. طبيعة.

التي يدوسها. شيئًا فشيئًا، لا يعود المشّاء يشعر بأنه داخل المنظر الطبيعي: وإنما يحس بأنه المنظر الطبيعي ذاته. هذا ليس بالضرورة تحلُّلًا، وكأن المشّاء سيتلاشى ليصبح انعطافًا بسيطًا، خطًا إضافيًا. لأن في داخل المشّاء يُشرق هذا التطابق. وكأنه لحظة اندلاع نار مفاجئة: الزمن يضطرم، ويتجلّى هنا شعور الأبدية فجأة، على شكل ذبذبة للموجودات كلها، حينها تبرز الأبدية، هنا، مثل شرارةٍ لوهجٍ دائم.

غزو البرية (ثورو)

ولد ديفيد هنري ثورو David Henry Thoreau في مدينة كونكورد، وهي بلدة صغيرة بالقرب من بوسطن في شهر يوليو من عام 1817. كان الطفل الثالث لأب يصنع أقلام رصاص. تلقى تعليمًا جيدًا في جامعة هارفارد. بمجرد تخرجه، سيبدأ التدريس في المدارس العمومية، لكنه لن يبقى هناك أكثر من أسبوعين؛ لأنه رفض إنزال عقوبة بدنية على تلاميذه ولن يعدَّ دروسه إلا بالتساوق مع نزهاته الطويلة. سيعود إلى مصنع العائلة الخاص بأقلام الرصاص. في عام 1837، سيقلب ترتيب اسمه الأول (سيصبح اسمه هنري ديفيد) ويبدأ بكتابة يومياته التي سيواظب على كتابتها حتى وفاته. في عام 1838، أسس صُحبة أخيه مدرسةً خاصة، لكن التجربة لم تدم طويلًا. وسرعان ما سيعمل معلمًا في بيت إيمرسون، سينشر قصائد ومقالات في صحيفة The Dial، وسيتردّد على نادي الفلسفة المتعالية[1] للمدينة، الذي شارك في تحرير مجلته. سيغادر كونكورد لبعض الوقت ليصبح مدرسًا لابن أخت إيمرسون في جزيرة ستاتن، بنيويورك، لكنه لم يمكث هناك سوى عام. في مارس 1845، بدأ ببناء كوخ بالقرب من والدن بوند، معتمدًا على نفسه، حيث اشترى إيمرسون أرضًا على ضفة البحيرة. ثم سيكون قراره الفلسفي أن يعيش هناك لأكثر من عامين، بمفرده، في اكتفاء ذاتي مثالي، بين الأشجار، وبجوار ضفة البحيرة: أخذ يحرث الأرض، ويتنزه، موزعًا وقته بين القراءة، والكتابة. في يوليو / تموز 1846، سيقبض عليه في كوخه وُيسجن لرفضه دفع الضرائب، معربًا عن رفضه الخضوع لحكومة تحارب المكسيك وتسمح بالعبودية. سينبثق من هذه التجربة كتيّبٌ سياسي رئيس حول العصيان المدني. سيقضي ليلة واحدة فقط في السجن، لأن متبرعًا مجهولًا أخرجه من السجن. غادر والدن في يوليو 1847 وعاد للعيش مع عائلة إيمرسون عامًا، ثم عاد للعيش في منزل العائلة، حيث عمل مساحًا للأراضي. بعد ذلك قام برحلات في الكيبيك، وفي نيو هامبشاير، وكذلك في وايت مونتين، وقد سمحت له

---

(1) هي فلسفة تقوم على الاعتقاد بأن المعرفة ليست محصورة في الخبرة والملاحظة، ولا هي مشتقة منهما وحدهما. وقد عارضت بهذا الفلسفة التجريبية التي تنص على أن المعرفة تنبثق من الخبرة الشخصية القيادية لهذه الفلسفة. وفي رأيه أن عالم الطبيعة يخدم الإنسانية عن طريق تزويدها بسلع نافعة، وبجعل الكائنات الإنسانية مدركة للجمال. وقد اعتقد رالف والدو إمرسون أن الناس يجب أن يتعلموا قدر المستطاع من خلال الملاحظة والعلم. (المترجم)

بلقاء القبائل الهندية. ناضل ثورو طوال حياته ضد العبودية. توفي في الرابعة والأربعين من العمر جراء إصابته بمرض السل، تاركًا عملًا فكريًا ضخمًا وساحرًا، بما في ذلك كتابه عن والدن السحرية الذي روى فيه تجربته التي استمرت عامين في الغابة. كما أنه يُعدّ أول مؤلّف لرسالة فلسفية عن المشي: (Walking).

واكب ثورو مرحلةً من القرن التاسع عشر عندما بدأ عصر الإنتاج الضخم، وانطلاقة الرأسمالية الكلية وعصر الاستثمار الصناعي الكبير، الذي تميّز بالتهافت والسباق اللامحدود من أجل تحقيق المكاسب ونهب الطبيعة، التي لم تعد سوى آبارٍ لربح المال. ولمواجهة تطور حمى الإثراء غير المحدود، ومواجهة الرسملة العمياء للسلع المادية، يقترح ثورو اقتصادًا جديدًا.

مبدأ ذلك غاية في البساطة. لم يعد الأمر يتعلّق بالتساؤل عن عائد هذا النشاط أو ذاك، ولكن ما سيكلفه من لحظات الحياة الصافية.

ما يكلفه شيء يوافق في المقابل ثمن ما أسميه الحياة المطلوبة كمقابل، إنْ على المدى القريب أو البعيد[1].

إنها أيضًا طريقةٌ أخرى لتمييز الربح عن الفائدة. ما هو الربح الذي سأجنيه من المشي الطويل داخل غابة؟ إنه لا شيء: لا يوجد إنتاج، يمكن إعادة بيعه، أو تقديم خدمة اجتماعية يمكن أن تجلب لي منفعة. في هذا السياق، فإن المشي عديم الجدوى وغير مربح. من حيث مفهوم الاقتصاد التقليدي، فإنه مضيعةٌ للوقت، ومفسدةٌ، ووقتٌ ضائع، لا ينتج الثروة. ومع ذلك، بالنسبة إليّ، بالنسبة إلى حياتي، لن أقول حتى حياتي الداخلية، ولكن الشاملة والمطلقة، فمنفعة المشي هائلة، لأنني خلال الوقت الطويل الذي أقف فيه منتصبًا من تلقاء نفسي، دون أن أتعرض للغزو بسبب متاعب متقلبة ومدوخة، ولا متبرمًا من الهذر المتواصل للأشخاص الثرثارين، فسأكون قد راكمت نفسي طوال اليوم. عندما أستغرق فترة طويلة في الإصغاء أو التأمل: تمنحني الطبيعة، دون حسابٍ، كل ألوانها. وهذا من أجلي أنا وحدي. مقابل المشي: أتلقى الكثير من الوجود الصافي. بطبيعة الحال يوضع كل شيءٍ في الميزان. وفي المحصلة فقد كان المشي أكثر

(1) والدن أو الحياة في الغابات.

فائدةً وأقل ربحًا: ما قُدّم إليّ، قُدّم إليّ بوفرة.

يتمثل الفرق بين الربح والفائدة في أن العمليات التي تسمح بالربح، يمكن أن يقوم بها شخص آخر بدلًا مني: وهو من سيكون فائزًا. ما لم أكن أنا من فوّضه، ولكن يبقى أن النشاط المربح يمكن أن يتحقق دائمًا من جانب شخص آخر. ومن هنا مبدأ المنافسة. لكن في المقابل ما يفيدني يعتمد على الحركات والأفعال ولحظات الحياة التي لا يمكنني أن أفوّض أحدًا كي يقوم بها عوضًا عني. ذهب ثورو حتى الكتابة في مراسلاته: لمعرفة ما يجب القيام به، اسأل، بصدد الفعل الذي تريد القيام به، «هل يمكن لشخص آخر أن يفعله مكاني؟ إذا كان الأمر كذلك، فتخلَّ عنه إلا إذا كان لا غنى عنه على الإطلاق، إلا أنه لا يندرج ضمن ضرورة الحياة. إن العيش، في أعمق درجاته، لا يمكن لأحد أن يفعله مكاننا. أما بالنسبة إلى العمل، فيمكن أن يعوضنا أحد فيه، ولكن بالنسبة إلى المشي لا يمكن لأحد أن يقوم به بدلًا عنا وهذا هو المعيار الكبير».

إذا لم أكن أنا، فمن سيكون مكاني[1]؟

ولكن دعنا نعود إلى حساباتنا. الأمر المثير عند ثورو ليس مضمون الجدال بالضبط. لأن الحكمة القديمة، كانت قد أعلنت بالفعل عن ازدرائها للكنوز الخارجية لصالح الثروات الروحية، أو أنها أكدت أن ثروة الإنسان تعتمد على شعوره بأنه لا يعوزه شيء. لكن ما يثير الإعجاب هو شكل البرهنة، لأن ثورو يذهب بعيدًا في ملاحقة هوس الحساب. فهو لا يقول: دعنا من الحساب الاقتصادي للكميات لصالح الجودة البحت. وإنما يقول: فلنحسب، ونحسب دائمًا. ماذا أربح بالضبط، أو أخسر؟ ماذا سأخسره من الحياة النقية عندما أرغم نفسي على جني المزيد من المال؟ فما يكلف الأغنياء كي يكونوا أثرياء: هو العمل، والقلق، والسهر، والتمسّك بالعمل كل التمسك. صحيح، يعترف ثورو، أننا بحاجة إلى سقف، وجدران، وسرير، وكراسي. ولكن: أي سقف، وما الأواني بالضبط؟ إذا كنت تريد منزلًا كبيرًا جدًا، وأزرار أبواب لؤلؤية، فستعمل بجدٍّ، وتنسى طويلًا الطقس الحالي ولون السماء. إنه إذًا ربحٌ هائل، لكنه لن يفيد أحدًا. سقفٌ واحدٌ فحسب، لحماية نفسي من البرد، وثلاثة كراسي فقط (واحد للجلوس، والثاني للصداقة والثالث للمجتمع)، فقط سرير وبطانية جيدة للنوم، لن

(1) اليوميات.

تكلف هذه الأشياء كلها كثيرًا، ولا تتطلب في الواقع سوى القليل من العمل (القليل من العمل اليدوي، قليلًا من زراعة الفاصوليا التي تُقايض بالأرز)، ونكسب كثيرًا: ما تبقى من الوقت يمكن القيام بنزهات طويلة (تستغرق أربع ساعات يوميا) تفعم الجسم، وتمتعه بسخاء بمناظر طبيعة مجانية (الحيوانات، ألعاب النور في الغابات، أعماق اللون الأزرق فوق المستنقع). يواصل ثورو الحساب عاكسًا وتيرة الأسبوع الشاقة والدينية: لكسب ما يكفي للعيش ببساطة، ويكفي العمل يومًا واحدًا في الأسبوع فقط. أما الأيام الأخرى من العمل، فهي من أجل الفوز بالأشياء العديمة الفائدة والعبث والرفاه والتهام الأشياء الضرورية. يقول ثورو، الذي يقدّم حساباتٍ دقيقة، إن منزلي لم يكلفني سوى ثمانية وعشرين دولارًا.

إن العمل يُنتج من الثروة بقدر ما ينتج البؤس. البؤس بهذا المعنى ليس ضد الثروة: إنه تحديدًا مُكمّلٌ لها. الأغنياء يملؤون بطونهم، وهم يُحدقون في صحن الجيران لمعرفة ما إذا كان مملوءًا أكثر. يتمسك الفقير من جانبه بفتات الوليمة. إنهم يلعبون جميعًا اللعبة نفسها. ببساطة، هناك رابحون وخاسرون. إن الفقر الذي يتحدث عنه ثورو يتعارض مع الثروة بقدر ما يتعارض مع الفقر -ثروة أولئك الذين يستلبون أنفسهم كي يكون لديهم المزيد دائمًا، وفقر أولئك الذين يكدحون من أجل الفوز بالهراء- فهو يتعارض مع النظام. يتعلّق الأمر بالتوقف عن لعب هذا الدور. وليس تخلي الإنسان عن وضعه الحالي، والاقتصاد ببخل، والتوقف عن الإنفاق، ولكن التوقف عن مجاراة السباق. إنه اقتصاد اختياري. الاقتصاد ليس تقشفًا متشددًا. وبهذا أعني أن التقشف ينطوي دائمًا على فكرة مقاومة إغراء الحصول على الكثير: الكثير من الطعام، الكثير من الثروة، الكثير من الممتلكات، الكثير من المتعة. يستنكر التقشف ميل المتعة نحو الإفراط. يتعلق الأمر إذن بضبط الكمية وقول «لا» للإفراط. في التقشف، جرعة جيدة من الشدة، أو الاحتقار أو الخوف من الملذات. إن التقشف رفضٌ للتخلي، وحظر للشعور الزائد خوفًا من الإسراف. أما الاقتصاد فهو اكتشاف البساطة التي تفعم، واكتشاف الاستمتاع التام بثلاثة أشياء بَسيطة: الماء، فاكهة، ونسمة هواء. يكتب ثورو: آه! أن نتمكن من بلوغ حالة من الابتهاج، بالهواء الذي نستنشقه!

يقولون لنا إن الإنسان يحتاج إلى مجهود للحصول على الممتلكات والثروات. ويكفي أن نراه يعاني كل يوم. وكل ما يرفضه عندما يعمل. يقول

ثورو، يجب أن نستمر في الحساب، وسوف نعترف بأننا نسير بشكل أسرع أثناء المشي. لأنّ امتلاكك فرسًا، وعربة، سيكلفك أيامًا من العمل. إن المسافة التي ستقطعها بالعربة في يوم واحد، ستكلفك شهورًا عديدة من العمل، لذا امشِ! وسوف تصل بشكل أسرع، وبالإضافة إلى ذلك ستكسب عمق السماء ولون الأشجار.

يكتب ثورو: «أجعلُ كل ما أراه ملكي» ويعني ذلك أننا عندما نمشي، كم نراكم من العواطف الملونة والذكريات المشمسة ذخرًا لليالي الشتاء. كنوزنا، وممتلكاتنا الحقيقية، هي حصيلة تمثلاتنا التي تلقّيناها وحافظنا عليها.

أرجع دائمًا إلى رؤاي. إنها ممتلكاتي الأبدية، وُهبتها من صدف العالم، هي شيء مذّخر للأيام الصعبة[1].

لكن الثروات من الأسهل اكتسابها أكثر من التخلص منها. روح المالك تتحجر، وتتغلف وتتصلب لفرط احتكاكها بالثروة المادية، في حين أن قلب الفقير يتقلص لفرط الحسد والغضب من الحرمان منها. بالنسبة إلى الأثرياء، يصبح من الصعوبة بمكان الحرمان من الرخاء -كرسي خشبي بدلًا من أريكة ناعمة، من المستحيل أن ينام في البرد، ويتألم من المشي خمسمائة متر. أما الفقير، فيقبع سجين رغباته كي يحصل على الرخاء، مستمرًا في الاعتقاد بقدوم الثروة.

حتمًا، الثروة باهظة الثمن، بالنسبة إلى كثير من الناس.

لم يكن ثورو، هذا المشّاء الهائل (يمشي من ثلاث إلى خمس ساعات في اليوم، وكل يوم) سوى مسافرٍ عظيم. قام ببعض الرحلات في غابات ولاية ماين، بالكيبيك، وفي نيو هامبشاير. لكن تجربة المشي التي يتحدث عنها والتي تشحنه تتعلق فقط بنزهاته اليومية الطويلة حول كونكورد، حينما كان ينطلق من المنزل، ويداه في جيبه. مَن هذا المغامر بقدمين صغيرتين؟ لكنه بهذا يحذرنا من الخطر الكبير للتغريب. نرى الكثير من الذين يمشون، ويذهبون بعيدًا يتحدثون عما رأوه هناك: اللقاءات لا محالة رائعة، والأحداث حتمًا ملحمية، والمناظر الطبيعية دائمًا فائقة الجمال، والأطعمة طبعًا مجنونة. وعندئذ تكون النتائج قياسية دائمًا: في الحكاية، في المغامرة، في أقصى الحدود. ومع ذلك، فإن والدن ثورو قد أدهشه

(1) نفسه.

سحرها أكثر من أي حكاية سفرٍ أخرى. ففيها شعر براديكالية في التحول تجعل من الملحمات المفخمة لمغامرينا إلى الأقاصي مبعث ضجر. لن نملّ تكرار القول: ليست هناك حاجة للذهاب بعيدًا أثناء المشي. المعنى الحقيقي للمشي لا يكمن في الذهاب نحو الآخر (عوالم أخرى، وجوه أخرى، ثقافات أخرى، حضارات أخرى)، بل المشي على هامش العالم المتحضر، أيًا كان هذا العالم. المشي يعني أن تضع نفسك على الهامش: على هامش أولئك الذين يعملون، وعلى هامش الطرق السيارة، وعلى هامش منتجي الربح والبؤس، والمزارعين، والكادحين، وعلى هامش الأشخاص الجادين الذين لديهم دائمًا شيء أفضل لفعله عوض الترحيب بنعومة شمس الشتاء الشاحبة أو طراوة نسيم الربيع.

ليس المشي مسألة حقيقةٍ فقط، وإنما هو مسألة واقعٍ كذلك. المشيء هو القيام بتجربة الواقع. ليس الواقع من حيث هو مثل مظهرٍ خارجيٍّ ماديٍّ خالص، وليس من حيث هو ما يهم الذات، ولكنه واقعٌ ما يصمد: إنه مبدأ الصلابة، والمقاومة. يجعل المشي من كل خطوة اختبارًا لصلابة الأرض. في كل خطوة، يجد ثقل جسدي كله الدعم والارتداد، فيتّخذ انطلاقته.

هناك عمقٌ جديٌّ في كل مكان [1].

ينبغي أثناء التسلق دائمًا أن نضع قدمنا في مكانٍ آمن: ودائمًا نصادف تلك اللحظة الغائبة عن الحواس عندما نضغط بقدمنا، كي نشعر إذا كانت هناك مقاومة. وبعد ذلك، وبثقةٍ، نضع جسمنا كله على قدمٍ واحدة، قبل أن نُنزل القدم الأخرى التي تقدّمت إلى الأمام. ما يجعل الرجلين ترتعدان، هي الطرق الثلجية حيث تغوص القدمان في الجليد، أو في التربة المبللة جدًّا، سواء كانت حصوية أو رملية، لأن الجسم مجبرٌ على دعم توازنه باستمرار، ورفع الوزن عاليًا. لذلك، لا يجب أن نسير، بل يجدر بنا أن نرقص. لأن رخاوة الأرض تُوتّر القدم وتزعجها. وعلى العكس من ذلك، فإن الأرصفة مفرطةٌ في الصلابة: فهي تردد صداها مثل طبولٍ فارغة، وتعيد صدمة الخطوة إلى الجسم كله، عندما تمتصها الأرض عميقًا. إن الانتظام التام للطرق المعبدة يُسفر عن ملل القدم: الواقع ليس بهذه الرتابة.

(1) والدن أو الحياة في الغابات.

يقرر البعض تكريس وقتٍ للكتابة مماثلٍ للحيز الزمني الذي يخصصونه للقراءة. يذكرنا ثورو بإيمرسون الذي سنّ مبدأ ألا يُخصِّص وقتًا للكتابة ما لم يكرس وقتًا مماثلًا للمشي. لتفادي فخاخ الثقافة والمكتبات. لأنه، خلافًا لذلك، فإن ما سنكتبه سيكون محشوًا بكتابة الآخرين. لأنهم كتبوا هم أنفسهم عن كتب الآخرين... يجب أن تكون الكتابة على هذا النحو: أن تكون شهادة على تجربة صامتة وحيّة. وليس تعليقًا على كتاب آخر، وليس شرحًا لنص آخر. الكتاب يُشبه الشاهد. لكنني أقول «شاهد» بالمعنى الذي تعنيه الكلمة الفرنسية في سباق التتابع: نسلم «الشاهد» إلى شخص آخر، فيبدأ بالركض. هكذا الكتاب، يولد من التجربة، ويحوّل التجربة. ليست الكتب ما سيعلمنا طريقة العيش (إنه البرنامج المحزن لمانحي الدروس)، وإنما ما الذي يخلق فينا رغبة العيش، العيش بشكل مختلف: أن نجد في أنفسنا إمكانية الحياة، ومبدأها. لا تمثُل الحياة بين كتابين (حركات رتيبة، يومية، ضرورية، بين قراءتين)، بل إن الكتاب يخلق الأمل في وجود مختلف. لذلك لا ينبغي أن يكون وسيلةً للهروب من رتابة الحياة اليومية (الحياة اليومية التي تشبه تكرار الأشياء باستمرار)، ولكن ما يجعل الحياة تنتقل من حياة إلى حياة أخرى.

من غير المجدي أن نجلس للكتابة عندما لا نكون قد وقفنا من أجل العيش[1].

يجب أن نسعى وراء هذه الكتابة عن الواقع: لا نكتب إلا امتدادًا لهذه الخطوات القوية الصلبة. ولأن ذلك لا يجعل في الفكر إلا ما هو صلب. أعني بذلك: ألا نكتب إلا ما عشناه بكثافة. ولا نعتمد قاعدةً أساسية للكتابة غير التجربة.

يجب أن نعبُر وحل الآراء والأحكام المسبقة والتقاليد والوهم والمظاهر، هذه الرواسب التي تغمر عالمنا، من باريس إلى لندن، من نيويورك إلى بوسطن وكونكورد، وأن نمر عبر الكنيسة والدولة، عبر الشعر والفلسفة والدّين، حتى نصل إلى أساسٍ صلب، إلى الصخور الراسخة في مكانها، والتي يمكن أن نسميها الواقع، حتى يمكننا أن نقول: هذا موجود، يقينًا[2].

عندما نمشي لا يصبح الواقع تربةً صلبةً فقط، ولكن أيضًا اختبارًا

(1) اليوميات.

(2) والدن أو الحياة في الغابات.

لتماسكه. لا يتوقف ثورو أبدًا عن الإلحاح: خلال المشي، فإن المسألة تتعلق بواقعيتي أنا. لأن الإنسان لا يشعر حينئذ بأنه في الطبيعة وإنما بأنه هو نفسه طبيعي. لا يتعلق الأمر هنا بـ«تواصل» أو «انصهار». هذان التعبيران هما أكثر ملاءمة للتجارب الصوفية، حيث يتحقّق الفكر ويتلاشى في كل موحد في اللحظة نفسها. كلا، إن المشي يمنح شعورًا بمشاركته: أشعر في أعماقي بالنبات، والصخور، والحيوان. أشعر أنني مُكوّن من خشب الشجرة عينها، التي أمر بجانبها وأداعب لحاءها، وأنني منسوج من القماش نفسه الذي شكّل الحشائش الطويلة، التي ألامسها. وأشعر بأن تنفسي يصبح بطيئًا عندما أتوقف، يتناغم مع لهاث الأرنب. الذي توقّف فجأةً أمامي.

هذا الاختبار للواقع الذي نعيشه طوال اليوم، من خلال صلابة الأرض، وأيضًا من خلال تماسك ذاتي المتكرر في كثافة ما يحيطني، ينتهي في داخلي بفيضٍ من الثقة. إن المشي، كما يقال، «يُفرغ الرأس». بل إنه يملأ الفكر بمادة أخرى. لا يتعلق الأمر بالأفكار أو المعتقدات، وليس بمعنى حشو الرأس بالعبارات والاقتباسات والنظريات: ولكن ملؤه بحضور العالم. هذا الحضور هو الذي يترسخ أثناء المشي، بواسطة الرحيق المنتظم، في النفس طوال اليوم. وعندما يأتي المساء، بالكاد نجد القدرة على التفكير: نتنفس فحسب، ونُغمض أعيننا، فنشعر أن فوق جسمنا طبقات من المناظر الطبيعية تطفو، وتعيد تكوين نفسها: لون السماء، وميض الأوراق، شكل التلال المتشابكة. ما يسمى الثقة هنا ليس أملًا قويًا، ولكنه يقينٌ مؤكد. وهكذا يصبح الإنسان الذي يمشي طوال اليوم آمنًا خلال الليل.

تُستمد هذه الثقة كذلك من حيوية الصباح. يريد ثورو، في جميع أعماله، أن يؤمن بالصباح، أو بالأحرى، فإن الصباح هو ما يحفزنا على الإيمان به. يجب أن ننطلق دائمًا عند الفجر عندما نريد أن نمشي، لكي نرافق شروق الشمس. وفي هذه الساعة الزرقاء المحيرة، نشعر وكأننا نسمع غمغمة الوجود. يجعلنا المشي في الصباح نواجه فقر إرادتنا، بمعنى أن الإرادة هي عكس المرافقة. وأعني بذلك أن تتبُّعَ طلوع الفجر خطوة خطوة هو كل شيء إلا أن يكون اقتلاعًا عنيفًا، وانقلابًا مفاجئًا، وقرارًا متخذًا. لأن بداهة النهار تفرض هيمنتها ببطء. وبعد ذلك ستشرق الشمس ويبدأ كل شيء. إن صلابة التحولات الطوعية، الاحتفالية، والمهذارة، تخون هشاشتها. لا يبدأ النهار كفعل من أفعال الإرادة: إنه يطلع بشكل مؤكد ومن غير قلق. المشي في الصباح هو الفهم الحقيقي لقوة البدايات الطبيعية.

تقاس الصحة، بحبّ الصباح[1].

يكمن حبُّ الصباح عند ثورو في حماسه لفصل الربيع، عندما يخبرنا، على سبيل المثال، كيف، في شهر إبريل، يذوب وينكسر جليد بركة والدن، وينهار، تحت ضغط الطاقات الجديدة، كيف تفتح المسالك وتخترع السبل بواسطة النهر؟ لكن ما يجده، على الخصوص، وفي بعض الصباحات وفي كل فصول الربيع، هو مبدأ تجدُّد الأبدية.

يبدأ العام، بأملٍ أكثر شبابًا، من أي وقت مضى[2].

يكمن الشباب الأبدي للأمل الحقيقي في ألا يخضع المرء لأي شرط وفحص واختبار؛ وإنما في معرفة أن الشباب يكمن في شكل الأمل أكثر من محتواه. لأن الأمل، في الأساس، لا يريد أن يعرف شيئًا: فهو يؤمن. يعتقد، يأمل، يحلم، أبعد من كل مكتسب، وكل درس، وكل ماض. الطبيعة ليس لها تاريخ: ذاكرتها لا تتجاوز العام. إن ما يسميه ثورو تجربة الربيع هي أن يجد المرء نفسه مأخوذًا بتيار التأكيد الخالص، لدفعة وحشية، حيث لا تُهمّ سوى الرغبة في العيش. تجربةٌ لا تزال، كما يقول، مشبعة بالبراءة: كل شيء يبدأ من جديد، كل شيء ينطلق من جديد، ومع وطأة الليل، فإن النور يجرف عبء الماضي بعيدًا.

يكفي صباحٌ ربيعيٌّ كي تُغتفر آثام الإنسان كلها[3].

عندما نمشي في الربيع، أو في الفجر، نكون متأهبين، والذهن منشدٌّ إلى النهار القادم، ولا يوجد شيء يُعتدّ به عدا التأكيد البطيء. كذلك المشّاء لا يمتلك أي تاريخ: لأن ثقله جسيم، لحمله طوال الرحلة. عندما نمشي في الصباح، نتجرّد من كل ذكرى. ولا نملك غير بهجة الثقة حينها سيخترق النهار أوراق الليل.

الشمس ليست قط سوى نجمة صباح[4].

في مطلع الصباح، نمدُّ أبصارنا جهة الغرب. وعند ثورو، تشرق الشمس

(1) نفسه.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) المشي.

دائمًا من الغرب. إن ذاكرتنا هي ما يوجد في الشرق: الشرق هو الثقافة والكتب والتاريخ والهزائم القديمة. لا يوجد شيء نتعلّمه من الماضي، لأن التعلم إذن هو تكرار الأخطاء القديمة. لهذا السبب لا ينبغي أن نثق في كبار السن، ولا ضرورة لأن نقتضي بما يسمى «تجربتهم» التي لا تُعدّ غير كتلة جسيمة من أخطائهم المتكررة. يجب أن نثق في الثقة عينها وفي الشباب. في الغرب توجد منابع المستقبل.

نذهب إلى الشرق عندما يتعين علينا أن نفهم التاريخ وندرس الفن والأدب، باقتفاء أثر سلالتنا -ونحن نسير غربًا كما لو كنا نسير صوب المستقبل، بعقلية مغامرة، عقلية المقاولة[1].

إن الغرب منجمٌ، واستعدادٌ للمستقبل، ومورِدٌ للكينونة، واللاممسوس، والجديد دائمًا. لكن الغرب هو أيضًا البرية: (The Wild). والبرية هي الطبيعة التي لم تستغل بعد، الطبيعة العذراء، القوة الأولى، اللاإنسانية (غير الأكاديمية: القليل من الشعراء يعرفون، كما يقول ثورو، رسم «الجانب الغربي من الجبال»)، لكنه أيضًا الجزء الوحشيّ الكامن فينا، المتمرد، الذي لم يتخلّ عن العيش، والإثبات النقي. عندما كتب إيمرسون بأن روح ثورو كانت أمريكية أكثر من الأمريكيين أنفسهم، ربما كان يفكر في هذا الانبهار بالوحشية البدائية، التي جعلها مصدر المستقبل. يقول ثورو: «يوجد المستقبل في الغرب: لا يمكن أن يتحرّر، وينفتح، ويصبح ممكنًا مرة أخرى إلا بالغوص والمواجهة في البرية. ربما يكمن هنا الفرق بين اليوتوبيا الأمريكية وحلم اليقظة الأوروبي عن البرية الوحشية. بالنسبة إلى الأوروبيين، فإن الوحشية لها قيمة أصلية: هذا خطأ سحيق، مفتوح دائمًا، على نقطة بداية مظلمة. إنه السلف الذي نودّ العودة إليه، والذي نريد أن نستعيده في بعض الأحيان، لكنه ماضينا النهائي. بالنسبة إلى ثورو الأمريكي، فإن البرية الوحشية توجد في الغرب: إن إمكانية المستقبل أمامه. إن الوحشي ليس ليل ذاكرتنا، بل صباح العالم والإنسانية.

إن الغرب الذي أتحدث عنه ليس سوى مرادف لكلمة «وحشية»، وأقصد بذلك أن حماية العالم تكمن في الحياة البرية[2].

لهذا السبب يعتبر المشي تخلصًا نهائيًا من الأخبار، أي ما نسميه

---

(1) نفسه.

(2) نفسه.

بسخرية «المستجدات». إن ميزة «المستجدات» أنها تصبح قديمة في أسرع وقت ممكن. يقول ثورو، ما دمنا نمشي بإيقاع، فإننا نسير من محطة إلى أخرى: نريد أن نعرف المرحلة التالية. إن التحدي الحقيقي، مع ذلك، ليس معرفة ما الذي تغيّر، ولكن الدنوّ مما بقي جديدًا منذ الأبد. لذلك من الضروري استبدال النزهة بقراءة الصحف الصباحية، لأن الأخبار تُستبدل، تُشوش، تُكرر نفسها، وتُنسى. حقًّا أننا بمجرد أن نمشي، فإن كل هذا الضجيج، وهذه الإشاعات، كل هذا يختفي. ما الجديد؟ لا شيء، الأبدية تهدئ الأشياء، التي تبدأ من جديد دائمًا.

هذا الوجود الذي خاضه ثورو -وجودٌ رافض (يخبر إيمرسون أن رد فعله الأولى على أي طلب ملحّ كان هو «النفي»، كان من السهل عليه دائمًا الرفض بدلًا من القبول)، ولكنه كذلك وجود الخيارات الجذرية: العمل من أجل الأشياء الضرورية فقط، والمشي لفترة طويلة كل يوم، واجتناب اللعبة الاجتماعية- سرعان ما اعتبره الآخرون (الأصوليون، المجدون، والأثرياء) متطرفًا تمامًا، ومع ذلك، كان سلوكه يختلط بالبحث عن الحقيقة والأصالة. ولكن السعي وراء الحقيقة يكمن في تجاوز المظاهر واستنكار العادات والتقاليد والحياة اليومية، بوصفها مواضعاتٍ ونفاقًا وأكاذيب.

أعطني الحقيقة، بدلًا من الحب، والمال، والمجد[1].

الحياة الحقيقية هي دائمًا حياة مختلفة، الحقيقة قطيعة. الحقيقة تكمن في الغرب: من أجل إعادة اكتشاف الذات، ينبغي أن نعثر على أنفسنا، تحت جليدِ يقينِ المسلّمات والآراء الثابتة، تحت تيار الوحشي: الذي يصمّ، وينفلت، ويفيض. نحن سجناء أنفسنا. نحن نتحدث عن طغيان الرأي العام، لكن هذا الرأي العام لا شيء، كما يقول ثورو، مقارنةً بالرأي الشخصي. نحن مُقيّدون بسلاسل أحكامنا الخاصة. إن المشي عند ثورو يكون صوب الغرب، (لكننا نسير دائمًا غربًا بمجرد أن نمشي بشكل جيد)، ليس للعثور على أنفسنا فحسب، وإنما لنتيح لأنفسنا إمكانية إعادة تشكيل أنفسنا دائمًا.

إن خوض غمار حياة حقيقية، هو القيام برحلة طويلة[2].

(1) والدن أو الحياة في الغابات.

(2) مراسلات.

يُحكى أن كاهنًا زار ثورو، في أيامه الأخيرة وهو على فراش الموت، ليقدّم له عزاء الدين ذاكرًا الآخرة والعالم الآخر، فأجابه ثورو، وهو يبتسم واهن القوى، «من فضلك لا أريد سوى عالمٍ واحد، دفعةً واحدة».

طاقة

رسم ثورو خلال نزهاته الشتوية صورة للمشّاء في الأوقات الباردة. فكتب: عندما نخرج في الصباح في الجو صقيعي -تكون المسارات مكسوة بالثلوج، والأشجار تمدُّ من جميع الجوانب أذرعها البيضاء الطويلة والرفيعة- نتحرّك في هذا القطن الضخم المجمد، ثم نسير بسرعة وبشكلٍ جيّد، من أجل أن نُبقي أجسامنا ساخنةً ونشعر بالدفء. إن السعادة الكامنة في المشي شتاءً، هي أيضًا أن نشعر بهذه النار الصغيرة التي تضطرم في الصدر.

توجد نارٌ تحت الأرض كامنة في الطبيعة لا تنطفئ أبدًا، ولا يمكن لأي بردٍ أن يأتي عليها [...]. هذه النار الأرضية الباطنية لها مذبحها في كل صدر بشري. في الواقع، في اليوم الأشد برودة وعلى التلة الأكثر انكشافًا، يتغذى المشّاء بين ثنايا سترته بحرارةٍ أكثر دفئًا من تلك التي توقد في كل منزل. ونتيجة لذلك فإن إنسانًا بصحة جيدة، يوفر توازنًا في كل موسم، بحيث يكون فصل الشتاء، في قلبه فصل صيف. هناك يوجد الجنوب[1].

الطاقة الأولى التي يشعر بها المرء عند المشي هي طاقته الخاصة، وهي طاقة جسمه المتحرك. إنه ليس انفجارًا للقوة، ولكن بالأحرى تألقٌ مستمرٌ وحساس.

إن الهنود الأمريكيين، الذين أعجب ثورو بحكمتهم، اعتبروا الأرض نفسها مصدرًا مقدسًا للطاقة. كان التمدّد فوقها ما يمنح الراحة، وكان الجلوس على التراب ما يعطي المزيد من الحكمة خلال انعقاد المجالس، وكان المشي عليها ما يشعرك بالتواصل معها مما يجعل الإنسان أقوى وأكثر ديمومة. إن الأرض، بئر قوةٍ لا ينضب معينها: لأنها الأم الأصلية، المغذية، ولكن أيضًا لأنها تضم الأجداد الموتى جميعهم. هي عنصر توارث. وهكذا، بدلًا من مد يديه إلى الجنة لتوسل النعمة السماوية الإلهية، فإن الهندي الأمريكي يفضل المشي حافيًا فوق الأرض.

كان [هندي لاكوتا] يحبُّ الأرض بمكوناتها كلها، كما أن ارتباطه بها يزداد

---

(1) هـ.د ثورو: نزهة الشتاء.

مع التقدم في العمر. كان الرجال المسنّون عاشقين للكلمة بمعنى الكلمة ولم يكونوا ليجلسوا على الأرض أو ليستريحوا عليها من غير أن يشعروا بالاقتراب من قوى الأم. كانت الأرض ناعمة تحت الجلد وكانوا يرغبون في خلع الأخفاف والمشي حفاة القدمين على الأرض المقدسة. كانت خيامهم منصوبةً على هذه الأرض حيث صنعت هياكل عبادتهم. يأتي الطائر الذي يحلق في الهواء ليحط عليها، والأرض تحمل دون وهنٍ كل من يحيا وينمو. إن التربة تهدئ، وتقوّي وتطهر وتشفي. لهذا السبب يبقى الهنود المسنون ملتحمين بالأرض بدلًا من أن يكونوا منفصلين عن قوى الحياة. يسمح لهم الجلوس أو الاستلقاء بالتعمق في التفكير كثيرًا، والشعور بمزيد من الحيوية؛ ثم يتأملون بوضوح أكبر أسرار الحياة ويشعرون بأنهم أقرب إلى القوى الحية جميعها[1].

ولفرط الاستناد إلى الأرض، والشعور بجاذبيتها، والاستراحة عليها عند كل خطوة، فإن المشي يصبح بمنزلة مصدر إلهامٍ للطاقة المستمرة. لكنها لا تنقل قوتها فقط في طريقة السطوع الذي يرتفع على طول الساقين. وأيضًا بواسطة مصادفة الانتقال من مكان إلى مكان. المشي حركة: القلب ينبض أثناءه بقوة، ويستغرق حركة واسعة، والدم يدور بشكل أسرع وأقوى من الوضعية المريحة. كما أن تدفق مياه الأرض يردد صدى ذلك فيجرف ويتجاوب.

ثم هناك مصدر أخير للطاقة، بعد القلب والأرض، إنها المناظر الطبيعية، التي تنادي المشّاء وتستضيفه: إنه في بيته، تدعمه التلال والألوان والأشجار. سحر المسلك المتعرج بين التلال، جمال كروم العنب في الخريف، التي تشبه الأوشحة الأرجوانية والذهبية، واللمعان الفضي لأوراق الزيتون تحت سماء الصيف، شساعة الأنهار الجليدية المفكّكة تمامًا، كل هذا يأخذك، ويهزك، ويغذي روحك.

(1) شيف لوثر ستاندينغ بير: أقدام حافية فوق الأرض المقدسة.

حجّ

ليس المشي نزهة مبهمة، وتجولًا فرديًا، لأنه اتخذ أشكالًا مقننة عبر التاريخ، حددت المسار والمصطلح والغرض منه. لهذا يعد الحجّ أحد تلك الأشكال الثقافية العظيمة.

إن المعنى الأول لـ(peregrinus): الغريب، والمنفي. ليس الحاجّ، في الأصل، الشخص الذي يذهب إلى مكان ما (روما، بيت المقدس، إلخ)، ولكنه، أولًا وقبل كل شيء، الشخص الذي يمشي في ديار ليست دياره، أو أنه المتجول في الهواء الطلق، الذي يقوم ببضع خطوات في الجوار، بغرض هضم طعامه؛ أو المالك، الذي يتجوّل على قدميه في مزارعه يوم الأحد. ولكن الحاجّ من يوجد بعيدًا عن دياره حيث يمشي غريبًا... هكذا نحن غرباء كما يقول آباء الكنيسة، في الأوطان، كما في بلاد العبور. يجب دائمًا أن يرى منزله مثل ملجأٍ لليلةٍ واحدة، وممتلكاته كحزمة مهملة، والأصدقاء مثل أشخاصٍ نلتقيهم على قارعة الطريق نتبادل وإياهم حفنةً من الكلمات، حول الطقس، مجرد مصافحات قليلة، ثم ليلة سعيدة: «رحلة موفقة». يقول الآباء: كل إنسان على وجه الأرض هو حاجّ: حياته كلها عبارة عن منفى، لأنه لم يصل إلى مسكنه الحقيقي ولا يمكن أن يجده هنا. الأرض كلها مأوىً مؤقت. يمضي المسيحي في الحياة مثل أي مشّاء في بلدان أخرى: دون أن يتوقف. نجد، على سبيل المثال، هذه الأبيات في أغنية حاج كومبوستيلا، يقول صاحبها:

يا صاح، يلزمنا أن نعبر دون أن نقيم مسكنًا.

ربما كان الرهبان الذين نطلق عليهم «الجيروفاج gyrovague» يجسّدون ويمجّدون، بشكلٍ خاصٍ وضعية الغريب الأبدي التي تعنينا؛ المشي باستمرار من دير إلى دير، دون أن يقيموا بصفة ثابتة. لم يختفوا جميعهم؛ يبدو أن البعض ما زال على جبل آثوس: إنهم يمشون طوال حياتهم على طرقات الجبال الضيقة، ويسيرون بشكلٍ دائري، وينامون عند نهاية النهار في المكان الذي حملتهم إليه أقدامهم. يقضون حياتهم كلها وهم يغمغمون الصلوات طوال النهار سيرًا، دون وجهة أو غرض،

هنا وهناك، يعبرون بالمصادفة منعطفات المسارات، يدورون، ويعودون، ويمشون دون الذهاب إلى أي مكان، مجسدين من خلال سيرهم الأبدي حالة الغريب كل الغرابة عن العالم الدنيوي. ولكن للأسف لا ينظر إلى الجيروفاج نظرة تقدير، إذ كان يُتعاملُ مع هؤلاء الرُحَّل الدائمين على أنهم انتهازيون، ومتشردون، وبذلك كان الناس يُدينون هذا النمط الوجودي من التيهان. يفرض القديس بنديكت بشكل خاص «الاستقرار الرهباني» ويؤكد أن حالة الحاج الأبدية (الغريب الأبدي) المؤمن هي استعارة بسيطة، استعارة لا ينبغي استنفادها على الطرقات، بل تعميقها في الانعزال للصلاة والتأمل الرهباني. قبل عدة قرون، كان الآباء المسيحيون يعيشون في الصحراء (خاصة أولئك الذين يعيشون في مصر) قد ميّزوا بعناية بين الحاج والناسك. كان من الضروري أن يمجد، بالطبع، مرض لاكسيناتيا (حالة الغربة في العالم)، ولكن دون إظهار ذلك عن طريق التشرد المشبوه؛ مجرد العزلة التأملية كافية.

أما الغربة الأبدية فتؤكد حركة الرحيل، والانسلاخ، والتخلي. هكذا دعا المسيح أتباعه إلى الارتحال: أن يتركوا النساء والأطفال، ومغادرة أرضهم، وتجارتهم، ووضعهم الاجتماعي، من أجل المشي، والمرافقة، والذهاب للتبشير («بِعْ كل ما تملك، وامنحه للفقراء واتبعني...»). وقبله بفترة طويلة، كانت إشارة إبراهيم: اترك كل شيء («اذهب إلى المكان، الذي سأدلك عليه ...»). المشي هدي، ونداء. نمشي أيضًا لكي نقطع مع أمر ونخلص أنفسنا: نضع حدًا نهائيًا لصخب العالم، وتراكم المهام، والاستنزاف. وليس هناك وسيلة أفضل للنسيان، وترك المكان، غير الملل العظيم للطرقات، والرتابة اللامحدودة لمسارات الغابات. وبذلك يكون المشي بمعنى الانفصال، والرحيل، والتخلي.

حالما نمشي حقًّا، فهناك سلسلة من لحظات الوداع، على مدار الأيام. نحن المشّائين غير متأكدين من العودة مرة أخرى إلى هذا المكان أو ذاك. تغذي هذه الحالة من المغادرة كثافة الرؤية، فتمنح النظرة إلى الوراء أهميةً قصوى، عندما نعبر ممرًا جبليًا، قبل أن تتغيّر المناظر الطبيعية كليًا. أو في لحظة المغادرة، في الصباح، عندما ننظر بإمعان إلى الملجأ نظرة أخيرة (كُتلته الرمادية والأشجار خلفه). نلتفت للمرة الأخيرة. ولكن هذه النظرة القلقة ليس معناها أن المشّاء يريد أن يأخذ، ويستبقي ويحتفظ: بل يريد بالأحرى أن يعطي، ويترك بعض نوره في هذا الوجود العنيد للصخور والزهور. على

سبيل المثال، يقوم المشّاء فوق الأنهار الجليدية الشاسعة، والسماوات الممتدة، والمروج المجهولة، بنثر شظايا نظراته الحادة، التي ستغوص في الأشياء. إذا كان الحاجّ سيمشي، فمن أجل اختراق ظلمة العالم.

ليس الحاجّ مجرد استعارةٍ للوضع البشري. يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أيضًا وجوده الملموس التشريعي والتاريخي. كان الحاجّ يعدّ طوال العصور الوسطى، كما نعلم، شخصًا ملموسًا ومميزًا ومختلفًا. أن تكون حاجًّا، فهذا يعني وضعًا قانونيًا. ندخل رسميًا، وشعائريًا وعلنيًا في وضعية الحاجّ، بمناسبة قداسٍ كبيرٍ جدًا، وبعد ذلك يبارك الأسقف الصفات التقليدية للمشّاء: عصا الحاجّ (عصا طويلة ذات رأس معدني يستخدمها المشّاء كثيرًا عند المشي وللدفاع عن النفس من الكلاب والحيوانات)، وكذلك الجراب لتخزين خبز اليوم والوثائق الضرورية. يجب أن يكون هذا الجراب ضيقًا (لأن المرء يستخلص من إيمانه بربه معظم موارده الضرورية)، يُصنع من جلد الحيوان (للتذكير بالفناء)، ويكون مفتوحًا دائمًا لأن الحاجّ مستعد للعطاء والمشاركة والمبادلة. يُعرف الحاجّ أيضًا بواسطة قبّعته ذات الحواف العريضة -المقدمة المرفوعة من أجل تعليق صدفة في حالة عودته من سانت جاك- جلبابه قصير وعباءته لتغطية رأسه. يقدّم الأسقف أو كاهن الأبرشية، بمناسبة القداس، للحاج رسالة واقية، ستحميه طوال الرحلة، وتسمح له بالإقامة في مختلف الأديرة أو المآوي التي سيصادفها في رحلته، ولحمايته من قطاع الطرق الذين يُعرّضون أنفسهم لعقوبة عظيمة إذا تجرؤوا على مهاجمة مشّاء مقدس. يكون الاحتفال مهيبًا وجسيمًا للغاية، لأن هذه المغادرة تشبه موتًا صغيرًا. لأن المشي إلى روما أو القديس جاك، ناهيك عن بيت المقدس، سيستغرق عدة أشهر دون يقين من إمكانية العودة. يمكن للمرء أن يستسلم للإنهاك أو يُضرب حتى الموت من طرف اللصوص، أو يغرق أو يقع بين جبلين. ولذلك، يجب على الحاجّ قبل مغادرته أن يُسامح أعداءه القدامى، ويحلّ كل خلافاته، بل يكتب وصيته.

ولكن لماذا نرحل، إذا كانت الظروف مؤلمة جدًا؟ الأسباب عديدة. أولًا، للمزيد من التقوى، وإعرابًا عن الإخلاص والتفاني (Devotionis causa). ولأن ما وراء الحجة الأولى (peregrination) (الشرط الإنساني للتجول في وادي الدموع)، يُعطى الحج هدفًا محددًا، ووجهةً نهائيةً مشرقة: زيارة مكان مقدس. إن أماكن الحج الكبرى هي، بالطبع، تلك التي دُفن فيها الأنبياء، أو القديسون: القديس جاك في كومبوستيلا، والقديس بولس

والقديس بطرس في روما، وقبر المسيح الفارغ في بيت المقدس (وأكثر تواضعًا: القديس مارتان في تور، وبقايا رئيس الملائكة في مونت سان ميشيل) إن الحج شاهد على الإيمان. علاوة على ذلك، فإنه زهد مستمر بواسطة تواضع المشي، وتفضيله الصيام المتكرر والصلوات المستمرة أيضًا.

لكن الذهاب إلى الحج قد يكون كفارة عن أخطاء خطيرة جدًّا. إذا اعترف المؤمن أو رجل الدين بارتكابه خطيئة فظيعة تؤرق ضميره، أو ارتكب تجديفًا جسيمًا أو حتى جريمة قتل لم تعاقبه العدالة عليها، يمكن أن يتقرر التكفير بواسطة الحج، الأكثر أو الأقل نأيًا وذلك بحسب خطورة الجريمة. وقد تمكّنت بعض المحاكم المدنية، في بعض الأحيان، من فرض الحج خلال العصور الوسطى، على أصحاب الجرائم الخطيرة مثل (قتل الوالدين والاغتصاب، وغيرهما)، وهي رحلة حج، تمنح فرصة لطرد مرتكب الجريمة إلى مكان بعيد جدًّا. أخيرًا، لم تحرم محاكم التفتيش نفسها، خلال عصرها، من فرض هذا النفي المؤقت على الزنادقة. وإذا كان الحج من هذه النقطة، قد أصبح شكلًا من أشكال العقاب، فلأنه يشكل بُعدًا لا جدال فيه من المعاناة، خاصة إذا كان مصحوبًا بأحكام محددة: المشي حافي القدمين، أو مقيدًا بسلاسل، أو ارتداء دوائر معدنية في الذراعين والرقبة، يكون معدنها (مصهورًا أحيانًا مع سلاح الجريمة)، وبعد أشهر من الإنهاك والعرق، قد تنكسر في بعض الأحيان. وحتى بدون هذه الظروف الرهيبة، التي قد تستمر لأشهر طويلة، قد يصبح المطر أو البرد أو حروق الشمس (لأن الحاجّ يمشي مكشوفًا تمامًا) محنةً حقيقية. بالأمس كما هو الحال اليوم، تصبح القدمان بئرًا داميًا من المعاناة القاسية: الجروح المتقيحة، والشقوق المؤلمة... إن طقوس غسل أقدام الحاجّ، وقت استقباله في الدير، بالإضافة إلى البعد المتمثل في التواضع المسيحي، يُنبهنا إلى أن العلاج، كان الهدف الأسمى من ذلك.

بالإضافة إلى أن ذلك يُعد دليلًا على الإيمان والتكفير عن الأخطاء، فإن الحاجّ يمشي أيضًا ليطلب شيئًا. سواءً كان لديك والد، أو طفل، أو صديق مَريض، أو كنت تعاني من مرضٍ خطير، فأنت تسأل وساطة قديسٍ من خلال زيارة قبره، كما لو كانت الصلاة البسيطة غير كافية ومن الضروري مخاطبته في صلاته بشكل أكثر قربًا، ليصل صوته إلى صاحب القبر. ولكن قبل ذلك من المفروض أن يمشي الحاجّ فترة طويلة، لكي يكون الاقتراب من المكان المقدس تطهيرًا بواسطة الألم والإجهاد، لأن الإرهاق يطهر ويدمر

الغطرسة. كما أن الصلاة تجعل الحاجّ أكثر شفافية. وبعد أن يصبح أكثر قربًا من المكان المقدس، يعبر المرء عن طلبه بالتواضع الذي تشهد عليه القدمان والملابس التي التهمها الغبار. وإذا كان الحاجّ نفسه يعاني من مرض، فإنه يدنو من القبر كثيرًا، فيتمسك به لأطول فترة ممكنة، بحيث يضع جزءًا كبيرًا من جسمه فوق قبر القديس، ثم يستلقي بجانبه، على أمل أن تدخل القوى المشعّة للأماكن المقدسة إلى جسم المريض فتمنحه قوةً مجدِّدة.

في النهاية، بواسطة الحجّ نشكر الرب على النعمة الخاصة التي من الممكن أن نحصل عليها، والخلاص المقدم، والهبة المسموح بها، والصحة الممنوحة. وهكذا فعل ديكارت، حينما احتاج إلى الإلهام من أجل وضع منهجه العلمي، فقد قام بالحج إلى نوتردام دي لوريت. وبشكل أكثر تواضعًا، قام الآلاف من المؤمنين، الذين صلوا في يوم من الأيام إلى الرب لإنقاذهم أو إنقاذ أقاربهم، وعندما رأوا رجاءهم يتحقق، هبوا إلى طيّ المسافات من أجل زيارة أقرب مكان مقدس، تعبيرًا عن امتنانهم.

ومع ذلك، فمن الضروري إضعاف قيمة الصور، وإعادة النظر في الأساطير. اعتدنا أن نتصور الحاجّ مشّاء وحيدًا، حاملًا عصاه في اليد، مرتديًا جلبابًا كهنوتيًا بسيطًا. يجابه هبوب العاصفة، وهطول المطر الغزير. ومع حلول الليل، يطرق باب الأديرة، وهي بوابات ضخمة ينيرها الوهج المفاجئ للضوء والصخور الضخمة. في الواقع، يُقام الحجّ، لأسباب أمنية، في مجموعات صغيرة، وغالبًا على ظهور الخيل، وخاصة عندما كانت المسافات هائلة. لكن هذا لم يمنع من المشي على الأقدام، عندما يصبح المقصد مرئيًا، سواء ظهر رأس الكنيسة المدبب أو ظلال برج الكاتدرائية. كان من الضروري إنهاء الرحلة مشيًا على الأقدام. تتضمن الحاجة إلى إنهاء السير مشيًا على الأقدام العديد من الدروس. إنه أولًا تذكير بالفقر المسيحي. التواضع: من يمشي هو فقيرٌ بين الفقراء، لأن الفقير لا يملك ثروة سوى جسده. المشّاء هو ابن الأرض. كل خطوة هي اعتراف بالجاذبية، كل خطوة تشهد على التعلق وهي تدق على الأرض التي تشبه قبره النهائي الموعود، غير أن المشي مسيرةٌ مؤلمةٌ كذلك، فهي تتطلب جهدًا متكررًا. يقترب الحاجّ من المكان المقدس فقط من أجل التطهير من المعاناة، لكن المشي يتطلب جهدًا متكررًا.

***

الطرق الكبرى بالنسبة إلى المسيحيين هي أولًا طريق روما أو طريق بيت المقدس. كان بيت المقدس، منذ القرن الثالث، بالنسبة إلى المسيحيين، الحجّ المطلق بوصفه أهم إنجاز في الوجود: يعدّ دوس التربة ذاتها حتى إن سار عليها من قبل (يُعبد في المكان الذي توجد قدمٌ له كما يقول المزمور (in loco ubi steterunt pedes ejus)[1] أن تعيد مسار المحنة نفسه، وأن تكون مأخوذًا بالمنظر عينه، بحيث تقترب من خشب الصليب، وتقف بالقرب من الكهف حيث تحدَّث إلى حوارييه. لكن القلاقل السياسية والاجتماعية الكبيرة تجعل الطريق أكثر صعوبة. تقدم روما سريعًا وجهةً أكثر أمانًا. هناك حواريان رئيسيان مدفونان هناك (بطرس وبولس). وبذلك تصبح روما على الفور مقدسة: فهي السُرّة وقلب الكنيسة الكاثوليكية. إن القيام بالحجّ إلى روما (peregrinatio romana) يعني فعل الخضوع التام، إشادة كاملة بالانتساب إلى الكنيسة واعتراف بإتمام رسالتها التاريخية. منذ عام 1300، تحددت سنوات الغفران العظيم، التي يتحقق خلالها الذهاب إلى روما والقيام فيها بقطع مسار معين يتنقل فيه الحاجّ من مدفن مقدس إلى آخر (القديس بيير دي روما، القديس جان دي لاتران القديس بولس خارج الأسوار...) يمنح الحاجّ بعده مغفرة كاملة من خطاياه. إذًا فهو مكان شهادة، لكنه أيضًا مكان خلاص.

إن كومبوستيلا هي الوجهة الأخيرة الأخيرة. يقال عن القديس جاك إنه أحد ثلاثة أشخاص محببين عند المسيح، وهو أول شهداء الحواريين، وقد قُطع رأسه بأمر من الملك هيرودس، ثم حمله حواريوه على متن قارب، فتقطعت بهم السبل في نهاية المطاف على شواطئ غاليسيا. هناك، حمل بعنايةٍ في البر القبر الرخامي الثقيل، لكن سرعان ما نُسي هناك... حتى اليوم الشهير عندما رأى ناسكٌ يدعى بيلاجيوس في حلمه ملائكة يدلونه على الموقع الصحيح للقبر، وفي الوقت نفسه، كانت النجوم تشير في السماء بواسطة خيط رفيع إلى الاتجاه. وعلى إثر ذلك سيشيد ضريح ودير وأخيرًا كاتدرائية على القبر الذي تم اكتشافه، لتصبح زيارة القديس واحدة من أشهر رحلات الحجّ، حيث سيحتل مكانة رفيعةً إلى جانب روما وبيت المقدس.

لشرح التطور المذهل لهذه الوجهة التي ازدهرت في وقت متأخر، تُذكر

(1) المزمور المذكور هو 131، 7 «in loco ubi steterunt pedes ejus» الترجمة: «نحن نحب المكان حيث وضع قدميه».

سهولة المسالك كأحد الأسباب. بالطبع يتعلق الأمر بقديس أساسي، لكن قبره كان أسهل وصولًا (ممرات جبلية أكثر راحة بين مناطق هادئة) من قبري بطرس أو بولس (حتى لو بقيت المسافة، من الشمال، هي نفسها)، فهي في كل الأحوال أقرب إلى بيت المقدس. هناك أسباب أخرى، أكثر غموضًا وقوة، تُفسّر نجاح الحج إلى القديس جاك: هي إشعاع الطريق والحكاية. بالنسبة إلى روما وبيت المقدس، تحتوي كل مدينة في حد ذاتها على كثافةٍ صوفيةٍ لدرجة أن الطريق المؤدي إليها لا يمكن أن يكون أبدًا إلا سلسلة طويلة من اللامبالاة تقريبًا ومن الإشارات والتأملات. فإشعاع المكان ينسيك في خصوصيات المراحل التي تؤدي إليه. خاصةً أن في عين المكان، يستقر مسار جديد. في روما، نذهب من كنيسة القديس بطرس إلى القديس يوحنا لاتيران، ومن القديس بولس خارج الأسوار إلى القديس ماري ماجور، ومن القديس كروا المقدسي إلى القديس لورانس خارج الأسوار. نزور سراديب الموتى: ممرات طويلة تصطف فيها مقابر الشهداء الأوائل. بعد عبور أطول مسار مستقيم، يتحقّق في المدينة الخالدة المسار المقدس الحقيقي.

في بيت المقدس، أمرٌ آخر: إنها، بالنسبة إلى المسيحيين، مراحل الشغف التي يجب اجتيازها. فبعد استقبالهم في كنيسة الضريح المقدس (كنيسة القيامة)، يجب قطع طريق الصليب من جديد (طريق الآلام)؛ والصعود إلى شرق المدينة، حيث جبل الزيتون الذي كان شاهدًا على العذاب؛ والمشي في حدائق جثسيماني، حدائق الليلة الأخيرة؛ للوصول إلى العليّة، خلف الأسوار، فوق تلة صهيون، عند سفح الكنيسة التي ما تزال تُمثّل المكان الذي تنكّر فيه القديس بطرس للمسيح ثلاث مرات. علاوة على ذلك، يمكن للمرء الاستمرار في اتجاه بيت لحم، على بعد ساعتين مشيًا على الأقدام، وكذلك يمكنه الذهاب أبعد من ذلك بكثير شمالًا، للوصول إلى شواطئ بحيرة طبريا، حيث عاش المسيح صباه، ثم نجد في الناصرة مغارة البشارة. وهكذا كما هو الحال في روما كذلك في بيت المقدس، بمجرد الوصول يبدأ الحج الحقيقي للأماكن المقدسة.

توجد في القديس جاك، كاتدرائية واحدة فقط، تتألق بإشراق وحيدة، فريدة من نوعها كالشمس والميعاد. نراها من مونتجوا، فتجعل الحاجّ المنهك يصرخ سعادةً، وينزل فورًا إذا كان يمتطي حصانًا أو يخلع حذاءه إذا كان يمشي، يجب أن نكون أكثر تواضعًا لحظة الوصول عند القديس جاك، إنه الوصول إلى النهاية حتمًا. ألا يمكن أن يكون موقعه الجغرافي هو ما

ساهم أيضًا في سحر كومبوستيلا؟ التي تقع في أقصى غرب أوروبا (المشي، يكتب ثورو، يجب أن يكون نحو الغرب)، إلى حدود العالم (حيث تنتهي اليابسة ويمتد بعد ذلك بحر، لطالما بدا نهائيًا)؟ كان يجب التحلي برباطة جأش للتوجه نحو القديس جاك، بمعيّة حركة الشمس.

لا نتحدث عن الطريق إلى روما أو بيت المقدس كما نتحدث عن طرقات القديس جاك. ليست الكثافة الروحية للقبر قوية جدًا، وليست مشرقة لدرجة أن تمد بريقها على الطريق الطويل في الليل للوصول إليها. لكنها بالأحرى تضيئه أثناء الرجوع. كومبوستيلا ينهي الرحلة، لكنه لا يلغيها. ما جعل نجاح القديس جاك نجاحًا كبيرًا هو أنه طريقٌ مثلما أنه الوجهة المقصودة. تكمن العظمة الروحية لحج غاليسيا في القدسية التي صنعها الطريق وكذلك الضريح. الطريق، أو بالأحرى الطرقات. أي طريق يجب أن نسلك؟ وما نوع المغامرة؟ جاء اختراع كومبوستيلا من إنشاء مسارات محددة، مع مراحل معينة، ومن زيارات إجبارية: أربعة طرق رئيسية، وطرق ثانوية عديدة. عندما نغادر من فيزلاي، بعد أن نلجأ إلى قبر مريم المجدلية -ونذرف الدموع من أجل من غسلت قدمي المسيح- نذهب إلى غابة نوبلات، حيث قبر ليوناردو، «مُخلّص هؤلاء الذين يقبعون في الظلمات» نغادر من تور حيث يوجد جثمان مارتان، ونتوقف في أنجيلي حيث دفن الرأس الجليل (venerandum caput) للقديس يوحنا المعمدان، ثم في سانتيس حيث يمكننا الاحتشاد بالقرب من جثمان القديس يوتروبيوس، الذي قتل من قبل مائة وخمسين جلاد. ومن القديسة ماري دو بوي (عبر بودينسيس)، نذهب لتبجيل جثمان القديسة فوي، العذراء والشهيدة، في كونكيس؛ وانطلاقًا من قبر القديس جيل، سنزور جثمان القديس سيرنان في تولوز... وهكذا فإن **دليل الحاجّ إلى القديس جاك**، وهو كتابٌ يعود إلى القرن الثاني عشر موجود ضمن (**Codex calixtinus**) (كتاب القديس جاك)، يظهر لنا أكبر عدد من المسارات التي تقتفي أثر القديسين من قبر إلى آخر، جميعهم أصحاب معجزات، ومعالجين؛ من مدفن إلى مدفن، يشار إلى كل صانعي المعجزات. ويتضاعف تكرار الوجود المقدس بحسب الأمكنة المعمارية المقدسة: كانت الكنائس العظيمة المعيَّنة للحج تتشابه فيما بينها. إنها أخوات في الطريق إلى كومبوستيلا. وهكذا، كانت الطرق مليئة بالمقامات المقدّسة التي يُحيل بعضها إلى بعض، وأيضًا بالأديرة التي تقدم للحجاج الإقامة والغطاء في الليالي، والمأوى لاستضافة المنهكين، وأحيانًا تقدم لهم الموعظة والسلوى؛ ولكن أيضًا الطرق التي ربما كانت

سببًا في ملء فصول كتاب كبير لجوزيف بدير، مؤرخ الأدب في العصور الوسطى بحيث كتب لنا ما يلي: «في البدء كانت الطريق...» في البدء، كان يعنى بدء السرد، والرواية، والقصيدة الملحمية. في بداية أدبنا، نُلفي طرق الحج. كانت أطروحته أن أناشيد الفروسية[1] قد نشأت هناك، على نقع غبار طرقات كومبوستيلا. كان الحج رحلةً طويلة. نتوقف في الليل، فيروي بعضنا لبعض الصيغة الملحمية التي سمعناها في الليلة السابقة. كنا نشيع حلقات أخرى، ونضع ترنيمات مقدسة متجاورة، إلى أن نتمكن من صياغة قصيدة واحدة عظيمة تُثَبَّت بواسطة الكتابة بصفة نهائية. هنا تكمن معجزة كومبوستيلا: أن تُكمل معجزة القديس ميجور بواسطة (primus ex apostolis) -المسماة تراتيل المشي- بتراتيل على هامش الطريق.

(1) القصيدة الملحمية أوالملحمة البطولة. كتبت في العصور الوسطى، تسرد مناقب ومآثر شخصية بطولية تجسد فضائل نموذجية. كان الرواة المتجولون يلقونها أمام الناس في القرى والمدن وقد تصاحبها معزوفات موسيقى أو ألعابا بهلوانية. (المترجم)

بعث وحضور

في عمق أي رحلة حجّ، نجد جانبًا طوباويًا وآخر أسطوريًا: ونعني بهما أسطورة الإحياء وطوباوية الحضور. أعتقد أن القديس جاك يعدّ مثالًا جيدًا لفضائل الحجّ، كما أنه يُعتبر الشاهد الأول على تحوّل المسيح. يظلّ التحول الداخلي هو المثل الروحي الأعلى عند الحاجّ: يجب أن يعود وقد تحوّل تمامًا. وما زال هذا التحوّل يذكر في معجم التجديد، حيث غالبًا ما نجد مجرىً، ونبعًا، وجدولًا، ونهرًا بالقرب من الأماكن المقدسة، ذلك العنصر المطهّر حيث يُغطّس الناس كي يخرجوا مُطهرين تمامًا. يمكننا هنا أن نتذكّر حج الهندوس إلى منابع نهر الغانج.

وكمثال على طوباوية التجديد بواسطة المشي، يمكننا الاستشهاد بحج الكايلاش في التبت، وهو جبل فريد ورائع، تكسوه قبة من الجليد موضوعة فوق هضبةٍ ضخمة، تعدّ بالنسبة إلى الكثير من معتنقي الديانات الشرقية مكانًا مقدسًا ومركزًا للكون[1]. يمكن أن تبدأ الرحلة من السهول الكبرى في الهند. ويتعلّق الأمر حينئذ بقطع مئات ومئات من الكيلومترات عبر سلاسل جبال الهيمالايا، والتناوب على الممرات الباردة والوديان شديدة الحرارة. الطريق مرهق ويشمل جميع تجارب الجبال ومخاطرها: مسارات شديدة الانحدار وصخور حادّة. يخسر المرء شيئًا فشيئًا، على طول الطريق، هويته وذكرياته، ليصبح جسدًا يمشي بطريقة لا تنتهي.

وبعد المرور بين جبلين، يصل أخيرًا إلى وادي بويانغ حيث ينبثق فجأةً مشهدٌ آخر: صخور معدنية لامعة وشفافة. فوقها صخور داكنة تعلوها قمم ثلجية، تُجلّلها غابات من التنوب الأسود ويغشاها ضباب أبيض. لا توجد سوى معارضة بسيطة ونقية بين الأرض والسماء. منظرٌ طبيعيٌ لبداية العالم، صحراء رمادية وخضراء وبيج. يعبر الحاجّ، الذي أفرغ من تاريخه، هذه الشفافية القاحلة، لكنه يرى بالفعل، من بعيد، سلسلةً جديدةً من الجبال، منتظمة ومشرقة. لا يوجد شيء بعد ذلك، طريقٌ ملتويةٌ بين هذه البحيرات السوداء، وهذه التلال الذهبية، وهذه الأرض الرصاصية، هي بمثابة درس عن الظلمات. يجب على المرء أن يتجاوز

(1) لاما أناغاريكا جوفيندا، طريق الغيوم البيضاء. حج راهب بوذي في التبت، باريس، ألبان ميشيل، 1969.

ممرًا أخيرًا بين جبلين للوصول في النهاية إلى أرض الآلهة. يمنح الحاجّ الشجاعة من خلال منظر لا يُصدَّق لقبةٍ بيضاء تمتد إلى نهاية الأفق، امتدادٌ من الثلج كشمسٍ متجمدةٍ ساعة الغروب، بلا حراك: إنها قمة كايلاش التي تهيمن، وترشد، وتنادي. أخيرًا، نعبر معبر جولا، الذي يزيد عن خمسة آلاف متر، وهنا يضطرب شعورنا، مثل وميضٍ دائم، يتغلغل في الروح نتيجة الضخامة المفاجئة والنهائية. في الأسفل، تمتد بحيرة، ذات زرقة غامقة (Manasarovar). وأخيرًا يهبنا الكايلاش رؤية كتلته الضخمة، المريحة، والممتلئة. والهواء من النقاء لدرجة أن جميع الأشكال تبدو متألقة. الجبل المقدس هنا أمام المشّاء، يمثل سُرّة الأرض، ومحور العالم، والمركز المطلق. يواجه الحاجّ دوار هذه الرؤية العظيمة، يشعر في الوقت نفسه، بأنه منتصر ومهزوم. كل المناظر الطبيعية الفخمة قطعًا تصعقه وتخترقه بطاقة المنتصر التي استحوذ عليها مشيًا على الأقدام. في الوقت ذاته تجتاحه ردتا فعل: أن يطلق صرخة النصر وينهار باكيًا. صار الآن مهيمنًا على الجبل بنظراته، لكن هذه الرؤية تسحقه في الآن ذاته. يأتي الاضطراب المذهل الذي يهز المشّاء من ردة فعله المتناقضة. ولكن أيضًا، بالنسبة إلى الحاجّ كايلاش، فإن عملية التجرد من شخصيته التي تستمر لعدة أشهر قد أفسحت المجال لفراغ، ها هو يملأ فجأة: إنه هنا، إنه موجود فعلًا، ها هنا أمامي! فيهتاج هذا الشعور بسبب وجود الآلاف من التلال الصغيرة في كل مكان (ثلاثة أو أربعة أو خمسة أحجار تشكل هرمًا صغيرًا)، هي شواهد الآلاف من الحجاج الذين عانوا مثله من الإرهاق والافتتان. إن انطباع الحضور الذي ينبثق من هذه القرابين الحجرية التي لا تُعد ولا تُحصى، مثل زهورٍ أبدية على الأرض، مشكلة هذا المنظر الهائل: تُسفر عما يشبه الارتجاج، لأن كل شيءٍ يبدو وكأنه إشارة إلهية، وكأن الحاجّ وجد نفسه محاطًا بأشباح.

ما زال يتعيّن عليه القيام بجولةٍ حول الجبل المقدس، التي قد تستغرق عدة أيام: الطقوس الشرقية تفرض قطعًا المشي والدعاء والدوران في مكان مقدس (الطواف)، والكايلاش يشبه معبدًا طبيعيًا، ونصبًا مقدسًا نحتته الآلهة في الجليد. ولكن قبل كل شيء، فإن الحاجَّ ينتظرُه الاختبار النهائي: إنه ممر دولما، الممتد على ارتفاع 5800 متر، لينزل بعد ذلك إلى الوديان. وبمجرد أن يصل إلى هذه المرتفعات الوحشية الجليدية، يتوقف الحاجّ، ويتمدّد فوق الحجارة كأنه رجل ميت، متذكرًا كل الذين لم يعرف كيف يحبهم، فيصلي من أجلهم، ويتصالح مع ماضيه قبل أن يتركه نهائيًا. ثم

يذهب إلى بحيرة الرحمة (غوري كوند، ذات اللون الزمردي) ليغتسل من هويته، وتاريخه. إنها نهاية الدورة. ومع ذلك، لا يولد الحاجّ من جديد من أجل نفسه، ولكن للانفصال عنها، ومن أجل اللامبالاة بالوقت، والرحمة الكونية.

الحجّ يحمل أيضًا يوتوبيا انبعاث كوني، وينطبق هذا بشكل خاص على المسيرة العظيمة من أجل صبار البيوت[1] ينجزها شعب هويتشول في المكسيك. يسافر هذا الحشد، الذي يعيش في المناطق الجبلية في سيبرا مادري المعزولة تمامًا، يمشون في مجموعات صغيرة، كل عام (مع شهر أكتوبر، بعد حصاد الذرة) أكثر من أربعمائة كيلومتر في مساراتٍ حجريةٍ ومساراتٍ ترابيةٍ إلى صحراء سان لويس بوتوسي حيث ينمو صبار البيوت، وهو صبار صغير بدون أشواك يُجمع من أجل فضيلته الطبية وقدراته المهلوسة. يحصدونه في سلال كبيرة مصنوعة من السوخر[2] ثم يعودون إلى ديارهم وهم يغنّون.

تُهيأ هذه الطريق الطويلة بعناية في القرية بواسطة مجموعة من القرابين والطقوس، مثل صيد الأيل الذي سوف تدهن بدمه القرابين الرئيسية الموجهة إلى الآلهة العظيمة التي سيلتقون بها على طول الطريق. سيكون لكل مشاركٍ اسم شعائري خلال الرحلة، وسيكون له مكانٌ محددٌ بدقة بحسب نظام المسيرة، أو يجسد إلهًا أو وظيفة، ويلزم نفسه بصيامٍ جدّي، ولا يشرب إلا في لحظات معينة، ويمتنع عن تلبية رغباته الجنسية منعًا صارمًا، وفي اليوم الخامس من الرحلة يُقدم على اعترافٍ علنيّ تام. ينبغي بخصوص هذا الحج، الوصول إلى ويريكوتا (Wirikota)، أرض الأجداد حيث ينمو صبّار البيوت. المراحل هي نفسها دائمًا، ثابتة من طرف التقاليد منذ بداية الزمن. أثناء الرحلة، يقوم مرشدهم الشامان -وهو يعرف كل القصص وكل صيغ الحماية والخلاص- بقراءة المشاهد الطبيعية المعروفة في الرحلة، وكأنه يقرأ صفحات كتاب كبير. وعند انعطاف مسار ما، يتوقف ويتقدم بطلبٍ متواضع، ثم يفتح المساحة الفارغة، ويكنسها باحتفالية، بواسطة ريش عصاه المقدسة: وهنا يمكنه عبور «باب الغيوم».

يشكّل كل بابٍ مدخلًا إلى مساحة جديدة مقدسة. كل ما يوجد على

---

(1) صبار وليَفز أو البيُوت: نبات مكسيكي صغير مقدس يزيل تناوله التعب والعطش، ويُدخل آكله في هلوسات عجيبة. (المترجم)

(2) نوع من أشجار الصفصاف.

طول الطريق، من معالم، وأشجار، وترتيب الصخور له تاريخ: فتتحول الحجارة المبعثرة على الأرض إلى حزمةٍ من السهام نسيها سلفٌ مذهول، وهناك مجموعة من الأهوار تمثل سُرّة منابع العالم (وهذه البركة الموحلة ليست سوى أثر تركه إله، ومنها ينبثق نبع). يجب التوقف طويلًا، لأداء طقوس الاغتسال، وتقديم القرابين، وغرس السهام النباتية المزينة بالريش على الضفاف. ثم نواصل الطريق، للوصول أخيرًا إلى جبل الشمس، بين منظر طبيعي من الجفاف التام.

بالقرب من الجبل تقف أرض الأجداد. تصبح وجوه الحجّاج جامدة: المكان مشبع بالخرافات والحضور المقدس. فجأة يقول زعيم الحملة إنه يرى أيلًا كبيرًا. التذكُّر الكلي. يحتشد الجميع ونقتفي أثر الزعيم إلى مكان الظهور، يوجه رأس السهم نحو الأرض، فيسقط قرنا الأيل غير المرئي؛ ويتجلى مكانهما صبار كبير. بهذا يتكرر تاريخ الإله نفسه، لأن صبار البيوت وُلد عندما وجّه إله الشمس سهمًا من الضوء إلى إله الأيل، فسقط قرناه على الأرض وصارا صبارًا نفيسًا. يبدأ حول صبار البيوت، الحجاج بالأدعية، وتقديم العديد من القرابين، متضرعين إليه كي يمنحهم قوته وسحره. عندها فقط يقوم الشامان باقتلاع البيوت، ويُعطي قطعةً لكل حاجّ ليأكلها، وهو يقرأ الصيغة: «أنت الذي جئت للبحث عن الحياة، هذه هي الحياة!» سيقضي الحجّاج ثلاثة أيام في ويريكوتا (Wirikota)، حيث سيلتقطون النبات المقدس، ويملؤون سلال الصفصاف، وفي وقت متأخر من الليل، يأكلون منه قليلًا (بعد ذلك تفتسر أحلام الجميع بعناية وتُحدّد الحياة والتنظيم الاجتماعي للعام القادم). بعد ذلك يعودون أدراجهم ومن العودة مشيًا على الأقدام مرة أخرى سيحتاجون إلى قطع مسافة أربعمائة كيلومتر.

إذا أنجز الويتشول[1] هذه الرحلة، فلا ريب أنها من أجل اقتطاف الصبار الذي يستخدمه الهنود علاجًا كونيًا، ومنبهًا، ولكن أيضًا من أجل المحافظة على العالم. صبار البيوت يمثل إله النار؛ إنه يمثل، مع الذرة والأيل، الثالوث المقدس. تريد الأساطير أن تكون الحملة الأولى من طرف إله بدائي (الذي انتصر على الظلام والموت) من أجل فرض التناوب بين موسم الجفاف وموسم الأمطار، وتوازن قوى النار والماء. تعتمد الحياة على هذه المشاركة:

(1) ويتشول قبيلة هندية تعيش في المكسيك، تسكن المناطق الجبلية شرق نهر تشابالاغانا، يطلق عليهم المعالجون.

الذرة تحتاج إلى الماء والشمس. ويضمن تكرار هذه الحملة الأصلية التوازن الكوني، لضمان استقرار الكون. يجب أن نمشي لكي نحافظ على العالم. الأسطورة تعني ولادة جديدة شخصية وكونية.

يفرض الحجّ أيضًا يوتوبيا الحضور. وقد أشرنا إلى أهمية الأضرحة كوجهةٍ مميزة للحج. يتعلّق الأمر عند الدخول إلى الضريح، أن يكون الحاجّ حاضرًا بشكل مباشر: حاضرًا في جسد القديس الذي يوجد هناك، وتحت عباءة الرخام، مشعًا بقوته التي تشحن الحجر نفسه، حاضرًا فوق التل المستلقي فوق ظل المخلّص الذي يُحافظ على صداه الأبدي. لم يعد رمزًا أو صورة أو تمثيلًا: لأنه حاضر هناك. ولكن يجب بلوغ المراد عن طريق المشي: المشي بحد ذاته، وما دام يستغرق وقتًا، فإنه يثبت الوجود. عندما نكون عند سفح أحد الجبال، ونقترب منه من بعيد، فليست العين فقط هي التي ترى الصورة: وإنما الجسد بكل ما فيه من لحم وعضلات، وقد تغذى عليها منذ مدة طويلة. إن الصورة ليست سوى عرض. أخرج من وسيلة نقل وها أنا أمام النصب أو الكنيسة أو المعبد: أراه، أتمعن في تفاصيله، لكنها مجرد صور. ألتقط معرفة سريعة وصورة فوتوغرافية دقيقة: صورة عن صورة. الحضور هو ما يستغرق وقتًا: يجب أن نرى من بعيد، من تل أفالون الأخير، فجأة تتجلّى مادلين دي فيزيلاي، ثم نقترب ببطء، ونرى كيف يغيّرها الضوء المرسل ببطء، يجب أن تضيعها ثم تجدها، وتتنبأ بها -لكنك أثناء المشي تعلم أنها هناك وأنها آخذة في جذبنا. عندما يتحرر الحاجّ من حقيبته في النهاية، ويصبح بإمكانه أن يتوقف لأنه وصل، فإنه يصعب عليه أن يدرك بعينيه المحسوستين هذه الرؤية الممتلكة: لأن جسمه مترع كله حتى أخمص قدميه.

حينئذ يُغيّر اليوم كله مظهره. إن الوصول مشيًا على الأقدام إلى هذا المكان الذي كنّا نحلم به طوال اليوم، والذي كنا نتخيّل شكله منذ فترة طويلة، نراه بالمقابل يضيء أمامنا. وما أنجزناه بكدٍّ واجتهاد، وملل في بعض الأحيان، مقابل هذا الحضور القوي للغاية الذي يسوّغ ما قمنا به، ساعتها يصبح المشي سلسلة من اللحظات الضرورية والفرحة. المشي يجعل الزمن قابلًا للعودة من حيث انطلق.

نهج الفلسفة الكلبية

هل كان الحكيم اليوناني مشاءً جيّدًا؟ يحلو للأسطورة أن تجعله كذلك، فهي تُصوّره واقفًا بالضرورة، متجولًا بين التلاميذ، يمشي من طرفٍ إلى آخر على امتداد سلسلة من الأعمدة أو في ممشى بين الأشجار، يتوقف قليلًا، ثم يعود على أعقابه، وينطلق في الاتجاه الآخر، يمشي تلاميذه وراءه مهرولين دائمًا. هكذا رسم رافائيل في رسوماته الشهيرة (مدرسة أثينا) صورة الفلاسفة القدماء: واقفين بثقةٍ وتصميم. لم يكن سقراط، كما نعلم، يستقر في مكانه. كان دائم الحركة يسير بخطى حثيثة في الساحة، خاصة خلال أيام السوق عندما يكون الازدحام على أشده. ومن بعيد نسمعه يطرح أسئلته. لم يكن المشي ما يحب فعله وإنما الذهاب للقاء الناس في الساحات العمومية أو حول الملاعب.

يذكر (زينوفون/كسينوفون) في مذكراته أن «سقراط عاش دائمًا في وضح النهار. في الصباح يذهب إلى الصالات الرياضية. في أيام السوق، يكون هناك، يقضي سحابات نهاره في المكان حيث من المرجح جدًا أن يجد فيه الكثير من الناس، ليتحدث إليهم دون توقف ويتساءل باستمرار» (I، 1، 10). ومع ذلك، لم يكن سقراط مشاءً كبيرًا. نراه في محاورة فايدروس، غير مبالٍ بالمشي، مضطربًا في الريف: لا تتجاوب معه الطبيعة بما يكفي.

هناك إشارة موجزة للغاية، عند ديوجانس اللايرتي (الكلبي)، تشير إلى أن أفلاطون ربما كان يُعلّم تلاميذه وهو يمشي (III، 27). ولابد أن أرسطو قد اكتسب من هذه الممارسة لقبه الشهير (المشّاء / peripatetikos، V، 2) ما لم يكن ذلك بسبب الفضاء التعليمي فقط، الذي كان يطلق عليه الاسم ذاته: لأنه أنشأ مدرسته (اللوقيون) بعدما استولى على صالة رياضية قديمة، على جنبات الإليسوس، الذي كان يتوافر فيه رواق (peripatos) حيث يمكن «المشي»[1] فيه، وكذلك في اليونانية تعني كلمة (Peripatein) «التحدث»، و«الحوار أثناء المشي». يخبرنا ديوجانس اللايرتي (الكلبي) أن أرسطو كانت رجلاه نحيلتين وكان يجلس حالما يصبح عدد تلاميذه كبيرًا.

(1) تعني المشي أو التنزه (المترجم)

لم يعُد التعليم عند الرواقيين يتم بواسطة المشي، ولكن كما في مدرسة إبيكتيتوس[1]، يُخاطب المعلم جمهورًا يجب أن يتخيّله بلا حراك، وهو يسأله. أما بالنسبة إلى الأبيقوريين، الذين لا يحبون كثيرًا الصخب أو الحركة، فيجب تصورهم وهم يختفون داخل الحدائق، يدردشون بهدوء تحت ظلال الأشجار الكبيرة.

كان الحكماء اليونانيون الوحيدون الذين يمشون حقًّا هم الكلبيين[2]. الذين كانوا يهيمون على وجوههم، متجولين، متسكعين في الشوارع دائمًا. مثل الكلاب. دائمًا يتسكعون على قارعة الطريق، من مدينة إلى مدينة، من ساحة عامة إلى أخرى.

نعرفهم أيضًا من خلال مظهرهم الجسدي. فهم يمسكون في أيديهم عِصيًا جيدة، وعلى أكتافهم قطعة من القماش السميك، يستخدمونها غطاءً ومعطفًا وواقيًا في الآن نفسه، ويحملون على جنبهم حقيبة تحتوي على أشياء زهيدة[3] إنهم يمشون كثيرا وبالكاد يحتاجون إلى ارتداء أحذيتهم: كان باطن أقدامهم عبارة عن نعال جلدية، وقد يرتدون صنادل. يشبهون حجاج العصور الوسطى، ولكن أكثر من ذلك، فهم يشبهون دعاة طلب التسول. ولكنهم لا يمشون من أجل التبشير، ولكن من أجل الاستفزاز، وإثارة القلق. إنهم يمارسون فنّ الصراخ وليس الوعظ. إنهم يشتمون، ويصدمون، ويهاجِمون لفظيًا.

وبعد مظهرهم، تكون اللغة ما يميزهم. إلى جانب ذلك، كانوا بالكاد يتحدثون: إنهم ينبحون. كلامهم فظ، وعدواني. بمجرد وصولهم إلى الساحة العامة، بعد قضاء عدة أيام من المشي، يُسمع صراخهم في وجه اللفيف الغفير، المحتشد والمتكدس، والمزدحم حولهم، وكل ذلك من أجل التفرج بفرحة على هؤلاء المهووسين الغاضبين، الذين لم يكونوا يثيرون الخوف أيضًا. لأن كل واحد منهم ينخرط ويشكك في عاداته وسلوكه وقناعاته. هذه ليست براهين علمية كبيرة أو أطروحات أخلاقية. الكلبي ينبح: نباحًا قصيرًا، لكِنه مصرّ على ذلك، وبالأحرى يعبّر عن نوعٍ من التحدي، والسخرية اللاذعة التي تتحوّل إلى تهريج، مما يؤدي إلى ظهور اللعنات المتبادلة.

---

(1) إبيكتيتوس من أهم فلاسفة المدرسة الرواقية، وُلد عبدًا ومات حرًا بفضل الفلسفة.

(2) أي مصطلح «الكلبي» من كلمة «كونوس» اليونانية، التي تعني الكلب. كما تحدد الشخصية التي تعيش حياة قاسية جدًا بعيدًا عن قيم العالم ونفاقه.

(3) ديوجانس اللايرثي، حياة ومذاهب VI، 22-23.

كل التنازلات والمواضعات الاجتماعية تجد نفسها معهم وقد سخر منها ومرغّت في الوحل: الزواج، واحترام التراتبية الاجتماعية، والجشع، والأنانية، والسعي إلى الحصول على الاعتراف، والمواقف المخجلة، والعادات، والرذائل، والضراوة. منذ بداية حالة الترحال كل شيء يلقى المصير نفسه، كل شيء يُشجب، ويُستنكر ويُتهم ويُسخر منه.

ترتبط الفلسفة الكلبية بحالة المشّاء بعيدًا عن مظاهر التيه، ولكن وفق أبعاد الخبرة الكامنة في هذه التحولات العظيمة التي تصبح مدمرةً بمجرد إحضارها إلى المدينة.

***

لما لحياة الكلبي الساخر من خشونة وفظاظة، فإنه يقدم تجربة أولى: تجربة العناصر الأولية. ويجدر القول إنه يواجه العناصر بكل قوتها، وضراوتها: الرياح المتجمدة، الأمطار الغزيرة، الشمس الحارقة. من خلال المشي، يعرض نفسه هناك في العراء، كاشفًا عوزه: بلا مأوى ولا ملكية تذكر. ولكن بواسطة ذلك، يجد حقيقة لهذه الحالة البدائية. العنصر الضروري هو حقيقة ما يمتلك، ويقاوم، لا يرتبط بأي ظرف من الظروف. العنصر الأولي كما هو حقيقي ومتوحش، ومشارك في طاقة العناصر واستقصاءاتها.

يحلو للفيلسوف الذي يمكن أن نسميه فيلسوفًا «مكتبيًا» أن يقابل المظهر والجوهر، والشكل بالمحتوى. وراء ستار المشهد الحسّاس، وراء حجاب الرؤية، يريد أن يميز الجوهري والخالص، ويسعى إلى إشعاع فكره أبعد من ألوان العالم، وأقصى من الأبد الشفاف، ليصبح الحس كذبًا وشتاتًا متحركًا للمظاهر، ويغدو الجسد شاشة، فتتجمع الحقيقة الخالصة في الروح والفكر والذهن.

يحطم الكلبي لعبة هذه المعارضة الكلاسيكية. إنه لا يسعى إلى البحث، ولا يريد إعادة بناء الحقيقة الماثلة فيما وراء المظاهر. سوف يطاردها في تطرفها الجوهري: يتعقب ما تحت صور العالم، ويبحث عما يدعمها. العنصر الضروري: يعني ألا وجود لحقيقة سوى الشمس والرياح والأرض والسماء. ما يمتلكه من حقيقة هو نشاطها الفريد. لأن المحسوس الذي يمر منه الفيلسوف الثابت، للعثور على ملجأ داخل المفهوم الأبدي،

مازال معقدًا ومتنوعًا. كل شيء يكون فيه مختلطًا: المنازل والغابات والمآثر والخلجان. لم يكن من الضروري تجاوز المظاهر بهذه السرعة، ولكن الزهد الأصيل هو الغوص في الأشياء، والحفر بعمق في الحسيّ إلى أن نعثُر على الطاقة الضرورية المطلقة، والوصول إلى النقطة التي تقاوم.

ولكن إذا كان هذا الاكتشاف يجعل الكلبي يسعى إلى الركض (فهو ليس ناسكًا يعيش بمفرده من وجود الكينونة)، بل إنه سياسي: يجب العمل على تفجير سخرية المواقف العظيمة للفيلسوف، فنُلفيه عاكفًا، منطويًا على ثرواته الداخلية، يُفجّر فقر حقائقه الجوهرية، وسطحية دروسه وكتبه. بيد أن الحقيقة تكمن في عناصر الطبيعة التي تضطرم بقوتها البرية: الرياح التي تضرب البشرة، والشمس الساطعة، والعواصف الرعدية المذهلة. تحويلها إلى تجربة، هذا يعني في الوقت نفسه، الإمساك بطاقة سحيقة تبعث السخرية من ابتسامة الحكيم المهيبة.

***

التجربة الثانية، التي تثيرها وضعية الهائم على وجهه، هي تجربة أكل اللحم النيّئ. العديد من كتاب تلك المرحلة يتحدثون عن فضيحة الكلبيين، بحيث يتهمونهم بتناول اللحوم النيئة. ألم يمت ديوجين وهو يحاول أن يأكل أخطبوطًا حيًا؟[1] لكن ليس طعامهم هو النيّئ وحده: بل حتى لغتهم، وتصرفاتهم كانت نيّئة أيضًا.

لكن هذه النيوءة، والخشونة في سلوكهم وحالتهم، هي مرة أخرى بمنزلة آلة حربية ضد تقابلٍ كلاسيكيٍ آخر. ذلك أنه يحلو للفيلسوف الجالس المقيم أن يميز بين الطبيعي والاصطناعي. ما يطلق عليه الفلاسفة المقيمون الطبيعةَ هو ترتيب كل شيء في جوهره، وتزامن وجود الكائن مع ماهيته. ويمكن لهذه الهوية الشفافة مع الذات أن تُشوَّش بواسطة المصطنع: الخطب المصطنعة، والأجهزة الاجتماعية، والقوانين السياسية. حينئذ سيكون من الضروري، في كل مرة، أن تجد، وراء ما يُقدم لك، الحقيقة الساكنة لكل شيء.

مادام الكلبي قد حادَ بالضروري نحو العنصر الطبيعي الأولي، فإنه خلخل الطبيعة. فالطبيعة عنده، هي النيّئ، والنيّئ هو الطبيعة القريبة

(1) نفسه VI، 74.

من الحاجة الأساسية. إنها الطبيعة، ولكنها ليست الطبيعة التي تم الحلم بها، ليست يوتوبيا مقام الحقائق الساكنة. إن النيّئ هو الطبيعة غير المتحضرة والمتوحشة، الطبيعة المبكرة، البذيئة، والفاضحة، والوقحة، الطبيعة اللاإنسانية. حينما يعمل الجسم دون مراعاة التعاقدات والقواعد. وبذلك فإن النيّئ عري تام. ويندرج التغوط أو العادة السرية ضمن النيئ أيضًا[1]. يرتبط الأكل بالمعدة، ولا شيء أكثر من ذلك: يتمثل في عمليتي الملء والتفريغ. لا يفتعل الكلب على طريقةٍ للنوم ولا لإرضاء النفس: وإنما يقضي حوائجه من غير تصنع. في أحد الأيام عندما كان يتجول ديوجين حول مأدبة، وبينما كان يصرخ ويهاجم هذه المجموعة من البلهاء، ألقوا له عَظْمَةً ما زالت مكسوة باللحم، كما لو أنه كلب هرع ديوجين، والتقطها، فأخذ يلتهمها بشراهة، بعد ذلك عاد، ووقف فوق الطاولة، وأخذ يتبول على أصحاب المأدبة. «أيها السادة، أنا آكل مثلكم، وأتبول مثلكم»[2].

هذا لا يعني أن الكلبي بدون أخلاق. لكنه يستخدم التأكيد البسيط لجسده، المترع بوظائفه البيولوجية، لإدانة كل ما يتباهى به الرجال من التعليم الجيد والقيم المعروفة والنفاق عندما يتحدثون عن الطبيعة، لأنها أصبحت، مع الحكماء القابعين في أمكنتهم، بمنزلة حقيبة دبلوماسية للتعاقدات الاجتماعية، والمخططات الثقافية: كل شيء يُمرر بسلاسة. لكن النيّئ ثوري بطبعه.

***

ثالثًا، من الواضح أن الكلبي يعيش في الخلاء. وبطبيعة الحال، سيكون له في بعض الأحيان، برميلٌ للّقاء[3]. ولكن في النهاية، فهو بلا مسكن، ينام في الحفر، أو مستندًا إلى الأسوار، أو متدثرًا تحت معطفه. يتعرض باستمرار -وليس فقط، كما رأينا سلفًا- لقوى طبيعية كبيرة، ولكنه مكشوف أيضًا أمام من يراه. يأكل في الخلاء[4]، ويمرح بحبٍّ في الهواء الطلق، كما كان يفعل كراتيس وهيبارتشيا[5].

(1) ديون كريسوستوم، ديوجين أو الفضيلة (الخطاب الثامن).

(2) نفسه VI، 46.

(3) نفسه VI، 23.

(4) نفسه VI، 58.

(5) نفسه VI، 96.

يخلخل خلاء الكلبيين استقرار التقابل التقليدي بين الخصوصي والعمومي. هذا تقبل يصلح للمقيمين وليس للرحل: يتعلق الأمر هنا بالاختيار بين دائرتين مغلقتين، محصنتين من الخارج الشاسع. دائرة الخاص وهو كل ما يندرج ضمن حميمية العواطف العائلية، وأسرار الرغبة، وحماية الجدران والممتلكات. ودائرة العام وينحصر في الطموح والسمعة، والتهافت على الاعتراف، والفوز بتقدير الآخرين، أي كل ما يشكل الهويات الاجتماعية.

لكن الكلبي يجسّد الخلاء نفسه، إنه موجود خارجًا. وانطلاقًا من هذا المكان الآخر، هذا المظهر الخارجي لعالم البشر، يمكن أن يخلط بين الدناءة الخاصة والنقيصة العامة، لأنه انطلاقًا من هذا الخلاء يمكنه أن يصرخ، ويسخر ويقلب الخصوصي والعمومي رأسًا على عقب، مثل الكثير من الترتيبات الإنسانية الصغيرة.

***

إن البعد الأخير للمسافر الكلبي يتمثّل في مفهومه للضروري. لا يفرض الضروري نفسه كقدرية، ولكنه يُكتشف، ويُكشف، ويُنتزع. هنا أيضًا، يتعلق الأمر بمسألة تخريب نظام التقابلات التقليدية: بين النافع والتافه. يعتقد الفيلسوف، العاكف على طاولة الكتابة، أنه فكّر كثيرًا، عندما قال إن السرير نافع، ولكن من التافه أن يطالب المرء بسريرٍ مغطى بمظلة، أو أنه من النافع أن نشرب من كأس، وليس من النافع أن نطالب بكأس ذهبية ليشفي المرء غليله. هذه التمييزات بالنسبة إلى الكلبي بلا قيمة، لأنها لا تصل إلى حدود اختبار الضروري.

في أحد الأيام رأى ديوجين، عند النافورة، طفلًا يشرب بواسطة راحة كفيه، فتوقف الكلبي بلا حراك مذهولًا، وأعلن: وجدتُ يا ديوجين من هو أقوى منك[1]. حينئذ أخرج من جرابه الهزيل كوبًا من خشب ورماه بعيدًا، وهو يبتسم ابتسامة المنتصر. كان سعيدًا لأنه اكتشف شيئًا سيتخلى عنه.

هذا هو الضروري: إنه استكشافٌ للتقشف. ولا يتعلق الأمر، كما يدعي الفلاسفة الملتصقون بكراسيهم، بضرورة معرفة كيف نفصل أنفسنا عن كل الثروات عديمة الفائدة التي تعيقنا، ولكن أن ننقّب قليلًا تحت كل ما

(1) نفسه VI، 37.

هو مفيد، لنبلغ الضروري. إنه أكثر من مجرد زهد في الطعام: كن قانعًا بالقليل، وكن حذرًا. المهمة هنا أكثر قسوة وصعوبة وتشددًا: وهي أن تقبل فقط، بما هو أساسي. نحن أمام مسألة أبعد من الاستسلام. يُفضي هذا التجاوز إلى تأكيد سيادة مطلقة. لأن هذا الضروري، الذي انتزع من وراء النافع، يقلب معنى العوز.

***

لأن المشاء ملك[1] يصبح التراب مجاله. وبمجرد امتلاكه الضروري، فهو لن ينقصه أبدًا، لأنه في كل مكان وفي متناول الجميع، كما أنه ليس ملكًا لأحد. ومن هنا الارتداد الأخير، من الفقر إلى الغنى.

فضلًا عن ذلك -وهذا أمر سبق إليه أبيقور- الثري هو من لا يعوزه شيء. وبالطبع لا ينقص الكلبي شيء، لأنه وجد المتعة فيما هو ضروري: الأرض ليريح جسده، والمأكل متوافر على جنبات الطريق، والسقف سماء مرصعة بالنجوم، وهناك منابع الماء. بعيدًا كل البعد عن النافع والتافه، يُظهر الضروري فجأة الأشياء الثقافية على أنها مكمّلات، مُستَلِبة، ومُنهِكة، ومُفقِرة.

يقول الكلبي، أنا أكثر ثراء من أي مالكٍ كبير، لأن الأرض هي ملكي. أملاكي لا حدود لها. منزلي أكبر من أي منزل آخر، أو بالأحرى يوفّر كل ما أريده: ما دامت الزوايا موجودة بين الصخور أو التجويفات بين التلال. أملك الكثير من الطعام والمشروبات الروحية أكثر من أي شخص آخر، وأرتوي من مياه النافورات.

لا يعترف الكلبي بالحدود الجغرافية أيضًا، لأن مسكنه يوجد حيث يستطيع المشي. إنه مُواطن العالم، ليس لأنني لا أملك شيئًا لأخسره، يمكنني أن أفوز أخيرًا بكل شيء، لكن لأن هذا العنصر الأساسي، وهذا الضروري، وهذا العالم الغابوي، وهذا الخلاء، كل هذه الأشياء توجد بوفرةٍ غير محدودة. إنها ليست كوزموبوليتية مثالية، خطة للمستقبل، وفكرة منتظمة، وتخيّل لعالم معين، ووعد منشود. ولكن في الاستئصال يتحقق كل ذلك حتمًا. لا يتمسك الكلبي بأي شيء، لأنه لا يرتبط بأي شيء. يعيش بحرّية مطلقة، يستعرض صحته المستفزة وسيادته غير المتكافئة

(1) ديون كريسوستوم، حول الملكية (الخطاب الرابع).

ومشاركته اللامحدودة. ومن أين أتيت أنت، لكي تقدم الدروس؟ أنا مواطن العالم، وأنا من هذا الخلاء أكلمكم.

انظروا إليّ أنا لا أملك مسكنًا، ولا وطنًا، ولا أملك ثروة، ولا خدمًا وحشمًا. أنام على التراب. ولست مقترنًا بامرأة وليس عندي أطفال، ولا منزل شاسع، ولكنني أملك الأرض، والسماء ومعطفًا قديمًا فقط. ما الذي ينقصني إذًا؟ ألستُ بلا حزنٍ وخوف، ألست حرًا في نهاية الأمر؟[1]

(1) إبكتوتوس، محاورات، III، 22، 47-48 «صورة الكلبي».

حالات العيش الجيّد

اليوم، أصبح كل شيء متساويًا: الفرح واللذة والسكينة والسعادة... اهتمت الحكمة القديمة اهتمامًا كبيرًا بالفصل بين حالات العيش الجيد. كانت هذه القسمة أكثر أهمية لأن بواسطتها تمايزت مدارس الفلسفة عن بعضها. وإذا كان الجميع قد اتفق على تأكيد أن الحكمة يجب أن تسمح لكل شخص بأن يعثر على ما يجعل وجوده كينونةً متفتّحة، وإذا كان الكل يُجمع على تعريف هذه الحالة -نهاية الوجود، وهو موضوع بحث ضخم- فإن الطوائف قامت بتأسيس اختلافاتها. ومنها القرنانيون[1]، والأبيقوريون، الشكّيون، الأفلاطونيون... كان كل واحد من حكماء هذه الطوائف يقدم صيغة امتلاءٍ من الفرح والسعادة والصفاء يتميّز عن غيره.

بَيْد أن تجربة المشي لم تكن طائفية. فقد فَتحت، من وقت لآخر، المجالَ لجميع هذه الاحتمالات، مما أتاح الفرصة لتجربة كل هذه الحالات، بدرجات متفاوتة، وفي مناسبات مختلفة. إنها مقدمة عملية للحكمة القديمة العظيمة كلها.

لنعتبر اللذة في البداية. اللذة مسألة لقاء يمنح إمكانية الشعور بالرضا من لقاء جسم، أو عنصر، أو مادة. فيما يخص اللذة، لا يتعلق الأمر إلا بهذا: المشاعر السائغة، والعذبة، والغريبة، وما يستكشف بتنعّم لأول مرة، وما هو مجهول بعيد... نجد أن الشعور يُحرّض دائمًا بواسطة لقاء ما، مما يؤكد، أن الخارج، يؤكد الاحتمالات التي تنطوي عليها أجسادنا. كما أن اللذة تكمن في مصادفة موضوع جيد: ذلك الموضوع الذي يفتحك على إمكانية للإحساس.

إن الخاصية البغيضة للذة، التي غالبًا ما يُنتبه إليها، هي أن التكرار يقلل من شدتها. لأن الشيء الجيد الذي أفعمَ وجداني، أستمتعُ به بسرورٍ متجددٍ للمرة الثانية، وربما بكيفية أقوى لأنني أستعد لذلك، واضعًا نفسي في حالة تأهبٍ دائم، تُمكنني من تقدير قيمته مراعيًا ألا أفقد أي بُعدٍ منه، لكي أستلذ بما يزخر به، مرة ثالثة ورابعة. إن الأتلام مرسومة،

---

(1) القرنانيون: نسبة إلى مدينة (قورينا) التي أسسها الإغريق في ليبيا حوالي عام 630 قبل الميلاد. الآن تسمى برقة. (المترجم)

وهذا يصبح معلومًا، ومعترفًا به. إنه الشيء نفسه، الفاكهة ذاتها، النبيذ عينه، التواصل ذاته، بيد أنه وجد مكانه محفوزًا في جسدي: لم يعد يحفر من أجل العبور. لأن هذه الكثافة عينها ما يُبحث عنه في اللذة بهذه اللحظة التي تصبح فيها قدرات الإحساس، جيّاشة ومستيقظة، ومضطرمة، ومنخرطة في لحظة التكرار، التي يغدو بواسطتها كل شيء مسطحًا: كالطعام البائت المسخن، والكلام المكرر بلا فائدة، الشيء نفسه دائمًا. ومن هنا تحضر استراتيجية مزدوجة بين التنوع أو الكمية. إما أن نغير الأنماط، ونجد تنوعًا مختلفًا، وننتقل من أنواع إلى أخرى، وإما زيادة الجرعات. قد تعمل هذه الاستراتيجيات قليلًا، لا سيما عند تنفيذها لأول مرة: نعثر على جزء من الكثافة المفقودة. لكن التأثيرات متوقعة، ومأمولة، ومُتعقَّبة كثيرا: هذا التوقع المتركز للذة هو ما يقتلها.

خلال المشي، نعثر على لحظات المتعة الخالصة، وعلى هامش اللقاءات نحظى بنكهة التوت أو عنب الأحراج، وحلاوة شمس الصيف، ونضارة مجرى مائي، لم يسبق لنا أن رأيناه. يسمح المشي بأن نشعر بمثل هذه التوهجات الرائعة، وبهذا الإحساس المهد للاحتمالات، وبكمياتٍ سريّة، نصادف بعض اللقاءات على طول المسالك.

***

أما الفرح فشأن آخر، إنه أقل سلبية وأكثر مطالبة، وأقل كثافة وأكثر اكتمالًا، وأقل محلية وأكثر ثراء. أثناء المشي، نشعر أيضًا بالفرح المفهوم هذه المرة بوصفه التأثير المباشر المرتبط بنشاط وفعالية. سنجد الفكرة نفسها عند أرسطو وسبينوزا، وهي تقول إن الفرح مواكبة لإثبات.

الحزن قصور وانفعال: عندما لا أستطيع تجاوز الصعوبة. أرغم نفسي، وأجبرها، ولكن كل شيء يقاوم، فأتحمّل، وأجاهد، لأبدأ من جديد، وهو الفتور نفسه: لا أتوصل إلى نتيجة. أشعر بالعجز أمام الورقة: الأمر صعب للغاية. الكلمات لا تأتي، تتجرجر وتتصادم مثل الشثنيات[1] المتخبّطة والغريبة، تصطف بعشوائية، لتُشكّل ببطءٍ جملًا متذبذبة، تمامًا كالفشل في اختبار رياضي: المشقة كبيرة، والساقان متصلبتان والجسم كالسندان. لا يطاوعنا فيما نطلبه منه، فيخفق، ويصير كتلة بلا شكل. نشعر بالإحباط

(1) الشثنيات/ pachydermes جمع الشثني أو الشثنية: الحيوان من الثدييات التي تملك جلدًا سميكًا مثل الفيل ووحيد القرن وفرس النهر... (المترجم)

من وسيلة الكتابة: الأصابع لا تستجيب، وتصير مثل مطرقة ثقيلة للغاية. الصوت يهتز ويدور حول نفسه. الأوتار تحدث صريرًا. وأخيرًا التعب في العمل: يتكرر كثيرًا، ويتضخم جدًا. يجب أن ندفع الآلة للتصدي للملل والتعب. لا شيء على ما يرام إنه الحزن. الحزن إثباتٌ مكبّلٌ ومحظور، معاقٌ وسيئ.

عندما يتعين عليّ القيام بحركة صعبة، أبدأ من جديد، وأصر، ثم تُنجز الحركة أخيرًا. ومن الآن فصاعدًا، سأفعل ذلك بكل سهولة، وبطريقة أكثر سرعة دائمًا. كل شيء يسير بسرعة وبشكل جيد. عندما يتغلب التدريب على الفتور الأول: يصبح الجسم أكثر خفة، وأعلى استجابة. ليس الفرح تأملًا مُطَمئِنًا بالرضا عن النتيجة المنجزة، وتأثرًا بالنصر، ورضًا تمامًا عن النجاح. إنه دلالة على الطاقة التي تُستخدم بسهولة، إنه تأكيدٌ حُرّ، أن كل شيء يمكن القيام به بسهولة. إن الفرح نشاط: للقيام بما هو صعب بسهولة وما يستغرق وقتًا طويلًا، مما يؤكد قدرات عقل الفرد وجسمه. كما تتمثل أفراح الفكر عندما يعثر الجسم ويكتشف أن مسراته تكمن في تجاوز المشقات دون عناء. لهذا السبب مرة أخرى، فإن الفرح، عكس اللذة، يزداد ثراءً مع التكرار.

أثناء المشي، لا يفتأ الفرح يذكرنا بذلك. سيكون موضعيًا بالتأكيد، لأنه عبارة عن جهدٍ ومعاناة. سوف يجد المرء أيضًا سكينة منتظمة ونظرة تأمل فخورة بما يوجد في الخلف حالما ينزل المنحدر الحاد. ومع ذلك، غالبًا ما يمنح هذا الرضا الفرصة لإعادة إدخال الكميات والنتائج والأرقام التي حصلنا عليها (ما فارقُ الارتفاع؟ كم من الوقت؟ كم العلو؟). فيتحوّل المشي إلى منافسة. ولهذا السبب يُعتبر المشي لمسافات طويلة في الجبال العالية (يعدُّ استكشاف القمم الجبلية، من التحديات التي يجب مواجهتها) أمرًا سيئًا دائمًا، لأنه يمنحنا شعورًا نرجسيًا بالرضا. بيد أن ما ينبغي أن يستحوذ على المشي، بعيدًا عن الهتافات المذهلة، هي البهجة البسيطة التي ترافقنا ونحن نختبر جسمنا بالنشاطات الطبيعية الأكثر تغلغلًا في القدم. وأدعوك إلى تأمل الطفل وهو يخطو خطواته الأولى: حينما تعلو محياه تلك الإشراقة التي تصاحب الخطوة تلو الأخرى. عندما نمشي، فإن الفرح لا يفتأ يُذكّرنا بالجهد الكبير الذي يبذله الجسم من أجل هذه الحركة الأزلية، وكيف يجد المرء في كل خطوة موردًا خصبًا للخطوة التالية.

فيما وراء فعل المشي، وبفضله، هناك الفرح كاكتمال، اكتمال الوجود، فرحة الوجود على قيد الحياة. بعد يوم كامل من المشي، يحين موعد الاسترخاء البسيط بتمديد الساقين، وشرب الماء ببساطة، وإرواء العطش والتفكير في يومٍ ينقضي، وليلٍ ينسدل بلطف[1]. لا يشعر الجسم بالجوع أو العطش، ولا بالمعاناة، الجسم في حالة استراحة، يشعر ببساطة أنه يحيا وهذا يكفيه ليحصل على أقصى درجات الفرح، والكثافة النقية، والتواضع المطلق: لأن الشعور بأننا نحيا، والشعور بالوجود هنا، يجعلنا نستطيب الانسجام بين وجودنا ووجود العالم. لسوء الحظ، في الغالب، وقعنا ضحية صور سيئة، ولفترة طويلة، جعلتنا نعتقد أن الكمال يعتمد على امتلاك الأشياء، والاعتراف الاجتماعي. ولهذا انطلقنا بعيدًا تمامًا، للبحث عن الفرحة رغم أنها كانت قريبة جدًا منا وبسيطة جدًا، لكننا جعلناها صعبة بعد ذلك. لقد تجاوزنا الفرح بالفعل، تجاوزناه دائمًا. لا شك أن تجربة المشي هي عملية استكشاف ثانية، لأن تعريض الجسم لنشاط طويل -كما رأينا، يجلب الفرح، ولكنه يجلب أيضًا التعب والإرهاق- يبدو، أنه بعد الراحة، نشعر بالاكتمال، هذا الفرح الثاني، أشد عمقًا، أكثر حيوية، وهو مرتبطٌ بإثباتٍ أكثر سرية: الجسم يتنفس بلطف، وكأنه يقول: أنا أحيا وأنا هنا.

***

ثم إن في المشي ما يمكن أن ندعوه «سعادة»، وهي التي تحدّث عنها الكُتّاب بشكل أفضل من الكيفية التي تحدث بها عنها كبار المفكرين أنفسهم، لأنها تتعلق بشكل أساسي باللقاءات وتعتمد على المواقف. وتتجلى في الشعور بالسرور أثناء تذوُّق التوت البري على طول الطرقات أو الشعور بدغدغة النسيم على الوجنتين. إن فرحة المشي تتمثل في الشعور بجسمك وهو يتقدم «وكأنك الإنسان الوحيد» مترعًا بإحساس وجوده الفعلي. ثم تصبح السعادة مشهد وادٍ أرجوانيّ تحت أشعة شمسٍ تغرب، تلك المعجزة الطبيعية في أماسي الصيف، التي لا تستمر إلا لحظات وجيزة، حَيث تسحق بشمس فولاذية، وتتحول إلى ضوء ذهبي يسلم نفسه أخيرًا ويتنفس. ستكون السعادة في وقت لاحق، في مأوى، ذات أمسية: برفقة أشخاص نلتقيهم فرحين أن نكون معًا بفضل صدفة المشي. ولكن في غمرة كل هذا، يتعلق الأمر بالاستضافة. السعادة تفترض أن تكون متلقيًا

(1) هذه هي قصيدة رامبو الكاملة، في الملهى الأخضر «مفعما بالسعادة، أمدد ساقيّ فوق الطاولة...».

لعرض، للحظة، لأجواء، وأن تأخذ، وتقبل، وتغتنم نعمة اللحظة. لا توجد وصفة أو تحضيرات لذلك: عليك أن تكون هناك عندما تأتي. وإلاّ فإن شيئًا آخر يحصل: نشعر بالرضا لأننا حقّقنا شيئا ما، ونفرح بإنجاز ما نُحسن فعله. إن السعادة هشة بمعنى أنها غير قابلة للتكرار. إنها فرصٌ تتاح مثل خيوط ذهبية في نسيج العالم. يجب أن نستسلم لشبكتها.

***

تتمثل الحالة النهائية في السكينة. وهذا إحساس آخر: ينطوي على مزيد من الانفصال وقليل من الإعجاب وكثير من الاستكانة ودرجة أقل من الإثبات. إنه توازن كامل للنفس. يستدعيها المشي أيضًا، بهدوء، وتدريجيًا، وفي تناوبٍ بين الراحة والحركة. إنها مرتبطة بطبيعة الحال بالمشي البطيء، وحتمًا بطبيعته المتكررة، التي نقرر في شأنها.

السكينة هي ألا تبقى عالقًا في تناوب مقلق ما بين الخوف أو الأمل، ولا أن تتموقع ما فوق كل يقين (لأن اليقينيات، يجب أن ندافع عنها، ونُحاجج من أجلها، ونبنيها). عندما تُغادر ليوم كامل، فأنت تعلم أن الأمر سيستغرق ساعاتٍ عدة لتصل إلى المحطة التالية، وكل ما عليك فعله هو المشي واتباع المسار. ولا شيء آخر يمكن القيام به. في كل الأحوال، سوف تكون المسافة طويلة، وستمتد كل خطوةٍ ثواني ولكنها لن تختصر الساعات. في كل الأحوال، سيأتي المساء وستتمكن الساقان في النهاية من التهام المسافة المستحيلة لقيمات متكررة. إنها حتمية لا مفر منها. لا تكاد تتيح فرصة للقرار، والتساؤل، والحساب. لن نفعل شيئًا سوى المشي. يمكن أن نتوقع ذلك، لكن خلال المشي فإن الأشياء تسير حتمًا ببطء شديد. لكن التكهن بما يأتي سيكون محبطًا. عليك فقط أن تتحرك إلى الأمام، بوتيرة إيقاعك الخاص، إلى أن تبلغ المحطة القادمة. حينئذ تتجسد السكينة في اقتفاء الطريق فحسب. وبذلك فهي تغدو أثناء المشي نأيًا عن المتاعب والمصائب جميعها، وكل ما يحفر الأخاديد التي تُفرغ وتُفسد حياتنا وأجسادنا، يبدو كل شيء معلقًا تمامًا، لأنه عزيز المنال، وبعيد جدًا، ولا حدود له. فقد استبدلت المشاعر العنيدة المنهكة، بالاشمئزاز المثير من الحيوات النشطة، والمضغوطة حد الانفجار، وأخيرًا الإحساس بالسأم العنيد من المشي: المشي وحسب. لأن الصفاء يكمن في العذوبة الهائلة التي نحسها ونحن لا نتوقع أي شيء أكثر من التقدم والمشي فقط.

التيه الكئيب (نيرفال)

نسير كثيرًا مع نيرفال. نتجوّل، نتذكّر، نتخيّل، ونغني لمآنسة أنفسنا:

تشجع! يا صديقي، تشجع! ها قد اقتربنا من القرية! في المنزل الأول، سنُنعش أنفسنا![1].

بين جلسات المكتبة الطويلة -التي يرتبط فيها بإيجاد مخطوطات نادرة، وإعداد مجموعات أنساب عسيرة، وإعادة بناء تواريخ غير كاملة- ولحظات طويلة من الكتابة (كتابة هذه «الكتب غير القابلة للتنفيذ» كما يطلق عليها ألكسندر دُوما) أو القيام بنسخ بسيط، وبين زيارات للأصدقاء النادرين والأمسيات في المسرح، لتحقيق رغبة فريدة من نوعها بأن يرى بشغف (الممثلة المحبوبة عن بعد: جيني س.)، كان ثمة ذلك الوقت المخصص للمشي، والتيه.

لا أريد أن أتحدث هنا عن الرحلات إلى ألمانيا أو إنجلترا أو إيطاليا أو هولندا أو حتى إلى الشرق (الإسكندرية، القاهرة، بيروت، القسطنطينية).

ولكن عن عادة المشي في شوارع باريس، والنزول من مونمارتر، والضياع في أزقة الهال؛ أو حتى تلك المسيرات الطويلة في غابة إيرمينوفيل أو مورتفونتين، وفي غابات جسر أرمي، أو القديس لوران، أو حتى على ضفاف نهر إيسن أو لاتيف (والوقوف في نهاية المطاف أمام قبر جان جاك -بـ«شكله» العتيق والبسيط- على جزيرة غابة الحور). المناظر الطبيعية عند نيرفال تتشكّل من القلاع والأبراج المسنّنة، والكتل الحمراء من الأيك المتموّج فوق عشب الوديان الأخضر، وزخارف غروب الشمس الذهبية والبرتقالية، والأشجار والأشجار مرة أخرى، والمناظر الطبيعية المسطحة مثل السبات. وضباب الصباح الشديد الزرقة وهو يدفع الأشباح لتحلق في كل مكان. تشبه أمسيات أكتوبر ذهبًا قديمًا. نمشي هناك كما لو أننا في حلم، ببطء، ودون عناء (التضاريس أقل صعوبة). بين صرير الأوراق الميتة.

(1) فنيات النار (الملائكية، «الرسالة العاشرة»).

نعثر على معنى المشي عند نيرفال كما لو أنه شعورٌ بالكآبة. هناك كآبة في الأسماء والذكريات (ذكريات بنات النار والنزهات). نصل في نهاية المشي إلى قرية صغيرة. وبعد عبور الغابات المتّشحة بالسحب، نصل إلى القرية العائمة في أضواء الخريف. لطالما حلمنا باسم: كافي، شاليس، لويزي، أوثيس. إنها العذوبة والكآبة: في لجة البريق المغبش والمرتجف باستمرار، يهدهد المشي لدى نيرفال الذهن، ويؤرجح كل شيء داخل الذكريات المنبثقة من جديد. ومن هنا، ومن خلال هذه الخطوات اللطيفة اليسيرة، تتداعى أحزان الطفولة المديدة. ولا نتذكر أثناء المشي سوى أحلامنا.

هذا المشي، في هذه الغابات المرتعشة، التي تتحول من اللون الأزرق في الصباح إلى البرتقالي في المساء، دون أن نرى أي شيء ساطع أو حاد، يُسكّن الحزن. لا يشكّل المشي علاجًا منعشًا، وموردًا للطاقة، ولكنه لا يلغيها: إنه يحوّلها. يعرف الأطفال هذه الخيمياء ويمارسونها. فلنتجول إذن، وكأننا نستسلم لتيار نهر دفّاق، بغية تبديد الحزن والغرق معه. دع حزنك يتجوّل في الهواء الطلق: استسلم. إنه مشي حالم، وهنا بالتحديد، نعثر على نيرفال المشّاء الوحيد. ليس كما رأيناه عند نيتشه (حيث ينبغي المشي والتسلق دائمًا) عموديًا فرارًا من مصيره، ولكن هربًا صوب أحلام طفولته.

الأغاني القديمة تدندنها الشفتان: «إنه فارسٌ يعود من فلاندرز...»[1] يُسفر المشي لفترة طويلة في الخريف، وتحت أشعة شمس خجولة، عن بعض الالتباس في الأزمنة. في هذا الرونق الخافت، تتبدد السنوات وتتمدد وتندمج. وما زال الصرير نفسه، وصوت الرياح ذاته، وشحوب اليوم عينه. كانت الطفولة أول أمس، وأمس، وراهنًا، وحالًا، مصدر تخفيف لهذا الحزن اللانهائي الممتد على طول مسارات الغابات المظلمة والباردة. نجد أيضًا هذه النوعية من الكآبة الحالمة عند نيرفال حاضرة في النزهات البطيئة التي توقظ أشباح الماضي، ووجوه النساء الرقيقات. ومعها اليقين أننا لم نكن أطفالًا قط إلا داخل هذا الضوء. ليس حنينًا إلى السنوات الضائعة، وليس حنينًا إلى الطفولة، ولكن تصبح الطفولة نفسها مثل حنينٍ إلى الماضي (الطفل هو الوحيد الذي يعرف معجزة هذا الحنين بدون ماض). بواسطة المشي ببطءٍ هناك، بين هذه المناظر الطبيعية لمنطقة فالوا.

بعبارة أخرى، ثمة حزن أوريليا، النشيط، والمعتم، بأفكار ثابتة،

(1) نفسه «الرسالة التاسعة».

واكتمال للأزمنة. لم يعد ذلك المشي الخريفي اللين والرزين والهائم. إنه المشي المحموم سعيًا وراء المصير والإلحاح على بلوغ النهاية. لم يتوقف نيرفال عن المشي، منذ نهاية صيف عام 1854، بعد خروجه من عيادة الدكتور بلانش (الذي كان مصرًا على أن نيرفال ما زال مريضًا). أقام بغرفة في فندق عابر، ولكن للنوم فقط، عندما يستجدي الجسم المنهك راحته. كان يمشي ويسير ويتوقف في مقهى لتناول الشراب ثم يغادر. يتوقف أحيانًا في قاعة المطالعة[1]، ويزور أحد الأصدقاء حينًا آخر، ثم يمشي مرة أخرى. ليس هروبًا، ولكنه إلحاح مهووس بأن يؤكد ما هو متوقع.

المشي هذه المرة عبارة عن كآبة فعالة نشطة. توجد في «أوريليا» صورة للمشي توقظ العلامات في كل مكان. وكما نعثر على الحماسة القلقة للمشّاء المجنون في المدن، إذ يعدُّ الشارع وسيلةً رائعةً للمحافظة على الأزمة النفسية وتغذيتها وتعميقها. توجد في كل مكان منه، نظرات غامضة وحركات متشنجة وضوضاء متناقضة: أصوات العربات، والأجراس، والأصوات العالية، واصطدام آلاف الخطوات على الرصيف. ولأنك من الضروري أن تشقّ طريقك، يصبح كل شيء صراعًا وبذلك يتحقق الهذيان.

أفكر في اليوم الأخير، 25 كانون الثاني (يناير) 1855: ساعة تجواله النهائي، الذي سينتهي بنيرفال عند زقاق الفانوس القديم حيث (تلك النافذة الحديدية التي سيشنق نفسه عليها). لكن يبدو أننا تسرعنا في الحديث عن «التيه»، لأن نيرفال كان يتبع فكرة ثابتة وعاجلة. كانت أوريليا تهرول في ساقيه. وما معنى أن يسير في أعقاب نجم يناديه.

عندما نتأمل لحظاته الخاصة من اليأس العميق أو النشوة المفاجئة، سنكتشف بالأحرى أنه لا يوجد خيار حقيقي بين الأمرين: الكثافة - والإغراء بالمشي. يجب أن تخرج، يجب أن ترحل، وتذهب وتُتابع. نمشي بخطوات قسرية، في كل مكان نشعر بأن الجميع ينظر إلينا، ويحاصرنا، ويشجبنا، لكن رغم الحشود، يجب العبور رغمًا عنا وعنهم. إن المشي يشبه قرارًا متواصلًا من الهذيان، واستكشافًا رفيعًا للعزلات. ونرى أن كل شيء، هنا، يتلألأ ويلوّح وينادي. كان نيرفال يرى نجمًا يكبر، والأقمار تتكاثر. المشي يزهر الهذيان. إنه يحقّق الهوس، لأن كل شيء غير منطقي يصبح منطقيًا

(1) قاعة مخصصة للقراءة، يمكن أن يقرأ فيها الجمهور في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بمقابل مالي رمزي. تُعرف هذه المؤسسات أيضا باسم «الصالونات والأوساط الأدبية».

أثناء المشي: تحملنا الساقان، ونقول لأنفسنا هذا جيد. يجب أن نذهب، هذا هو الاتجاه. يعتقد الآخرون أننا نتجوّل، في حين نحن نقتفي فكرتنا، الفكرة التي تجذب، وتحمل، فتغويك الكلمات وتنساق منقادة: نتكلم كما نمشي. كل شيء حقيقي. إن المشي كآبة فعالة نشيطة.

«كنت أغني أثناء المشي وأردد ترنيمة غامضة» فتعود الأنغام لتثبت المصير. لا يسترجع هذا المشي الذكريات بلطف، ولكنه يُضاعف من الصدف وانتشار العلامات: هو ذا المقصود إذن.

يصل إلى شارع الفانوس القديم، الشديد العتمة، الحالك، القصيِّ، والصغير، العصيِّ الدخول. لقد «أخطأنا» الطريق ونحن نسير في شارع لاتوبري الذي يبدأ من ساحة الشاتليه. كان يجب اتباع هذا الزقاق الأول حتى الجزء الضيق منه. في هذا المكان الذي يتحوّل إلى درج «ضيق، ولزج، ومشؤوم»، يفضي في مستواه الأدنى إلى جزء من رصيف معتم (شارع الفانوس القديم) يعتبر الذهاب إليه ليلًا مثل «التفكير في النزول إلى الجحيم» (ألكسندر دوما).

وأخيرًا وصلنا إلى لحظة الانتحار (سنجد فجرًا نيرفال مشنوقًا، و«القبعة فوق رأسه»)، سيقول ألكسندر دوما مرة أخرى، الكاتب المستلهم لمآسي الآخرين باستمرار. هل كان تنفيذه للانتحار نتيجة مرارة عثوره على صفاءٍ لا محتمل، أم صعقة اكتمال هذيان نهائي؟ لكن هل نعرف لماذا نمشي؟

الخروج اليومي (كانط)

لم تكن حياة كانط، كما نعلم، حياة مُغامِرة. بل من الصعب تخيُّل حياةٍ أكثر رتابة.

ولد وتوفي في كونيغسبرغ. لم يغادر مسقط رأسه قط، ولم يسافر قط. كان والده صانع سروج وأحزمة. وكانت أمه ورِعة ومحبوبة جدًا. لم يسمع شتيمة في منزله إطلاقًا. فقَد والديه، عندما كان صغيرًا جدًا.

درس وعمل وأصبح مدرسًا ومساعدًا ثم أستاذًا جامعيًا. نجد في بداية كتابه الأول الجملة التالية: «لقد أعددت لنفسي طريقًا وسأتبعها. بمجرد أن أبدأ سيري، لا شيء يمكن أن يوقفه».

كان متوسط القامة، وذا رأس كبير وعينين شديدتي الزرقة، وكانت كتفه (اليمنى) أعلى من اليسرى، كانت بنيته الجسمانية رهيفة. كما أن إحدى عينيه صارت ضريرة. كان، كما نعلم، نموذجًا للانضباط. لدرجة تسميته بـ «ساعة كونيغسبرغ». عندما نراه وهو يغادر منزله خلال أيام الدراسة، نكون متأكدين أن الساعة ستكون الثامنة تمامًا. في الثامنة إلا عشر دقائق، يضع قبعته؛ وإلا خمس دقائق، يمسك عصاه؛ وعند الساعة الثامنة يتخطى عتبة بابه.

قال عن ساعته إنها آخر شيء، يمكن أن يتخلّى عنه.

كان مثل نيتشه، ولكن بكثافة مختلفة، بصرف النظر عن الكتابة والقراءة، فقد شغله شيئان فقط: ضرورة المشي وماذا سيأكل. لكن أسلوبي المفكرين مختلفان تمامًا: كان نيتشه مشّاءً هائلًا، لا يكلّ، وكانت نزهاته طويلةً وأحيانًا شاقة وشديدة الانحدار. وفي كثير من الأحيان كان لا يأكل إلا قليلًا على منوال الناسك، ودائمًا يبحث عما يمكن أن يتلف معدته الهشة، مع مضاعفة الصوم.

بينما كان كانط، على العكس من ذلك، يأكل بشهية جيدة، ويشرب جيدًا، لكن دون إفراط، ويجلس إلى طاولة الطعام لساعات طويلة. لكنه لا يجهد نفسه خلال نزهاته اليومية التي تظل قليلة وشحيحة جدًا، لأنه كان لا يطيق أن يتعرّق جسمه. كان يمشي أيضًا خلال الصيف لكن ببطءٍ شديد

ويتوقف تحت الظل حالما يشعر ببضع قطرات من العرق.

لا يمكن لأحد أن يقول إن صحتهما كانت مثالية، ومشرقة (ودون أن نرى في ذلك رموزًا فسيولوجية لفلسفتهما، تجدر الإشارة إلى أن الأول كان يعاني من الإمساك، في حين عانى الآخر من القيء).

كان كانط بطبيعته الهشة يحبّ أن يعتقد أنه مدينٌ بطول عمره (ثمانين عامًا) لنمط حياته الصارم. يعود احتفاظه بصحته الجيدة إلى عمل شخصي: بفضل الانضباط التام الذي فرضه على نفسه. لقد كان متحمسًا لطب الحمية الغذائية، والتي قال عنها، إنها ليست فنّ الاستمتاع بالحياة بل هي فنّ إطالة أمدها.

ومع ذلك، في سنواته الأخيرة، عزا كانط تلف صحته إلى تلوث هوائي، وقد زعم أنه سبب في وفاة عدد لا يصدق من قطط مدينة بازل في ذلك الوقت. لم يكن قط مدينًا لأي أحد، وقد قال ذلك بصوت عالٍ جدًا لكل شخص يريد سماعه. لا يستطيع تحمُّل الفوضى. يجب أن تكون الأشياء دائمًا في مكانها، فهو لا يطيق أي تغيير.

كان أحد طلبته يحضر دروسه بانتظام مرتديًا سترة اختفى أحد أزرارها. في صباح أحد الأيام، ذهب الطالب إلى الفصل الدراسي مرتديًا سترته المعتادة لكن استبدل المكان الشاغر بزر جديد، انزعج الأستاذ بشدة، فلم يستطع منع نفسه عن النظر وإعادة النظر إلى سترة الشاب والتحديق إلى الزر الجديد. تقول الأسطورة إن كانط طلب من الطالب أن يزيل الزر الجديد. وعلى إثر ذلك قال إنه من المهم أن نتعلم شيئًا جديدًا، لكن بمجرد تعلمه، يجب أن نعرف أين نصنفه. كان يلبس دائمًا بالطريقة نفسها. ولا نعرف عنه أي نزوة. كانت حياته، وهذا جانب معروف كذلك، مُسطّرة مثل ورقة الموسيقى. كان يستيقظ في الخامسة صباحًا. ولم يستيقظ قط بعد ذلك. كان يفطر ببضعة أكواب من الشاي، ثم يدخن غليونًا واحدًا في اليوم. في أيام العمل، يخرج للتدريس في الصباح، ثم يرتدي ثوب المنزل وخُفّيه للعمل، والكتابة إلى غاية الواحدة إلا ربعًا، حينئذ يرتدى ملابسه مرة أخرى ويستقبل بسرورٍ مجموعةً صغيرةً من الأصدقاء، للحديث عن العلم والفلسفة والطقس. لقد كان يقدم دائمًا ثلاثة أطباق وجُبنًا، يوضع على الطاولة (أحيانًا بعض الفواكه)، بالإضافة إلى أنه يملأ كأسًا صغيرة من النبيذ لكل ضيف. ويشرع في الحديث حتى الساعة الخامسة.

ثم يخرج في نزهة، يجب القيام بها سواء كان الطقس جيدًا أم سيئًا. كان يقوم بذلك بمفرده، لأنه يريد أن يستنشق هواء نقيًا دون التحدث طوال الوقت، كان يعتقد أن ذلك جيد للجسم. فقد كان أصدقاؤه يجبرونه على الكلام وفتح فمه.

الطريق نفسه دائمًا، لدرجة أن هذا الممشى في الحديقة سمي لاحقًا باسم ممشى الفيلسوف. هناك شائعة تقول بأنه لم يغير مسار هذا التمرين مطلقًا إلا مرتين في حياته: من أجل الحصول على كتاب إميل لروسو في وقت مبكر، وبغية الحصول على الأخبار، بعد إعلان الثورة الفرنسية.

عندما يعود من نزهته، يقرأ حتى الساعة العاشرة، ثم يذهب إلى السرير (كان يتناول وجبة واحدة فقط في اليوم) وينام على الفور.

هذا النزهة من غير استمتاع، ودون اتحادٍ صوفي مع الطبيعة، هذا المشي من غير متعة، وإن كان يفرض نفسه كواجب للوقاية الصحية، هذا المشي لمدة ساعة، ولكن كل يوم، كل يوم دون التخلي عنه ولو مرة واحدة، يكشف لنا عن ثلاثة جوانب مهمة في تجربة المشي.

يتمثل الجانب الأول في الرتابة. المشي رتيب رتابة شديدة. لا يمكن لقصص المشي الرائعة (من توبفر[1] إلى فيوشانج[2]) أن تستقيم إلا بالحوادث التي تقع، واللقاءات التي تنشأ، ووصف المعاناة. ثمة دائمًا، في ملاحم الحج أو المشي لمسافات طويلة، عدد لا نهائي من الصفحات عن المحطات أكثر من المسافات نفسها. إن الحدث لا ينتمي أبدا إلى المشي، بل هو ما يَحول دونه. لأن المشي في حد ذاته رتابة. إنه ليس «مثيرًا للاهتمام» والأطفال يعرفون ذلك. المشي في الأساس هو ذاته دائمًا أي أن نضع قدمًا أمام قدم أخرى. لكن يكمن سر هذه الرتابة في أنها علاج للملل. والملل هو سكون الجسد عند مواجهة فراغ التفكير. إن تكرار المشي يقتل الملل لأنه لم يعد بإمكانه أن يتغذى على إرهاق الجسم فيستمد من خموله الدوار الغامض لدوامة لانهائية. وفي غمرة الملل نبحث دائمًا عن شيء ما، أمام بداهة عدم جدوى أي حركة. أثناء المشي، هناك دائمًا ما يجب القيام به: خلال المشي، لا يوجد، بالأحرى، شيء آخر يمكننا القيام به، لأننا بصددِ المشي، وبمجرد أن نذهب إلى هذا المكان أو أن نكمل هذه المسافة، لا يبقى أمامنا سوى

---

(1) ر. توبفر، رحلات متعرجة، باريس، هوبيبكي، 1996.

(2) ميشيل. فيوشانج، سجل الطريق إلى السمارة، باريس، بايو، 1998.

المضي قدمًا وببداهة مسطحة مثل العالم. هذا الالتزام الرتيب للجسد يحرّر الفكر. عندما نمشي، لسنا ملزمين بالتفكير، التفكير بهذا الأمر أو ذاك، بهذه الكيفية أو تلك. يصنع العقل ديناميته، من خلال الجهد المستمر والتلقائي للجسد، واستعداده، وعندئذٍ يمكن أن تأتي الأفكار وتنبثق وتنشأ.

الجانب الثاني يتمحور بجلاء حول الانضباط. ما يثير الإعجاب عند كانط انضباطه القاسي. فقد كان يقوم بنزهته كل يوم، كمواكبةٍ ورمزٍ لتلك الساعات التي يقضيها في العمل كل يوم. يكتب كل يوم صفحة، ويطوّر فكرة، ويجلب أدلة، ويُعِدّ برهانًا. وفي نهاية المطاف: يُنجز عملًا ضخمًا. هل من الضروري مرة أخرى، أن يكون لديه شيء لقوله والتفكير به. لكن ما يثير الإعجاب هنا، هو هذا التعالق بين الموضوع العملاق الذي جناه بجهد حركةٍ صغيرةٍ متكررة، وحياةٍ من الانضباط. لا يمنح المنجز الفكري على ضوء مصدر إلهام يوقف الزمن، ولكنه يُبنى تدريجيًا لبنة لبنة. الأمر يشبه المشي لثلاثة أو أربعة أيام، وعندما نلتفت في الجزء العلوي من مرتفع بين جبلين ونرى من بعيد النقطة التي انطلقنا منها. نشعر بابتهاج من هذه المسافة، وهذا البعد الذي قطعناه بخطوة واحدة، خطوة واحدة تلو الأخرى، وبمثابرة لا حدود لها. إن الانضباط هو المستحيل المكتسب من خلال التكرار العنيد لما هو ممكن.

سيكون البعد النهائي مثل شيءٍ حتمي. نعلم أنه في الخامسة بعد الظهر سيخرج، ليقوم بنزهته. كان الأمر مثل شعيرة غير قابلة للتغيير، أشد انتظامًا وحيوية من شروق الشمس. ما إن نضيف فكرة الحتمية إلى فكرة الانتظام حتى يتجلّى القدر، لكنها قدرية متحكم فيها، نفرضها بالقوة. وقد يحدث بواسطة الانضباط، أن نصنع مصيرنا بأنفسنا. ثمة عند هذا المستوى من الإرادة، في نهاية العشرين، والثلاثين، والأربعين عامًا، والتي تحوّل جهودها إلى ضرورة من شأنها أن تهيمن علينا تقريبًا، إذا لم نقم ببناء شخصيتنا بناءً صحيحًا. إن الحتمية هي أنْ نُبرز أنَّ الانضباط ليس مجرد عادة سلبية. إنما هو كشف عن مصير الإرادة التي حددها نيتشه في الحرية. تتمثل حتمية المشي في أننا ما إن ننطلق، حتى نكون مضطرين للوصول. لا توجد وسيلة أخرى، يجب أن نتقدم إلى الأمام. وفي نهاية التعب والطريق، فإننا نصل دائمًا، يكفي أن يضيف بعضنا الساعات لبعض ونقول: هيّا! لقد كانت مقدرة، ولا يمكن إيقافها. عندما نستعمل الأقدام، يجب أن نمشي، لكي نصل. إنها الإرادة كقدَر.

نزهات

إننا نمشي حتمًا خلال النزهات. حتى إن كانت ثمة نزهات أيضًا على متن حصان أو قارب أو غيرهما، ربما لا تكون في النزهات حركة مشي أكثر عمقًا من الرحلات الطويلة، ولكن تصبح لها أبعادٌ أخرى محسوسة، وأكثر تواضعًا وأقل صلاحية للمواقف الصوفية، وخداعات الميتافيزيقا، والتصريحات العلنية.

هناك النزهة كشعيرة من الشعائر، والنزهة كإبداع روحٍ طفولية، والنزهة كاسترخاءٍ حرّ، ثم النزهة كاستراحةٍ للعقل، وأخيرًا كإعادة اكتشاف.

النزهة كشعيرة، تلك هي نزهاتنا ونحن أطفال. نحتاج آنذاك إلى مساراتٍ واضحة المعالم وطرقٍ محددةٍ بدقة. آنذاك لا نقوم بإحدى النزهات التي لا تتميز عن غيرها، أو حتى بنزهة معتادة، وإنما بهذه النزهة بعينها أو تلك. وهي نزهات لا يمكن أن تتشابه أبدًا. إن النزهات تأخذ مساراتٍ مختلفة، والسياجات التي نمشي بجانبها فريدةٌ من نوعها، والآفاق المنظورة لا يمكن اختزالها. ولا يمكنها أن تتقاطع.

عندما نكبر، لا نعود نحس إلا بالعموميات، والتشابهات، وأنواع الوجود. الغابة الجبل والسهل... وحول منزلنا، يصبح كل شيء متماثلًا: بالنسبة إلينا، نحن البالغين، نأخذ بعين الاعتبار كل مسار في المشهد الكبير الشامل. يرى البالغ كل شيءٍ من خلال امتداد سنواته. لهذا تصبح رؤية الآفاق تجربة تُمهّد وتُسطّح وتُخفي، فيعود كل شيءٍ إلى أصله. يعلم البالغ أن منزله يقع في بلد ما، وأن هناك عدة مسارات تقود إليه. أما بالنسبة إلى الطفل، فإن المسارات تبتعد، وتُشكّل مصدر قلق، إنها احتمالاتٌ لعوالم متعددة. ولا ريب في أنها غير متشابهة: فهي تنفتح على أكوانٍ مغايرة. بالنسبة إلى الطفل، لا توجد فعلًا شجرتان متشابهتان: بفروعها المعقدة، جذوعها الملتوية، مظهرها، وكل ما يميزها. الشجرتان ليستا شجرتين من التوت، أو من البلوط، ولكنهما: المحارب والساحر، الوحش والطفل. إذًا، ماذا نقول حينما يتعلق الأمر بنزهتين، لكل منهما سلسلة فريدة من الأشجار والشخصيات ومن ألوان المسالك والاشخاص الذين يمكن

ملاقاتهم هناك؟ تحدث خلال كل نزهة حكاية منفصلة، وتفتح كل واحدة مملكةً مختلفة، مسكونة، تستحوذ عليها الأرواح.

كان بروست الطفل يقوم بنزهتين تصنعان عالمين مختلفين: واحدة إلى سوان (أو ميسيغليز)، وأخرى إلى جيرمونت. خريطتان كاملتان للعالم، بفصولهما، ونبرتهما، وأمدهما، وألوانهما. لذلك كانت الوجهة إلى سوان نزهةً ممكنةً حتى إن كان الطقس سيئًا ما دامت ستكون قصيرة، تحفُّها أكاليل الزنابق التي نعانقها بلطف، والزعرور البري ذو الرائحة المسكّرة، في بعض الأحيان ويمكن أن تلاحظ في حديقة سوان، من بين سياجات الياسمين، جيلبيرت، المتمردة الصغيرة، المتمنّعة، والماكرة. أما للوصول إلى جيرمونت، فيجب في البداية أن تدخل من الباب الخلفي، إلى عمق الحديقة، وينبغي أن تتأكّد من أحوال الطقس الجيدة لأنها يمكن أن تسحبك بعيدًا في أعماقها.

كانت جيرمونت قبل كل شيء وجهةً مذهلةً لا يمكن الوصول إليها أبدًا، ولكن ثمة أيضًا ضفاف فيفون (كنا نجلس أحيانًا بجانب الماء، بين أزهار السوسن)، حيث ذلك المنزل المفقود داخل الغابة وعلى حافة نافذته تتكئ في بعض الأحيان امرأة أنيقة، حزينة وشاردة. وحيث ما تزال «سياجات رطبة صغيرة تتسلقها عناقيد من الزهور الداكنة».

عالَمان منفصلان. عندما ستقترح ألبرتين، بعد ذلك بفترة طويلة، على الراوي/الطفل الذهاب إلى جيرمونت عبر طريق ميسيغليز... سيشعر بالصدمة، لأن الوجهة فضيحة، وانحراف، ومصدر دهشة! وبذلك صارت الاحتمالات الموضوعية للجغرافيا، تصطدم ببعضها مباشرة، وتكسر البراءة الواضحة للطفولة. لأن النزهة بالنسبة إلى الطفل، هي هوية كاملة، ووجه، وشخص. هذه ليست طرقًا تتقاطع عند مفترق طرق، أو مسارات تحت السماء نفسها. مما لا شك فيه أنه كان من الممكن، من خلال برج الجرس في سان هيلير، مشاهدة مسار النزهات كله، من منظور فريد، وهو يستحم في لون موحدّ للأرض، وتحت ضوء واحد. ولكن تُعدّ هذه الإطلالة من علوٍ زائفةً، لأنها لا تهتم إلا بنظرة مجردة حيث المسارات تشكّل خطوطًا. لأن الطفل الذي يعيش على مستوى سطح المسارات، يعلم أن أشكال الحصى، وتصميم الأشجار، ورائحة الزهور مختلفة كلها.

ولا ينبغي أن نقابل هنا الميل الحالم وملَكة الخيال عند الأطفال،

بالموضوعية الواقعية لدى البالغين. لأن الأطفال هم الواقعيون حتمًا: فهم لا يتصرفون أبدًا بمنظور تعميمي. يتعرّف البالغ على الشكل العام في حالة خاصة، إذ يُصبح بالنسبة إليه ممثلًا للنوع، فيعمّمه على الباقي أما التفاصيل فتتلاشى، فتلفيه يقول: هذه أزهار الليلك، وهناك شجرة الدردار، وهذه شجرة التفاح. أما الطفل فينظر إلى الأفراد والشخوص، فيرى السيماء الجانبية الفريدة، دون إخفائها باسم مشترك، أو دالّة. عندما نمشي رفقة الأطفال، فإنهم يجعلون أعينهم ترى وحوشًا خرافية بين أوراق الشجر، ويشعرون برائحة بتلات الزهور الناعمة. هذا ليس انتصارًا للخيال، ولكنها الواقعية بدون أحكام مسبقة: الأحكام المطلقة. بذلك تتحول الطبيعة إلى رؤية شعرية على الفور. تعدّ هذه النزهات، المملكة المطلقة للطفولة، لكننا نخسرها مع تنامي سحرها، لأننا في نهاية المطاف نصنع أفكارًا وشكوكًا حول كل شيء، ولا نريد أن نعرف الأشياء إلا من خلال تمثيلها الموضوعي (وهو ما نسميه للأسف بـ «الحقيقة»).

وإذا ذهبنا أبعد من مرحلة الطفولة، سنجد أسلوبًا آخر للمشي هو أيضًا من صنف المشي الحالم، على الرغم من أنه أقل شعرية، وأقصد بذلك النزهة الشبيهة بالخفة، والاسترخاء: المشي من أجل «تجديد الهواء». بعد عمل مرهق، أو عندما يصبح الملل عبئًا كبيرًا، نذهب في نزهة «لتصفية الذهن من أفكار رازحة». خصوصًا عندما يكون التباين قويًا جدًا بين شمس الربيع، والهواء الخارجي المشرق وفضاء مكاتب العمل الجامد والمعتم. وصف فيلسوف ألماني، كان صديقًا لكانط، هذا الفن بدقّةٍ كبيرةٍ وكياسة.

في كتابه «فن المشي»[1]، يُثبت كارل غوتلوب شيل Karl Gottlob Schelle أن المشي ينتج عنه، بلا شك استرخاءٌ للجسم -بالمعنى الحرفي، إذ إنه يتخلص من الانحناء المفروض عليه بواسطة العمل، فيستقيم الجسم جيدًا- وبالاضافة إلى كل ذلك، فإن الروح هي التي تنشرح قبل كل شيء، لأن المشي يُفضي إلى استرخاء الروح. عندما نعمل، نريد أن نظل أسرى ذواتنا، ونواصل التركيز على مهمتنا، لا نفكر إلا في شيء واحد في كل مرة. لا يجب أن يتحرك الجسم كثيرًا في وضعية الجلوس، وإذا بذل جهدًا هذه المرة، فينبغي أن تكون الحركات دقيقة، والضغط العضلي منسقًا. في الغالب ينتهي العمل بإنتاج التوتر، نظرًا للتركيز الطويل جدًا.

(1) كارل غوتليب شيل فن التنزه. رفاج بوش. ص 176، 1996.

ومع ذلك، فإن المشي لن يعني الراحة المفاجئة، استراحة بسيطة، كما لو كان الأمر يتعلق بمسألة توقف فحسب. لأن النزهة تغيّر من الإيقاع: فهي تخلص أعضاء الجسم وقدرات الروح من قيودها. إن التنزّه هو في المقام الأول تجاهلٌ للقيود: أختار مساري وإيقاعي وأدائي. لقد قلنا إن شيل كان صديقًا لكانط. وما زال بإمكاننا التخمين أنه قرأه: سنجد الجمالية الكانطية كلها، مُطبقة في النزهة.

إن التنزّه شيء آخر غير القيام بجولة قصيرة، وهي في النهاية مجرد طريقة أخرى لتطوير هيمنة فكرة أو مواصلة تأمل. فضلًا عن ذلك فإنني أستطيع النهوض والمشي عندما أواجه مشكلة، لكنني لن أذهب بعيدًا بالضرورة، فأنا أقوم ببضع خطوات، يدي معقودة خلف ظهري، مومئًا برأسي، وبمجرد أن تعطي حركة جسدي فسحة صغيرة لعقلي حتى يتمكّن من التغلب على الصعوبة، فيجد الجدولة المثالية، ويبني البرهنة الصحيحة، ويصيب الفكرة الصحيحة؛ عندئذ أسرع إلى طاولة عملي، في انتظار الوقوع في عجزٍ فكريٍ قادم.

إن الذهاب في نزهةٍ شيءٌ آخر: معناه أن نقول وداعًا لعملنا. نُغلق الكتب والملفات ونخرج. بمجرد الخروج، يمشي الجسم بوتيرته ويشعر العقل بالحرّية، أي يصبح جاهزًا للاشتغال، فأهتم بالانطباعات التي تجذبني إلى يمين المشهد الطبيعي، وأركّبها مع تلك التي أتلقاها من اليسار، وأتلاعب بتناقضات الألوان، وأنتقل من التفاصيل إلى المنظر العام بواسطة الذهاب والإياب المستمر. وإذا كنت في ممشى كبير بحديقة عامة ممتلئة سلفًا بحشد مبرقش من الناس، فأنا ألاحظ ذلك، لكن بدون أن يُشحذ الذهن بالتركيز: بل أترك عينيّ تنزلقان من وجه إلى آخر، من فستان إلى قبعة، دون أن أترك نفسي تَعلَق في أي مكان، ولا أحتفظ أبدًا بنموذجٍ أو خطٍّ أو تعبير. هذا التكوين الحر لمسرح المظاهر هو ما يسميه كانط بالمتعة الجمالية: يلعب الخيال مع الانطباعات التي يرتبها، يعيد تكوينها حسب خياله الحر وبلا مسوغ تام، فيُظهر الذهن انسجامًا داخليًا عميقًا: تصبح قدراتي كلها متوافقة تلقائيًا كي تعمل بحرّية على أن تصوغ مشهد العالم.

لكي يبلغ فن المشي ذروته، يلزمنا، كما يقول **شيل**، توفير عددٍ من الظروف الخارجية. فإذا كنت تمشي في الأماكن العامة، سيتطلب الأمر ممرات واسعة، حتى لا تعرقل سيرَك حركة المارة، ولا ينبغي أن

يكون الحشد لا غفيرًا جدًا ولا قليلًا جدًا: إذا كان هناك عدد قليل جدًا من المشاة، فإننا سنميل إلى البحث عن الوجوه المعروفة والتدقيق في ملامحها (هل هذا هو فلان؟) وهذا سيُعيدك إلى أدوارك الاجتماعية. إذا كان هناك عدد كبير للغاية، فسوف تشعر بالإحباط بسبب اكتساحهم للمكان، وهو ما سيضاعف من الصور التي ستتجاوز قدرتك على التركيب. وإذا اخترت الريف، فيجب أن تختار منظرًا طبيعيًا تتناوب فيه الجبال والوديان والجداول والمروج والغابات، بحيث يُستغوى الخيال بتنوع الألوان والأشكال، وتُفضل الشمس المشرقة، لأنه بخلاف ذلك، فإن لعبة الخيال ستكون مثقلة بالتمثلات المعتمة.

من الضروري حتمًا التناوب بين المناطق الحضرية والريفية، وليس من داع لتفضيل منطقةٍ على أخرى. لأنه إذا كان عمقهما مشتركًا بينهما (لعبة حرة للخيال الذي يؤلف انطباعاته)، فإن تأثيرهما مختلف: المشي في الممرات العامة يفترض جولة يتيح القيام بها، التعرفَ إلى تنوع الجنس البشري وسلوك المماثلين لنا، والحصول على اكتشافات صغيرة تسحر الذهن روعة، بينما المشي بمفردنا صحبة الجداول والأشجار سيحقق بدلًا من ذلك أحلام يقظة، بعيدة كل البعد عن جمود الاستبطان المنهجي، لكن بواسطة هذه الخصوبة الفائقة: يبدو الأمر كما لو أن الروح تشرد برفق بمشهد الزهور وخطوط الأفق، فتنسى نفسها قليلًا، وبالتالي تنكشف أمامها بعض وجوهها المقنعة التي اعتدنا إخفاءها. إن سر المشي يكمن في جاهزية الذهن، وهو أمر نادر للغاية في حياتنا المزدحمة والمستقطبة، والأسيرة لعنادنا الشخصي. ويعدّ التهيؤ والجاهزية تركيبةً نادرةً من التخلي والنشاط، مما يجعل النفس تنجذب للنزهة. تجد الروح بالفعل جاهزيتها في عالم المظاهر. وهي ليست مدينة لأي شخص، وهي لا تخضع لحتمية تحقيق التماسك. وفي هذه اللعبة التي لا تترتب عليها نتائج، من الممكن أن يمنح العالَم نفسه بسخاء إلى المتنزّه، خلال تجواله العجيب، أكثر مما يمنحه للملاحظ الجاد المنتظم.

لا يمكن تقديم هذه الاكتشافات وأفراح النزهة إلا لأولئك الذين يمارسونها بحرّية. لا ينبغي أبدًا البحث عنها لذاتها، كما لو كانت النزهة منهجًا يلزم اتباعه. ستعرض النزهة نفسها تلقائيًا على أولئك الذين يستدعونها لحظة شمس نادرة، متخلّين بغبطة عن أعمالهم المعلقة، لكي يمنحوا أنفسهم فقط وقتًا للفراغ. ينبغي أن تخرج بقلبٍ مفعم بالنشاط

ورغبة في ترك عملك ومصيرك لفترة من الوقت. وبهذه الطريقة فقط -إذا كنت لا تتوقع أي ربح معيّن من خروجك، إذا تركت قلقك ومخاوفك كليًا خلفك وأودعتها في الأدراج كلها- ستصبح النزهة اللحظة الجمالية المجانية التي تجعلك تكتشف خفة الحياة، وحلاوة الروح الممنوحة بحرّيةٍ إلى نفسها وإلى العالم.

نكون مع فنّ التنزّه أمام تقنيةٍ للترفيه، ولكن قد يكون هذا الترفيه أيضًا استجمامًا. هذا صحيح وبشكل خاص في المدينة. عادة، نسير في الشوارع بطريقة عملية للغاية، للذهاب من أجل شراء الخبز، والبحث عن المترو، والتسوق، والذهاب لرؤية صديق. وحينئذ تصبح الشوارع ممراتٍ فقط. نسير مطأطئين رؤوسنا. لا نستكشف إلا النافع. نحن لا ننظر إلى أي شيء، نحن نعيّن الأشياء، نرى فقط ما سيكون فعالًا: صليب الصيدلية الذي يعلمني أنه يجب عليّ أن أتوجه نحو اليمين، مدخل المبنى الكبير الذي يذكرني بأن المخبزة موجودة في الزاوية. وهكذا يصبح الشارع نسيجًا من العلامات اليسيرة، التي تومض، إلا أن منظرها سيكون قد انطفأ بالنسبة إلي.

يجب أن نمنح أنفسنا هذا الترف الباهر والسهل للتنزه في الحي الذي نعيش فيه، والمشي فيه بخطوة غامضة، ومترددة، لنقرر أن نطوفه من أجل لا شيء، عيوننا مرفوعة أخيرًا وببطء. وحينها تحدث المعجزة. وبواسطة المشي فقط، دون ركض، دون أن نكلف أنفسنا بأية مهمة محددة، نشعر بالمدينة كما لو أننا نراها لأول مرة. نظرًا لعدم اهتمامنا بأي شيء على وجه الخصوص، يُقدّم كل شيء بوفرة: الألوان والتفاصيل والأشكال والهيئات. إن النزهة، والمشي بمفردنا وبلا هدف، يجعلنا نكتشف هذه الرؤية: أرى لون الأرابيسك على طول الحاجز المشبك الأسود، أرى غرابة المنازل الممدودة حتمًا مثل زرافات حجرية وغيرها من السلاحف السمينة المسطّحة، أرى مكونات النوافذ، وعندما أسير عند غروب الشمس أرى الواجهات ذات اللون الأزرق الرمادي والنوافذ البرتقالية. وهكذا سأنتزع عن الشوارع أوراقها الواحدة تلو الأخرى.

حدائق عمومية

ورغم ذلك هناك حالة، تَفسد فيها النزهة بالبهرجة الدنيوية، بدلًا من الكشف عن الجوهر الجمالي للشوارع أو الريف. وأعني هنا النزهات الأنيقة، المهذبة، حيث يمشي المرء، لكي يُنظر إليه، قبل أي شيء آخر. لا شك أن الرمز الباريسي يتمثل في حديقة التويلري التي كتب كورني بأنها «أرض عالم الأناقة والإطراء» (الكاذب)[1]. إن الطبيعة مُروَّضة تمامًا هناك: توجد سياجات خشب البقس مقطوعة بحبل ومسارات مستقيمة وأشجار مشذبة بدقة ونوافير صناعية وتماثيل رائعة. في الماضي، كان المجتمع الراقي فقط من يستطيع دخولها، وكان الدخول ممنوعًا على أرذل الناس و «الخدم» الذين ينتظرون بشكل جماعي، وهم ينتظرون عند المدخل أن سيداتهم ينتهين من عرض أناقتهن بين معشر الخاطبين -لكن يسمح بالدخول للفتيات المحررات بشرط أن ترتدين ملابس أنيقة، وتكونن جميلات أو يصطحبهن مرافق أنيق. في الصيف، يمكن البقاء هناك حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل تحت الضوء البرتقالي والانعكاسات الأرجوانية، وبين عذوبة الليل القادم ببطء، وغبار آلاف الخطوات. تحمل الأشجار كلها اسم امرأة حفره عشاق حزينون بسكاكينهم.

دعونا نذهب إلى التويلري،

لنحافظ ساعة الزوال، على أحلام يقظتنا الحزينة[2].

إن حديقة التويلري هي المكان المنشود إذن، بالنسبة إلى الفتيات الصغيرات المرصّعات بالزهور أو النساء المتزوجات اللائي يبحثن عن المغامرة، أو الأرامل الباحثات عن السلوى. لأن المرأة تشعر بمللٍ قاتلٍ وهي لا ترى أمامها إلا رجلًا واحدًا، والمقصود هنا زوجها طبعًا، وهي تتوافق مع اختراع الحدائق كما يلاحظ شارل سوريل في كتابه تعدد الأزواج[3]: إن معظم النساء النبيهات يعجبهن كثيرًا السير في متنزهات اللوكسمبورغ أو التويلري،

(1) مسرحية للكاتب المسرحي بيير كورنيه (1606 – 1684). كتب مسرحية الكاذب عام 1644م. (المترجم)

(2) مسرحية التويلريين.

(3) للهرج في التويلري.

ويشعرن بغبطةٍ كبيرةٍ عندما يتعرّفن كل يوم على أشخاصٍ جدد[1].

أما ذهاب الأزواج إلى هناك فيكون سلوكًا غير لائق.

يكون المشيء ببطء في الأزقة الرئيسية للحدائق، وفي بعض الأحيان يتم التوقف (أو بالأحرى، تؤخذ الاستراحة)، لكن هذه ليست مقاومة سياسية للسرعة، ولكن البطء وحده ما يتيح التحديق بسهولة ويسمح للآخرين برؤية زينة المرأة وسحرها، معلنة بذلك حجم ثقافتها للآخرين. يجب الاعتناء بالمظهر عناية فائقة (يجب أن نعرف ألا تسامح عند دخول الحديقة، ولا يسمح لأي شيء بالمرور: «الوجوه هي عبارة عن روائع فنية / حيث لا حظَّ للطبيعي في كثير من الأحيان»)، بعد اختيار الشريكة (لتفادي الأشخاص المزعجين الذين يعيقون أية مواعدة محتملة)، يجب أن نندفع بجرأة: إنه الانتصار على الطريقة الباريسية. لماذا تتنزه؟ يعتقد لابروييِر أنه يعرف الجواب: «لإظهار قماش جميل ولتجني ثمرة تجميلها». الجميلات يُثرن بخطواتهن همسات البهجة. لكن الأمر لا يتعلق بالمشي، بل يرتبط بالعثور على خطوة مصطنعة، وتبختر مدروس. كما تنصح خادمة سيدتها: من الضروري أن تفعلي كما تفعل الجميلات كلهن، ألا تخاطري هنا بخطوة طبيعية. وأنت معي في الممشى الكبير، على سبيل المثال: عليك **أن تتحدثي معي دون أن تقولي شيئًا كي تبدين مرهفة الروح، وتضحكين بدون موضوع للحصول على مظهر مرح، وتنتصبين في كل لحظة لترفعي عنقك، وتفتِّحي عينيك لتكبيرهما، واقضمي شفتيك لتصبحا متوردتين**[2].

في البداية، يمكننا، إذًا، أن نرى الممشى الكبير، الذي يشبه المسرح الرئيسي حيث يسارع الناس فيه ليشاهد بعضهم بعضًا، ويبدي بعضهم رأيهم حول بعض:

إنها حرفة العالم الراقي.

هنا الأبهة العظيمة،

عند غروب الشمس،

تأتي السمراء والشقراء للتباهي

---

(1) المصدر نفسه

(2) نزهات باريس.

هنا تستعرض الدانتيلا والأقمشة والشرائط.

هنا يأتي المتجولون كلهم ليعرضوا في المزاد قامتهم ووجوههم.

هنا نلتقي الناس في الموعد،

حيث جميع الأشياء توجد،

وجميعها تتعارض،

لأنها تتشابه كلها[1].

ولكن هناك مشاهد صغيرة أخرى، ممرات عرضية لكل منها تخصصها: على الجانب الشرقي، هناك سلسلة من المقاعد «للتأمل بحرّية» (إنه ممشى المراقبين والمنددين)، وهناك ممرات ظليلة أخرى معروفة بالمواعيد السرية، وأخيرًا هناك بعض اللقاءات العذبة والحزينة للمكتئبين.

إن تعدد المشاهد يجعل من حديقة التويلري كوميديا، حيث يكون الجميع ممثلًا ومتفرجًا في آن واحد. نرى، كما هو الحال في المسرح، جميع الأنواع: المتدللة المجنونة بتبرجها، الشهم المضحك، القاضي المتصنع والمتغطرس، الضابط المتباهي، السيد الصغير[2]، البورجوازي، الشاب المغرور، طالب اللاهوت السابق، «النمام» الذي ينشر الشائعات، والذي يستفسر منه الجميع عن أحدث كذبة[3]، وبالطبع هناك بعض السكارى. يحاول كل واحد، قدر الإمكان، السير منتصب القامة، مستعرضًا ثروته، الضئيلة أو الفخمة، راصدًا بطرف العين التأثير الذي يمارسه على الآخرين. يضعون ربلات مزيفة، ويصنعون وجوهًا مزيفة، ويستعرضون ألماسهم، ويتحدثون بصوت عالٍ.

في غمار هذا الجولان الدائم، نبحث عن بعضنا، ونتجاهل بعضنا، ونقيّم أنفسنا، ونستنفد أنفسنا كي نبدو (سعداء أو تعساء: لكن يجب أن يبدو ذلك على محيّانا). وبعيدًا عن الاختلافات، كما تقول القصيدة

(1) المصدر نفسه.

(2) «أسميه السيد الصغير ومتكلم كبير بالهراء، ورصيد من البؤس والنفاق» نقد جديد لنزهات الساحة الملكية، في التويلري وباب سان برنار».

(3) يرسم بروير صورة جيدة: «إنه رجلٌ وُلد من أجل الذهاب والإياب في الماشي، يعرف الضجيج الجماعي، وقصص المدينة؛ لا يفعل شيئًا، يقول أو يسمع ما يفعله الآخرون».

«يتشابهون كلهم»، والمقصود مرة أخرى، أنهم يتبادلون المجاملات الأكثر مدحًا، بينما يحتقرون بعضهم سرًّا ويسخرون من بعضهم:

شديمٌ[1] ينظر شزرًا

ساخرًا من أعور

حمازٌ يضحك من مغفل، ومخدوع من نغل

وكل امرأةٍ تسخر من خليلها[2].

وبين حفل التهكم المهموس، تنسج المكائد: نتواعد، نتظاهر باللقاء، نلاحق غرباء، نوثق حوارًا، وتفقد النساء قفازاتهن، ثم يركض الشاب ويجثو لالتقاطها. إنها «ساعة التويلريين».

(1) شديم: قرد البحر الأبيض المتوسط، للدلالة على قبح الوجه والمكر (المترجم)

(2) نزهات باريس.

متسكع المدن

اشتهر فالتر بنيامين، بدراساته الباريسية، وبشخصية المتسكع، البعيد كل البعد عن شخصية المتنزِّه التويلري المهذب. إذ قام فالتر بتحليلها ووصفها ورصدها انطلاقًا من إعادة قراءة بودلير: وسويدائه في باريس، و«لوحاته الباريسية» **في أزهار الشر**، ورسوماته عن الحياة الحديثة. يفترض التسكع ثلاثة عناصر أو تَتَاضُد ثلاثة شروط: المدينة، الجمهور، والرأسمالية.

إن تجربة المتسكع هي فعلًا تجربة المشي، لكننا بعيدون كل البعد عن نيتشه أو ثورو. إلى جانب ذلك، فإن المشي في المدينة يشكّل معاناةً لمحبي المشي في الطبيعة لمسافات طويلة، لأننا نفترض، كما سنرى، إيقاعًا معرقلًا وغير منتظم. يبقى أن المتسكع يمشي خلاف المشاهد البسيط، الذي يتوقف بشكلٍ دائم، أمام مصادر الجذب، أو يظل مفتونًا بعروض واجهات المتاجر. يمشي المتسكع، ثم ينزلق وسط الحشد.

يفترض المتسكع هذه التجمعات الحضرية التي تطورت في القرن التاسع عشر، وهي تجمُّعات سكنية، يمكن للمرء أن يمشي بينها لساعات دون رؤية حيز من الريف. عندما تمشي في هذه المدن الكبرى (برلين، لندن، باريس)، فإنك تعبر العديد من المناطق، التي تُشكّل عوالم مختلفة وفريدة ومنفصلة. كل شيء يمكن أن يتغير من منطقة إلى أخرى: حجم المنازل، الهندسة المعمارية العامة، الجو، الهواء الذي نتنفسه، طريقة المعيشة، الضوء، الأنواع الاجتماعية. يفترض المتسكع تلك اللحظة التي اتخذت فيها المدينة أبعادًا تجعلها منظرًا طبيعيًا. يمكنك المشي كما تفعل في جبل، بممراته بين المرتفعات، وانقلاب المناظر الطبيعية، وكذلك مخاطرها، ومفاجآتها، فتتحول إلى غابة، وأدغال.

أما العنصر الثاني الخليق بابتهاج المتسكع فهو الحشد. يمشي المتسكع داخل الحشد ومن خلاله. هذا الحشد الذي يسير المتسكع وسطه هو جمهور حقيقي: كادح، مجهول، مشغول. هؤلاء الأشخاص في المدن الصناعية الكبرى، الذين يعودون من العمل أو يذهبون إليه أو يهرعون إلى مواعيد عمل، أو يستعجلون لإرسال طرد أو الوصول إلى موعد، هم

ممثلو الحضارة الجديدة. هذا الحشد معادٍ كل العداء لكل واحد من مكوناته. يريد كل شخص أن يصل بأسرع طريقة، غير أن الآخر يصبح عقبة في طريقه. على الفور يحول الحشد الآخر إلى منافس. ليس الحشد من يمشي، وإنما المظاهرات، والإضرابات، ومطالب الوحدة، ذلك الحشد الملحمي، وتلك الكتلة من الطاقة الهائلة. على العكس من ذلك، يكتشف الجميع اهتمامات متناقضة، على أعلى مستوى ملموس من تنقلهم. نحن لا نلتقي بأي شخص، لأن الوجوه مجهولة، ومتجهمة معظم الوقت. ومن الناحية الإحصائية، من غير المرجح أن نتعرف إليهم. كانت التجربة الشائعة في القرون السابقة أن وجود شخص غريب في المدينة يصنع مفاجأة: وجهٌ مجهول. من أين أتى؟ ماذا يفعل هنا؟ لكن اليوم، صار إخفاء الهوية هو القاعدة. وقد يشعر المرء بالصدمة إذا تعرّف عليه الآخرون. في الحشد، تختفي تمامًا الشيفرة الأولية للقاء. من المستحيل أن تقول صباح الخير، وأن تتوقف، لنتبادل كلمات قليلة حول الطقس.

العنصر الثالث: الرأسمالية، التي يعتبرها فالتر بنيامين، بتعبير أدق، سلطان السلعة. لأن الرأسمالية تحدد هذه اللحظة عندما تتوسع السلعة، لكي تنتقل أبعد من منتجات الصناعة: إلى الأعمال الفنية والناس. يصبح العالم سلعة: وكل شيء موضوعًا للاستهلاك، كل شيء يباع ويشترى، ويعرض في السوق الكبير لطلبٍ غير محدد. مملكة الدعارة المعممة: يتعلق الأمر بضرورة أن تبيع وتباع.

***

إن المتسكع **مخلخل**. إنه يخلخل الحشد والسلع والمدينة، وكذلك قيمهم. بينما يتجول المشاء في الفضاءات الكبيرة لمسافات طويلة حاملًا حقيبته على ظهره، فارضًا على الحضارة بهاء قطيعة، وحدّة ممانعة (جاك كيرواك، غاري سنايدر ...). إن فعل المشي عند المتسكع أكثر غموضًا، ومقاومته للحداثة متناقضة. ليس الهدم معارضة، ولكنه طواف، وانعراج، ومبالغة إلى حد التغيير، وقبول إلى حد التجاوز.

إن المتسكع يخلخل الشعور بالوحدة والسرعة والمضاربة التجارية والاستهلاك.

خلخلة العزلة. لقد قيل الكثير عن تأثير الازدحام كسلسلة غير محددة

من الوجوه الأجنبية، وتراصّ من اللامبالاة التي تصبح فيها العزلة المعنوية أشد عمقًا. يشعر كل شخص بأنه غريب عن الآخر، يُنتج تزايد هذا الشعور غذاءً كثيفًا، مما يجعل الجميع فريسة للجميع. يسعى المتسكع إلى إخفاء هويته، لأنه يتوارى دائمًا ويذوب جيدًا في الكتلة الميكانيكية، ولكن بحركةٍ تطوعية، للاختفاء. لذلك، فإن إخفاء الهوية ليس عائقًا ليسحقه، لكنه فرصة للاستمتاع بالتخفي: إنه يشعر بذاته الحقيقية، من عمقه الداخلي. وبما أنه مختبئ، فلن يحس أن إخفاء هويته يشكل عائقًا، ولكن شبيه بفرصة. إنه يحفر داخل العزلة الكئيبة الكثيفة للحشد، ويحتل وضع المُلاحظ والشاعر: لا أحد يراه وهو يشاهد! إنه يشبه انسحاب الكتلة، إن المتسكع منزاح انزياحًا حاسمًا، وهو انزياح لا يستبعده ولا يهمشه، وإنما يجعله شاردًا عن الكتلة المجهولة، وهذا يميزه بفرادة خاصة.

خلخلة السرعة. بين الحشد، يكون الجميع في عجلة من أمرهم، بمعنى مزدوج: الجميع يريد أن يسير بسرعةٍ لكن تعترضه عراقيل. ليس المتسكع مجبرًا، أن يذهب هنا أو هناك. لذلك يتوقف عند ومضات الضوء، وتستوقفه الوجوه، ويبطئ عند التقاطعات. لكنه مقاوم سرعة المتاجرة، يصبح بطؤه الشرط الضروري لسرعة فائقة: ونعني حالته الذهنية. لأنه يلتقط الصور في لمح البصر. المار المستعجل يزاوج بين الوتيرة السريعة للجسد وبين غباء العقل. إنه لا يريد غير السير بسرعة بينما يريد أن يدور عقله في الفراغ، ببساطة مشغولًا بحساب الفجوات. أما المتسكع فيخفض من سرعة جسده، لكن عينيه تدوران وعقله مأخوذ بآلاف الأشياء في وقت واحد.

خلخلة المضاربات. يقاوم المتسكع، الإنتاجية المحيطة، والنفعية المحيطة به مقاومة كلية. إنه عديم الجدوى تمامًا، وبطالته تبعده نحو الهامش. ولكنه، لا يمكث أبدًا بدون فعالية. إنه لا يفعل شيئًا، لكنه يتعقب كل شيء، يُلاحظ، وعقله دائمًا في حالة تأهب. لا يتوقّف أبدًا عن خلق صورٍ شعرية عن طريق الصدمات واللقاءات. وإذا لم يكن هناك متسكع، فسيتابع كل واحد طريقه، ويخلق سلسلة من الظواهر الخاصة به، دون أن يتمكن أي شخص من أن يُشاهد ما يحدث عند ملتقى الطرق. يدرك المتسكع الومضات، والاحتكاكات، واللقاءات.

خلخلة الاستهلاك. الحشد هو أن تخوض تجربةَ تَحوُّلك إلى سلعة.

وعندما أرتجّ، وأُدفع بواسطتها، فإنني أقتصر على أن أكون سوى منتوج معرض لحركات مجهولة. أنا أقدم نفسي، أستسلم لحركة الدوران. وبين الحشود، أبذل مجهودًا متواصلًا كي أصبح سلعة للاستهلاك: من خلال الحركات التي تُقيد جسدي، ووسائل النقل التي تنهشني. فأنا مُستهلك بواسطة الأزقة والشوارع. لا توجد اللافتات وواجهات المتاجر إلا من أجل تكثيف تبادل السلع. لا يَستهلك المتسكع ولا يُستهلك. إنه يمارس الالتقاط أو حق السرقة. ولا يتلقّى مقابل جهوده، مثل المشّاء في السهول أو الجبال، هبة المناظر الطبيعية، ولكنه يلتقط، وينال لقاءات بعيدة الاحتمال، لحظات عابرة، وصدفًا هاربة. إنه لا يستهلك، لكنه لا يكف عن التقاط صور الملصقات، وبذلك يمطر نفسه، بوابل رفيع من الصور المسروقة، في لحظة لقاءات غير متوقعة.

ومع ذلك تبقى الإبداعية الشعرية للمتسكع غامضة: إنها، كما قال فالتر بنيامين، «مُتوهِّمة». إنها تتجاوز فظاعة المدن للإمساك بالأعاجيب العابرة، إنها تستكشف شعر الصدمات، ولكن دون التوقف لإدانة استلاب العمل والجماهير. لدى المتسكع أشياء أفضل للقيام بها: لأنه يعيد أسطرة المدينة، وابتكار آلهة جديدة، واستكشاف السطح الشعري للمشهد الحضري.

إن سلالة التسكع البودليري متعددة. نجد منها التيه السوريالي الذي سيثري فن التسكع ببُعدين جديدين: الصدفة والليل (أراغون في بيت، شومو في فلاح في باريس، وبروتون في بحثه المهلوس عن الحب في نادجا). سوف نجد أيضًا نظرية الانجراف الموضعي التي وضعها غاي دوبورد، التي تستكشف حساسية الاختلافات (أن يترك المرء نفسه للأجواء الحميمية كي تغيّره). السؤال الذي يطرح نفسه هو ما إذا كان في عصرنا الحالي مع توحيد العلامات («السلاسل الاستهلاكية» كما نقول بدون سخرية: الحلقات الصغيرة المتطابقة، وهي تحكم حصارها علينا) والغزو العدواني للسيارات مما يجعل التسكع أكثر صعوبة وأقل متعة ودهشة. فنقوم بإنشاء مسافات للتسكع الإجباري، ولكنه معلق من أجل الإيعاز بالشراء.

إن المشّاء الرومانسي العظيم، في قصائد واندر الأبدية، كان يتواصل مع الوجود. لأن المشي كان حفلًا رائعًا للوحدة الصوفية، حيث يكون المشّاء حاضرًا في الوجود، يلتفُّ في رحم خالص للطبيعة الأم. نجد لدى روسو،

وردزورث، هذا الاحتفال بالمشي كشهادةٍ عن الوجود والاندماج الصوفي. ما نحتفظ به في شعر وردزورث المتوازن أو النثر الموسيقي لروسو هو عمق هذا التنفس، ونعومة الإيقاع.

لا يسعى متسكع المدن ليجعل نفسه حاضرًا في امتلاء الكينونة، ولكن فقط كي يبقى مستعدًا للصدمات البصرية المتفرقة. يحقّق المشّاء وجوده في هاوية الانصهار، أما المتسكع فيحققها بأن يتبدد في انفجارٍ لا محدود من الشظايا.

جاذبية

نسيت تلك اللحظات القصيرة من النعمة، التي تعود أحيانًا إلى التعب الشديد، لحظات قصيرة من النشوة عندما يسير الجسم، أثناء المشي، من غير أن يحس بنفسه، كأنه ورقة ذابلة تأخذها الرياح. وعلى الخصوص عندما نمشي لفترة طويلة وحيث يكون التعب هائلًا، فنتوقف فجأة عن الإحساس. فحينئذ، طالما أن المسار مرسوم جيدًا وليس شديد الانحدار، فإننا لا ننظر إلى الطريق، ولا نفكر في أي شيء، فتنوب القدمان عن الوعي لاختيار مكان الدوس الصحيح، وتجنب العقبات، بالنسبة إلينا، لم يعُد موجودًا، إنها لحظة التخلي اللانهائي. ننتهي من المشي ونحن في غمرة نوع من الحلم، فتكتسب الخطوة حينئذ، اليقين والسرعة. وبمجرد موافقتنا على التوقف عن التفكير نهائيًا، لا نشعر آنذاك بالخفة، لأننا لم نعد نحس بأي شيء: يمتص الطريق القدمين، ويطفو العقل فوقهما. عندما نركض، هذه المرة، فترة طويلة، قد نشعر أيضًا بإحساسٍ هائلٍ من الخفة، كما لو كنا محمولين بركضنا الشخصي. وبعد لحظة، وأحيانًا بعد لحظات، من «الإحماء»، يتوحّد أخيرًا، الجسم كله بتنفسه، فتتلقى القدمان، وهما على الطريق، نداءً للوثب. يشبه ذلك رحلةً من التحليق المنتظم والمتكرر. إن تجربة الخفة أثناء الركض متميزة تمامًا عما يمكن للمشي أن يُنتجه، في أوقات نادرة جدًا، مثل الشعور بالطفو الذي استحضرناه سابقًا. ليس الشعور بالنشوة، كما هو الحال خلال الركض، عندما تشعر بتوتر العضلات التام، بل هو انفصال للعقل الناتج عن التعب، إنه تخدير تدريجي. إن خفة السباق هي هذا الانتصار بدون تعب ضد الجاذبية، والتأكيد السهل لسمو الجسم. نطفو بالمشي عندما تتمسك القدمان في النهاية بالمسارات إلى درجة توحدهما معًا، فينسى العقل، بدافع الضجر، أن يكون صدى لإرهاقهما.

وبشكل عام، تبقى تجربة المشي بمنزلة إحساس بالجاذبية. أنا لا أقصد بالضبط جسما ثقيلًا ووازنًا. حتى إن كان ذلك في بعضِ الأحيان صحيحًا، عندما لا تزال هناك ساعات عدة قبل المرحلة القادمة، والمسار متصاعد، فإن كتلة الجسد تصبح محسوسة في كل خطوة، وعلى مستوى الركبتين، نكتشف شعورًا يشبه الطرق على الحديد. لكنني بالأحرى أريد أن أعبر عما

نعيشه خلال هذه الأيام الهائلة في العراء: عند كل خطوة، نشعر بالارتباط، فتحطّ القدم باستمرار؛ وفي كل لحظة، نغوص إثر وقع الأقدام الأبدي، لكي نرتفع من جديد. هكذا يجب أن نتجذر في كل مرة ننطلق فيها من جديد. وبهذه الطريقة تأخذ القدم في التجذر: من خلال هذا الارتباط المتكرر بالأرض. تُشكّل كل خطوة علاقة بأخرى. لا توجد وسيلة أخرى، لتكون أكثر ارتباطًا بالأرض أفضل من المشي: رتابة الأرض المفرطة.

أفكر في الأشخاص الجالسين الذين يقضون حياتهم في المكاتب، وهم ينقرون بأطراف الأصابع على لوحة المفاتيح: متصلين بالشبكة، كما يقولون. لكن بماذا؟ بالمعلومات المتغيرة ثانية بعد ثانية، وبتدفّق الصور والأرقام، الجداول والشبكات. بعد العمل، يتوجّهون إلى مترو الأنفاق، القطار نفسه، السرعة دائمًا، نظراتهم مسمرة هذه المرة على شاشة الهاتف، ومرة أخرى بلمسة على المفاتيح يتصفحون الرسائل والصور. يحلُّ المساء، في حين لم يتسن لنا رؤية النهار. التلفزيون: شاشة أخرى. وإذًا، في أي بُعْد يعيشون، دون نقع غبار، دون اتصالٍ بالطبيعة، وفي أي مكان دون رونق، وفي أي وقت لا نفطن فيه للأمطار أو الشمس؟ هذه الحيوات المتخلّصة من المسارات والطرق، تجعلنا ننسى وضعنا: وكأن لا شيء من إنهاك الفصول والزمن موجود.

قال حكيم طاوي: «الأقدام على الأرض تشغل مساحة صغيرة جدًّا؛ وفي كل مساحة لا تسير عليها، يمكنك المشي». وهذا يعني أولًا وقبل كل شيء أنك لن تمكث ثابتًا في مكانك. انظر إلى الرجل الواقف منتظرًا، بلا حراك، وبارتباك: إنه يخبط الأرض، ويدوسها، ويشعر فورًا باحتكاكها. لا يعرف ماذا يفعل بذراعيه، يأرجحهما ضعافًا أو يمسكهما بقوة إلى جسده. إنه في حالة توازن غير مستقر. وما أن يشرع في المشي، حتى يجد، على الفور: الطبيعة تتكشف، وتتحقق، فتسترخي طاقة الجسم، ويبدأ الإيقاع مرة أخرى. تجد القدم توازنها الجيد.

لا شك أن تشوانج تسيو[1] كان يريد أن يقول إن القدمين على هذا النحو هما عبارة عن قطع صغيرة من الفضاء، لكن ميولهما هو: («المشي») تعبيرًا عن فضاء العالم. إن حجم القدم، وتباعد الساقين، ليس لهما مكان، ولا يمكن ترتيبهما في أي مكان. لكنهما يقيسان كل شيء آخر. تُشكّل أقدامنا

(1) أعمال المعلم تشوانغ. ترجمة. ج. ابفي، باريس، موسوعة المنغصات، 2006.

هذا الفرجار الذي ليس له مكان ليحتلّه، ولكنه يقوّم المدى فقط. تذرع الساقان المكان. وتباعدهما يشكل مقياسًا جيدًا للعالم.

أخيرًا، أقول لنفسي إن بواسطة ما تبقى من مسافة، يمكنني أن أمشي، وبلا ريب فإنني أحيلُ هنا على الفراغ الطاوي: هذا الفراغ، الذي لا يُعتبر فراغًا أجوف، بل احتماليةً خالصةً، وفراغًا خلّاقًا للإلهام واللعب، مثل لعبةٍ بين الحروف، وبين الأصوات، أي ما يصنع حياة الكلام. المشي بهذه الطريقة يُعبّر عن عمق الفضاء ويعيد الحياة للمشاهد الطبيعية.

ولنختم. لاحظتُ أن العديد من الأنشطة الرياضية، يكون مصدر الفرح من جراء تجاوز الجاذبية، ومن الانتصار عليها: بواسطة السرعة والارتفاع والاندفاع والإلحاح على الارتقاء عموديًا. لكن المشي على العكس من ذلك هو اختبار، في كل خطوة، للجاذبية، والمغنطة العنيدة للأرض. إن الانتقال من العَدْوِ إلى الراحة يضعُنا في وضعٍ عنيف، إذ يستبد الألم بالأضلع، وبسرعة كبيرة نتفصّد طوفانًا من العرق، بينما يصبح وجهنا مدبوغًا، آنئذ نتوقف، لأن الجسم سينهار، والتنفس لم يعد منتظمًا. عندما نمشي، على العكس، فإن التوقف يشبه إنجازًا طبيعيًّا: نتوقف لاستقبال منظر جديد، واستنشاق المناظر الطبيعية. ثم نغادر، لا يشكّل هذا الأمر قطيعة. هناك استمرارية بين المشي والاستراحة، لأن المسألة لا تكمن في تجاوز الجاذبية، وإنما في إكمالها.

وهكذا فإن المشي يذكّرنا، باستمرار، بمحدوديتنا: جسمٌ ثقيل ذو احتياجات فظة، مسمر إلى الأرض حتى النهاية. إن المشي لا يعني الارتفاع، وليس خداعًا للجاذبية، وليس إيهامًا للنفس، بالسرعة أو الارتفاع، عن شرط الموت، ولكن، بالأحرى هو إنجاز من خلال التعرض لصلابة التربة، وهشاشة الجسم، وللحركة البطيئة للاختراق. إن المشي هو بالتحديد استسلام لنصبح هذا الجسم الذي يمشي هشًّا ومائلًا. لكن الشيء المدهش في الأمر، أن هذا الانقياد البطيء، وهذا التعب الشديد ما يمنحنا فرحة الوجود. ولنكون ذلك حقًا، يجب أن نحقق تناغمًا كليًا. سيسقط جسمنا الرصاصي في كل خطوة على الأرض، كما لو أنه يتجذر هناك. إن المشي إغراء بأن يموت المرء واقفًا.

عنصر أوّلي

عندما نذهب للمشي أكثر من بضعة أيام، أكثر من أسبوع، فإننا نعبئ حقيبتنا، لكن السؤال ذاته يطرح نفسه دائمًا: هل هذا ضروري حقًا؟ بالطبع، تُطرح مسألة الوزن، لأنه إذا كنا غير قادرين على التخلي عن أغراض الرفاه، وزدنا الحمولة ثقلًا، فإن المشي يمكن أن يتحول إلى كابوس. إذن السؤال نفسه يتكرر: هل هذا ضروري حقًا؟ لأننا يجب أن نخفّض الوزن قدر الإمكان. الأدوية، مستلزمات النظافة، الملابس، الطعام، أغراض النوم، إنه الهوس نفسه دائمًا: التخلي عن الزوائد، عن الأشياء غير الضرورية. والاحتفاظ فقط بما نحتاجه للمشي، وما نحتاجه للعيش؟ ماذا نحتاج أثناء المشي؟ ما نحتمي به من البرد والجوع. لا شيء يؤخذ عادة لتمضية وقت الفراغ أثناء السفر سيصلح هنا.

كتب ثورو: «لا يمكننا أن نُمضي وقت الفراغ دون أن نجرح الأبد على الفور» نحن لا نمشي لإضاعة الوقت، ولكن لاستضافته، وتوريقه على وقع الخطوات، إلى ثوان، وبتلات. كل ما يمكن أن يمضي الوقت، ويلهي، ويرفّه عن الجسم والعقل، ويشغّله، ويفعم الأيام، ويجعل الناس يعتقدون، هو بالتأكيد رزخ ثقيل للغاية. من خلال الفرز بين ما ستأخذه وما ستتركه، دون القلق من تأثير ذلك، أو أي اعتبار للمظهر، أو حتى الرفاه أو الأسلوب، لا يجب أن يتدخّل أي اعتبار اجتماعي. ما يهم فقط هي العلاقة الصارمة بين الوزن والفعالية. نحن بحاجةٍ أثناء المشي للضروري، فحسب. لأن المشي عيشُ وجودٍ مصقول (لقد ذاب الغطاء الاجتماعي) تخلّص وتحرّر من العلاقات الاجتماعية، ونظّفها من التافه ونزع الأقنعة عنها.

يعدّ الضروري مستوىً أقل من المجدي. والمجدي هو ما يكثف القدرة على العمل، ويزيد من إنتاج الفاعلية، ويزيد من الدِراية. وبذلك يبقى ما هو عديم الجدوى، وزائد عن الحاجة مرهونًا بتقدير الآخرين أو بالتفاهة الذاتية.

في مستوى أقل من المجدي يكمن الضروري[1] الذي لا يمكن الاستغناء عنه، وغير القابل للاستبدال. وفي حالة غيابه ندفع مقابله فورًا تثبيتًا وتوقفًا ومعاناة. ثم ثمة الأحذية الصلبة والملابس الواقية أو الاحتياطية والمؤونة والدواء والخرائط الجغرافية... ومن أجل المنافع البسيطة، هناك دائمًا معادلات طبيعية: نستغل الأغصان في (الأوتاد والعصي والعكاكيز) والأعشاب في (المناشف والوسائد).

مستوى أخير هو المستوى الأساسي أو الأولي. إنه انقلابٌ تقريبًا. أتذكّر ذلك، عند سفح جبل في سيفن. كان ما زال ثمة ست إلى سبع ساعات من المشي لبلوغ القمة. وكان الطقس جيدًا والليالي ما تزال دافئة. وهنا ألهمت القرار: كانت الحقيبة قابعة في جوف شجرة. لم يتبقَّ شيء، فوق الكتفين أو في الجيوب. قضيتُ يومين هكذا، لا أحمل شيئًا. في البداية شعرت بخفّةٍ هائلة، متخلّصًا حتى من الأشياء الضرورية. ودون أن أتوفر على أدنى شيء. لا شيء إطلاقًا. لم يعد هناك شيء يحول بيني وبين السماء، بيني وبين الأرض (المياه العذبة آخذها من الجدول، وأشربها بواسطة راحة يدي؛ أتناول توت العليق والتوت البري؛ وأستطيب حلاوة الأرض لحظة النوم).

يبدو أن الأوّلي يشبه مَلْئًا للوجود. ويتميز الضروري عن غير المجدي. ولم يعد الأساسي أو الأولي يُعارض: لأنه أصبح يشكّل كل شيء بالنسبة إلى الشخص الذي لا يملك شيئًا. العنصر الأساسي أو الأولي، هو الطبقة الأولى، المُغرقة في القدم، والتي لا يمكن للمرء سوى تجربة القليل جدًا من كثافتها، لأنها لا تمنح صفاءها إلا للشخص الذي تخلّص، في لحظة من اللحظات، من الضروري. أحيانًا وفي لحظات معينة، يجعلنا المشي نشعر بها. وخلاف ذلك، فإن بلوغها يتطلّب تحولًا قاسيًا وخطيرًا ومفرطًا.

وهنا يجب التمييز مرة أخرى بين اليقين والثقة. نشعر بالثقة، لأننا نملك الضروري لمواجهة التحديات: مواجهة تقلبات الطقس، المسارات المتعددة، غياب مصادر الماء، والليالي الباردة. نشعر حينذاك أنه يمكننا الاعِتماد على أجهزتنا وخبرتنا ومهاراتنا للتكهن. إنها ثقة الرجل التقنيّ، الذي يتحكم في المواقف. الفطِن والمسؤول.

(1) الفرق هنا بين الضروري والأساسي لا ينقل ما قبل حول الكلبيين. بالنسبة للكلبي، تتعلق المسألة بأن نجعل هذين المفهومين منفصلين وإظهار على الخصوص، كيف يمكن أن يفجر كل منهما الثنائيات الكلاسيكية (المظهر والجوهر والنافع والتافه). هذه المرة يتعلق الأمر بالتفكير في الأساسي أو الأولي باعتباره يتجاوز ما هو ضروري ونافع.

إن المشي بدون التوفر على الضروري هو استسلام للعناصر. من الآن فصاعدًا، لا يهم، المزيد من العمليات الحسابية، ومزيد من الثقة بالنفس. لكن الثقة التامة والكاملة بسخاء العالم. الحجارة، السماء، الأرض، الأشجار: يصبح، كل شيء بالنسبة إلينا، عونًا وهدية وإعانة لا تنضب، فنستكين إليها، ونكسب ثقة مجهولة، تملأ القلب، لأنها تجعل المرء يعتمد اعتمادًا مطلقًا على طرف آخر يسحبنا بعيدًا حتى عن هاجس حصانتنا. الأساسي أو الأوّلي هو ما نستكين إليه، وما يُقدَّم لنا حتمًا. ولكن من أجل اختبار مدى تماسكه، يجب أن نخاطر، نخاطر بتخطّي ما هو ضروري.

تصوف وسياسة (غاندي)

«لن نعود على أعقابنا» غاندي، 10 مارس 1930.

في ديسمبر من عام 1920، أعلن غاندي أن استقلال الهند سيكون في «العام المقبل»، إذا اتّبع الجميع المسار الذي رسمه للتحرر من الوصاية البريطانية: سياسة عدم التعاون التي امتدت تدريجيًا إلى جميع القطاعات النشيطة، كما دعا إلى عصيان مدني على مراحل متدرجة، والبحث عن مزيد من الاكتفاء الذاتي الاقتصادي، ورَفَض قبل كل شيءٍ الردّ بعنفٍ على القمع الذي كان سيرافق، لا محالة، حملة العصيان. بعد هذا التوقُّع، سيجوب غاندي الهند طولًا وعرضًا، وهو يدافع عن نسيج القطن التقليدي مجهزًا النيران لحرق الأقمشة المستوردة.

لكن البريطانيين ظلّوا صامدين، فكان للإعلان المتهور للمهاتما «الروح العظيمة» تأثير رئيسي في إطلاق حملة كبيرة من الاعتقالات. ومع ذلك، فقد بدأ العصيان المدني بشكل جيّد، وقد اتبع التعليمات أشخاص هنا وهناك: تنظيم اعتصامات أمام محلات بيع الخمور، الامتناع عن شراء الأقمشة المستوردة، الامتناع عن الاستجابة لاستدعاءات المحاكم. ولكن أعمال العنف اندلعت في نهاية المطاف، وبعد مواجهة مع قوات الشرطة أدت إلى مقتل المتظاهرين، أضرم الفلاحون الغاضبون النار في الثكنات بحيث أحرق حوالي عشرين من ضباط الشرطة المتحصنين أحياء. كما فعل غاندي سلفًا في عام 1919، بعد مذبحة أمريتسار فقد كانت ردة فعله بأن أوقف مرة أخرى حركة العصيان وقرر الصيام -سيكرر غاندي خلال حياته هذه المبادرة عدة مرات- متحمّلًا مسؤولية القتلى وفي الوقت نفسه سيحمل المسؤولية للمتسببن في انفجار العنف.

بعد عقدٍ من الزمان (وفي غضون ذلك، سيكون غاندي قد دخل السجن، واستأنف رحلاته الطويلة في الهند لمحاربة استبعاد المنبوذين، والدفاع عن حقوق المرأة، ونشر تدابير النظافة الأساسية في كل مكان) في يناير 1930، قرّر غاندي مرة أخرى تحدي الإمبراطورية وشنّ حملةٍ جديدةٍ من العصيان. لكنه هذه المرة لا يعرف كيف يدبّر ذلك، ولا كيف يبدأ،

ولا كيف يتظاهر تظاهرًا حاشدًا مع رفضٍ هادئ وطاعةٍ واسعة. سيعترف غاندي للشاعر الكبير رابيندراناث طاغور الذي زاره في 18 يناير: «لا أرى أي ضوء في الظلمات التي تحيطني».

وأخيرًا، سيكلمه «صوته الصغير»، كما يطلق عليه، قائلًا: ستمشي، وتمشي إلى البحر، وهناك ستجمع الملح. حينها قرر غاندي القيام بساتياغراها [1] جديدة: دعاها مسيرة الملح. كان حدسه ذا شقين: التنديد بضريبة الملح، والتمهيد لتحدٍّ أكثر راديكالية، من خلال تنظيم مظاهرة للإدانة على شكل مسيرةٍ هائلة. كان الإنجليز يحتكرون تجارة الملح. لم يكن لأحد الحق في المتاجرة به، ولا حتى استخراجه للاستخدام الشخصي. بل كان الإنجليز يلجؤون إلى تدمير الملح الطبيعي عندما يكون بالقرب من السكان ويمكن أن يأخذوه للاستخدام الشخصي. الملح: هبة مجانية من البحر، طعام متواضع وضروري للغاية. كان ظلم هذه الضريبة سريع التأثير على الفور، إذ كان يكفي ذكره للكشف عن الفضيحة. أما الضربة العبقرية الثانية، فكانت تنظيم مسيرة بطيئة للوصول إلى السواحل -وبدء المشي من منطقة أشرام[2] التابعة لسبارماتي حتى بلوغ المستنقعات المالحة في داندي، على سواحل البحر، بالقرب من جالابور.

كانت قيم غاندي الروحية والسياسية للمشي قد اختُبرت منذ فترةٍ طويلة. عندما كان شابًا، في لندن، كان يمشي بانتظام، من سبعة إلى خمسة عشر كيلومترًا تقريبًا يوميًا، إما للذهاب إلى كلية الحقوق أو للعثور على مطعم نباتي. وكانت هذه المسيرات على الأقدام بالنسبة إليه، فرصة لتعزيز النذر الثلاثي الذي وعد به أمه عند مغادرة الهند (لا امرأة، لا كحول، لا لحوم)، وبذلك سيمتحن حزمه ويهنئ نفسه على تماسكه الجيد. لقد أولى غاندي دائمًا أهمية كبيرة للوعود التي يعدُ بها الآخرين ويتعهّد بها على نفسه، بهذه الالتزامات الجليلة التي يحظر بها المرء على نفسه، هذه الممارسة أو ذاك السلوك. التزامات لا يراها غاندي إلا في بعدها النهائي. كان دائمًا يدرب نفسه على الانضباط والسيطرة على النفس. ويتيح المشي هذه العلاقة المفروضة على النفس والتي ليست من فئة الاستبطان اللانهائي (هذا الأخير يفضل وضعية الاسترخاء فوق الأريكة)، ولكن بواسطة المشي

(1) كما سنرى أدناه، فإن هذا التعبير، الذي يمكن ترجمته على أنه «قوة الحقيقة»، يحدد حركة جماعية تنفذ بتصميم برفض جميع أشكال العنف مسبقًا.

(2) يعين هذا المصطلح الهياكل المجتمعية، المنظمة حول قواعد ومبادئ مخلصة لفكره، والتي تمكن غاندي من تأسيسها والعمل ضمنها وتكوين تلاميذه.

الذي يتيح الفحص الدقيق للأشياء والأفكار. نقوم بمحاسبة النفس: نقوم بتصحيح النفس وتحدّيها وتقييمها. في وقتٍ لاحق، عندما مارس مهنة المحاماة في جنوب إفريقيا، استمر غاندي في ممارسة المشي، فكان يمشي بانتظام على سبيل المثال من مزرعة تولستوي إلى جوهانسبرغ (أربعة وثلاثين كيلومترًا). لكن إبان النضالات التي يقودها في ناتال، بدأ يختبر البُعد السياسي للمشي. من أجل الدفاع عن حقوق الهنود في جنوب إفريقيا، الذين كانوا يتعرّضون لمعاملةٍ مشينةٍ أو ضرائب مسيئة، نظم في عام 1913، مظاهرات بسيطة لاحتلال الأماكن العمومية، وعددًا من المسيرات على مدار عدة أيام. كانت الفكرة هي الاحتجاج احتجاجًا سلميًا، وإيجاد طريقة للاعتقال. سيقرر غاندي تنظيم مسيرات تجوب من مقاطعة إلى أخرى (من ناتال إلى ترانسفال)، ولكن دون أن يحمل شهادة مرور إجبارية، قصد تنظيم عصيان حاشد، ومرئي، وجماعي وهادئ. وهكذا قام غاندي، في 13 أكتوبر 1913، بقيادة حشد ضخم في مسيرة تتكون من أكثر من ألفي شخص، يسيرون حفاة، ويأكلون القليل من الخبز والسكر. ستستمر المسيرة أسبوعًا، لكن سرعان ما ألقي القبض على غاندي، وأعلن خمسون ألف هندي على الفور إضرابًا عامًا. وبذلك وجد الجنرال سموتس نفسه مضطرًا للتفاوض والتوقيع مع غاندي على سلسلة من الاتفاقات لصالح الطوائف الهندية.

في فبراير 1930، أصبح غاندي الآن يبلغ من العمر ستين عامًا وعلى أهبة البدء بمشروع مسيرة الملح. إنه تركيب بشري مثير، وملحمة جماعية. جمع غاندي حوله مجموعة من المناضلين الموثوقين: من الستياغراهيين الذين كونهم بنفسه، ويعرف انضباطهم الداخلي وقدرتهم على التضحية. خصص ثمانية وسبعين ناشطًا للحملة. كان أصغرهم في السادسة عشرة. في 11 مارس، تحدث غاندي إلى الآلاف من الناس بعد صلاة ليلية، مطالبًا الجميع، إذا ألقي عليه القبض، بالاستمرار بدونه في حركة العصيان، في هدوء وسلام. سينطلق في اليوم التالي، في الساعة السادسة والنصف صباحًا، عصا المشي الطويلة في يده (خيزرانة كبيرة مدببة)، محاطًا بمريديه، الذين ارتدوا مثله ملابس من القطن الأبيض المغزول يدويًا. كانوا عند الانطلاقة أقل من ثمانين، لكنهم عند الوصول إلى شاطئ البحر سيصبحون آلافًا، بعد أربعة وأربعين يومًا.

كان الإيقاع مع مرور الأيام يفرض نفسه: الاستيقاظ في الساعة السادسة

صباحًا للصلاة والتأمل والأناشيد. ثم، بعد الغسل والوجبة الخفيفة، سيبدأ الموكب مسيرته. إن القرى التي يمرُّون بها تكتسي حلةً احتفالية: فتُسقى الطرقات، وتُغطى بأوراق الشجر والزهور لتخفيف آلام المشاة. في كل مرة يتوقف فيها غاندي، يتحدث بهدوء ويحث الجميع على وقف كل تعاون نشط مع الإمبراطورية: التوقف عن المنتجات المستوردة، الاستقالة من العمل إذا كان العامل رئيسًا محليًا وممثلًا للإمبراطورية. وفوق كل ذلك: عدم الرد على الاستفزازات، وتقبل مقدمًا الضربات التي ستنهمر عليهم، الامتناع عن المقاومة لحظة الاعتقال. حققت المسيرة نجاحًا هائلًا. وأضحى المراسلون الأجانب يتابعون المسيرة يوميًا وينشرون أخبارها في أنحاء العالم جميعها. حاول بعناء نائب الملك في الهند إيجاد رد. بينما تنظيم اليوم لدى غاندي غير قابل للتغيير: الصلاة في الصباح، والمشي خلال النهار، وغزل القطن في المساء، وكتابة مقالات للصحيفة في الليل. في 5 إبريل، بعد أكثر من شهر ونصف من المشي، وصل أخيرًا إلى داندي، عن طريق البحر، وقضى الليل في الصلاة مع تلاميذه. وفي الصباح، في الساعة الثامنة والنصف صباحًا، اتجه إلى المحيط، واستحم هناك، وعاد إلى الشاطئ، ثم أمام آلاف الأشخاص الذين تجمعوا قام بالفعل المحرم: فقد انحنى ببطء والتقط قطعة من الملح، بينما يصرخ الشاعر ساروجيني نايدو: «سلامًا، أيها المحرر!».

في فكرة وإنجاز هذه المسيرة الهائلة، تُستشعر أبعادٌ روحيةٌ عديدة، وكلها مرتبطة بقناعات غاندي.

أولًا، في المشي البطيء، ثمة رفض للسرعة. هذه هي الطريقة التي عبّر بها المهاتما عن عدم ثقته بالآلة والاستهلاك المتسارع والإنتاجية العمياء. في نص يعود إلى نوفمبر 1909 (هند سواراج)، كتبه على متن السفينة التي أعادته من لندن إلى جنوب إفريقيا، هاجم فيه غاندي الحضارة الحديثة. بالإضافة إلى دفاعه عن المسار السلمي، يقدّم النص خطابه المدافع عن التقليد، والممجد للبطء. بالنسبة إلى غاندي، فإن المعارضة الحقيقية ليست بين الغرب والشرق، بل بين حضارة السرعة، والآلة، وتراكم القوى، وَحضارة أخرى تكمن في نقل الأصالة والصلاة والعمل اليدوي. وهذا لا يعني، مع ذلك، المقابلة بين خمول التقاليد وديناميكية الغزو، ولكن بين طاقتين: طاقة العريق وطاقة التغيير. لم يكن خيار غاندي بين الجمود المحافظ والجرأة المغامرة، ولكن بين القوة الساكنة والإثارة الدائمة، بين النور الأصم والوهج الباهر.

يحب غاندي أن يفكر في هذه الطاقة الساكنة الأنثوية وكأنها أم. منذ قرون، كان المشي البطيء في المجتمعات التقليدية من سمات النساء: اللائي يذهبن إلى المنابع البعيدة لجلب المياه، أو يمشين على الدروب لجمع النباتات والأعشاب. كان الرجال يفضلون استعراض القوة الوحشية، خاصة في مواسم الصيد: بواسطة غارة مفاجئة، وسباقات قصيرة وسريعة. المشي عند غاندي هو منح الامتياز لطاقات التحمُّل البطيئة. مع المشي، نحن بعيدون عن العمل المميز والإنجاز العظيم. يتحقق المشي في هذا التواضع الذي أحبه غاندي: وكتذكيرٍ لانتمائنا إلى الأرض وضعفنا. المشي هو حالة الشخص الفقير. لكن التواضع لا يعني بالضرورة حالة البؤس. إنه اعتراف هادئ بقدرتنا المحدودة: نحن لا نعرف كل شيء، ولا يمكننا أن نفعل كل شيء. ما نعرفه هو لا شيء مقارنة بالحقيقة، وما يمكننا فعله لا شيء مقارنة بالقوة. وهذا الاعتراف يمنحنا مكانتنا الحقيقية، ويحدد موقعنا. أثناء المشي، بعيدًا عن أي جهاز، أو آلة، أو وساطة، أعيدُ الوضع الأرضي للإنسان، وأجسّدُ مجددًا فقره الأصلي والأساسي. هذا هو السبب في أن التواضع ليس مهينًا: إنه يدمر فقط الذرائع الباطلة، بل يمنحنا الوصول إلى أصالتنا. وإذن هناك شيء نفخر به في المشي: نحن واقفون. يُبيّن التواضع لغاندي كرامة الإنسان.

يدلّ المشي أيضًا على البساطة التي بحث عنها طوال حياته، متخذًا طرق عدم الامتلاك (أباريغرافا). من الجنتلمان الكامل إلى «الفقير العاري تقريبا» الذي سخر منه تشرشل، سوف يتابع غاندي هذا البحث عن العوز على مستويات الوجود كله: الملابس، المنزل، الطعام، النقل، مع أنه ارتدى في لندن سترةً طويلة، وصدريةً مزدوجة، وسروالًا مخططًا، وأمسك عكازًا ذا مقبض فضي، ثم قام فيما بعد بتبسيط مظهره تدريجيًا، حتى سنواته الأخيرة، حينما أصبح يرتدي مئزرًا نسجه يدويًا من القطن الأبيض. في جنوب أفريقيا، سيتخلى عن شقته المريحة في جوهانسبرغ لكي يعيش في مزارع جماعية للأقليات، مشاركًا بنشاط في الأعمال المنزلية. وسرعان ما سيتخلى عن رفاه الرحلات ليسافر في الدرجة الثالثة ولن يأكل حتى نهاية حياته سوى الفواكه الطازجة والجوز. هذا التبسيط للوجود سيسمح له بالمرور بشكل أسرع وأكثر استقامة، وأشد ثقة نحو الضروري. إن المشي بساطة عظيمة. قدم واحدة أمام قدم أخرى، لا توجد إلا طريقة واحدة للمشي على قدميك. علاوة على ذلك، فقد كان لهذه البساطة هدف سياسي. يدين غاندي أن يعيش الفرد فوق احتياجاته، لأن ذلك سيدفع الإنسان دائمًا إلى استغلال أخيه الإنسان.

يتعلق الأمر بالتخلص من أي شيء يمكن أن يتسبب في عرقلة لا جدوى منها أو إزعاج، شيء يحجب الرؤية. المشي يعزز استقلالًا ذاتيًا مثاليًا. نحن نعلم مدى تقدير غاندي طوال حياته للحرف الأصلية والإنتاج المحلي. فقد كان يُعلي من قيمة عجلة الغزل، ويُلزم نفسه بواجب النسج باليد كل يوم. لأن العمل اليدويّ يمثّل رفضًا لاستغلال الآخر. يحقق المشيُ في حد ذاته المثل الأعلى لمفهوم مصطلح سواديشي. وقد استخدم غاندي هذه الكلمة على نطاق واسع لدعوة الهنود لمقاطعة الأقمشة الإنجليزية والكحول والسلع المصنعة. وهذا يعني في آن واحد «القرب» و «الاكتفاء الذاتي». أثناء المشي، ندخل في تواصل مع أشخاص خلال ممارستهم لحياتهم اليومية: نسير على طول الحقول التي يعملون فيها، ونمرّ أمام منازلهم. نتوقف ونتحدث إليهم. إن المشي هو الوتيرة الجيدة للفهم، والشعور بالاقتراب من الناس.

من جهة أخرى، أنت تعتمد على نفسك فقط، للمضي قدمًا. طالما أنك تسير في الطريق الصحيح، فإن الإرادة هي المتحكم الوحيد، ولا نتوقع بعد أي شيء آخر غير الأمر الشخصي. ليس آليًا ولا سريع الاندفاع، ما دام المشي سيغذيك. سيختبر غاندي هذا الأمر خلال مسيرة عام 1930 الطويلة، حينما سيصل، بعد قطعه لأكثر من ثلاثمائة وتسعين كيلو مترًا من المشي، أكثر إشراقًا حتى من لحظة مغادرته.

يمجّد غاندي أخيرًا، في حركة المشي، بُعدًا من الحزم والقدرة على التحمل: أن تواصل باستماتة. هذا ضروري لأن المشي يتطلب جهدًا لطيفًا، لكنه متواصل. ولكي يميز أسلوب النضال الذي يرغب في القيام به، ابتكر غاندي، في جنوب أفريقيا، خلال اجتماع سياسي، مصطلحًا جديدًا للترويج لأسلوب عمله: الساتياغراها وهي فكرة تتشكل من القوة والحقيقة، إنها فكرة تَمسُّك الإنسان بالحقيقة بثبات كما لو أنه يتشبث بصخرة صلبة. يتطلب المشي عزمًا وحزمًا وإرادة. كان غاندي قادرًا، خلال سنوات نضاله، على بناء هياكل مجتمعية مختلفة هنا وهناك، مدعمة بالأعمال الأصيلة وتعليم التلاميذ. إن الفضيلة الرئيسية للساتياغراهي هي السيطرة الداخلية. إذ يتعلق الأمر بالاستعداد لتلقي الضربات دون الرد عليها، والاستسلام للاعتقال ظلمًا دون مقاومة، والخضوع للإهانات والإذلال والشتائم دون الرد عليها. هذه السيطرة سلاح ذو حدين، وهذا يعني أنه يمكن للمرء أن يتحكم في آن واحد في نوبات الغيظ والغضب، وفي

نوبات الإحباط أو الجبن. عليك أن تبقى هادئًا، ثابتًا، رابط الجأش، واثقًا من نفسك كما لو أنك أمام الحقيقة. المشي ينهك الغضب، ويطهر. عندما وصل الساتياغراهيّون إلى البحر، أفرغوا سخطهم من كل كراهية وغضب: فهم ليسوا أكثر من تصميمٍ هادئ على خرق القانون، لأن القانون ظالم وغير عادل، لدرجة يصبح فيه العصيان واجبًا يؤديه الفرد بقدرٍ من الحزم والهدوء تمامًا مثل الصلاة.

هذا التحكم المثالي في النفس شرطه الحب المثالي لجميع الكائنات واللاعنف: (أهيمسا). نحن نلمس هنا، جوهر المذهب. اللاعنف ليس عند غاندي الرفض السلبي والخضوع المحايد والرضوخ. ولكنه استرداد في حزمة واحدة، وتَجَلٍّ بترتيب واحد، لجميع الأبعاد التي يمكن أن نميزها مثل: الكرامة، التحكم، الحزم، التواضع، والطاقة. اللاعنف ليس مجرد رفض للقوة. بل هو معارضة للقوة المادية بالقوة الوحيدة للروح. لا يقول غاندي: لا تقاوم عندما تنزل عليك الضربات، وعندما تزداد الوحشية. على العكس من ذلك، يقول: قاوم بكل روحك من خلال البقاء شامخًا لأطول فترة ممكنة، ولا تسمح أبدًا بهدر كرامتك، دون إظهار أي عدوانية أو أي شيء يمكن أن يعيدها، ويجب أن لا نقيم بين أولئك الذين يَضربون والذين يتعرضون للضرب نوعًا من المساواة والمعاملة بالمثل في مجتمع العنف والكراهية. على العكس من ذلك، يجب أن تظهر تعاطفًا كبيرًا مع الشخص الذي يضربك. يجب أن تظل العلاقة، في كل الأحوال، غير متطابقة: من جهة غضب أعمى، جسدي وبغيض، ومن جهة أخرى قوة حب روحية. إذا تماسكنا، فإن العلاقة تنقلب، والقوة الجسدية تحط من قيمة الشخص الذي يستخدمها، فيغدو وحشًا غاضبًا، بينما تتأثر البشرية جمعاء بالشخص الذي يرقد على الأرض، وقد رفع إلى درجة الإنسانية الخالصة عندما أرادوا أن يحطوا من قدره. اللاعنف يفضح العنف ويوصمه بالعار. عندما نستمر في ضرب أولئك الذين يعارضون الوحشية الجسدية وإنسانيتهم النقية وكرامتهم البسيطة، هنا نفقد شرفنا وروحنا.

هذا ما حدث، بالفعل، في مسيرة دارازانا الرهيبة، حيث بدأ الساتياغراهيّون مسيرتهم في مايو 1930، للاستيلاء، نيابة عن الشعب، على مصانع الملح. كان غاندي قد حرص على تحذير المفوض بواسطة رسالة مبينًا نوع المسيرة وغرضها، وكتب أن الإلغاء البسيط للضريبة على الملح سيكون كافيًا لإيقافها. لكن غاندي تم اعتقاله ولم يتمكن من المشاركة

في الاستيلاء السلمي المخطط على الملاحات. كان ثمة أربعمائة من رجال الشرطة، مسلحين بعصي غليظة ذات رؤوس حديدية، ينتظرون في موقع الملح. تقدم الساتياغراهيّون ببطء، رافضين الانصراف. وعندما واجهوا الشرطة، تلقوا ضربات رهيبة، بثبات، وعندما انهاروا بدأ يعوضهم في الحال صفّ جديد انهار بدوره، فعوضه فورًا صفّ آخر، وهكذا دواليك. أصبح المشهد أكثر رعبًا عندما صار الساتياغراهيّون مستسلمين لا يقوون حتى على حماية أنفسهم بأيديهم، ورغم ذلك واصلوا التقدم مكشوفين، معرضين أكتافهم ورؤوسهم للتحطيم. استبدت بالشرطة حمى غضب وانتهي بهم سعارهم إلى ضرب الذين سقطوا حتى قتلوهم. كان صحفي أمريكي، يدعى ويب ميلر، من وكالة يونايتد برس، شاهدًا على المذبحة، يروي أنه شاهد الاندفاع الصامت للساتياغراهيّين الذين تقدموا صامتين ومُصرّين «يمشون بخطوة حازمة، ورؤوسهم شامخة»، ثم يسقطون بصمت مؤلم لا نسمع فيه سوى صوت الهراوات والعظام المحطمة وأنينًا مكتومًا. وكانت النتيجة مئات ومئات من المصابين.

مع ذلك لم تكن الفوائد السياسية لحركة 1930، في مستوى آمال أو عظمة الفعل. احتوى ميثاق غاندي - إيروين (فبراير 1931) على تنازلات بسيطة فقط، ولم يحقق مؤتمر لندن، الذي حضره غاندي في سبتمبر من العام نفسه أي تقدم حاسم. عندما اندلعت الحرب العالمية في عام 1939، ظلت الهند بلدًا خاضعًا خضوعًا كبيرًا. لن تحصل على استقلالها إلا في أغسطس 1947، بتكلفة التقسيم بين الهند وباكستان، وكان ذلك هو الحل الأسوأ بالنسبة إلى غاندي الذي لم يأمل مطلقًا في الحرية إلا في ظل الوحدة والأخوة.

لم يتوقف غاندي عن المشي طوال حياته. كان يقول إنه نال صحته الممتازة بفضل هذه العادة. وقد مشى حتى النهاية. سيشهد في السنوات الأخيرة من حياته حلمه يتحقق وينهار في آن واحد: الحرية وسط التمزق. عندما استعدت إنجلترا بجدية للتخلي عن مستعمراتها الهندية في نهاية الأربعينيات من القرن الماضي، كان الصراع بين الطوائف على أشده، كان البريطانيون يتحكمون فيه حتى ذلك الحين، من أجل السيطرة على البلاد، دون تقسيمها، وتأجيج نعراتها، للسيطرة عليها. لكنها سرعان ما ستأخذ شكل مجازر من العنف غير المسبوق بين الهندوس والمسلمين والسيخ.

خلال شتاء عام 1946، سيمسك غاندي عصاه ويقرر المشي عبر المناطق التي مزقتها الكراهية (البنغال والبيهار)، والتنقل من قرية إلى أخرى مشيًا على الأقدام، من أجل المجادلة، هنا وهناك، والتحدث إلى الجميع والصلاة من أجل الجميع، لتأكيد البداهة المفقودة للحب والوحدة الأخوية. من 7 نوفمبر 1946 إلى 2 مارس 1947، سيعبر العشرات من القرى، ودائمًا سيرًا على الأقدام. لقد نجح ذلك، لأنه كان من الضروري فرض أدلة على السلام في ظل العوز. يستيقظ كل صباح في الساعة الرابعة للقراءة والكتابة، ويغزل قدرًا من القطن، ويشرف على أداء صلوات مفتوحة من أجل الجميع، ويتلو النصوص المقدسة الهندوسية والإسلامية التي تبرهن على تقاربهم في السلام، ثم يمشي. ينطلق كل صباح ينشد أبيات طاغور الرهيبة:

امشِ وحدك.

إن لم يَرُدّوا على ندائك، امش وحدك؛

وإن كانوا خائفين وتطلعوا برهبة إلى الحائط

أنت يا أيها النذير،

افتح عقلك وتحدّث بمفردك.

إذا ابتعدوا وتخلّوا عنك في معبر الصحراء،

يا أيها النذير،

دُس على الشوك في طريقك

وامشِ وحدك على الطريق الملطخة بالدماء.

في سبتمبر 1947، حدثت «معجزة كالكوتا»، إذ كان حضوره وقراره بالصيام كافيًا لإخماد حريق الكراهية الذي دمّر المدينة. أُعلن الاستقلال في أغسطس، وأدى تنفيذ التقسيم بين الهند وباكستان إلى تجدد عنف مهول بين الطوائف.

سيُقتل غاندي على يد هندوسي متعصب في 30 يناير 1948.

ما تزال صورة هذا الرجل العجوز البالغ سبعة وسبعين عامًا شاخصة أمامي، وهو يتقدّم طوال اليوم مستندًا إلى كتف ابنة أخته الصغيرة، ممسكًا في يده عصا الحاجّ، ماشيًا على الأقدام من قرية إلى أخرى، من المجازر إلى المذابح، مدعومًا بإيمانه الوحيد، يرتدي الزي الأشد عوزًا، ومؤكدًا في كل مرة ضرورة الحب ولاجدوى الكراهية، فارضًا على عنف العالم سلامًا لا نهائيًا من المشي البطيء والمتواضع والمتواصل.

هذه الصورة هي أيضًا ما يستذكره نهرو، رفيق غاندي الذي لا يتعب، والقائد العظيم الأول للهند الحرة. عندما يفكّر في غاندي، يتذكر في الغالب مسيرة الملح.

تتبادر إلى ذهني العديد من الصور لهذا الإنسان ذي النظرة الضاحكة غالبًا والمفعمة بحزنٍ هائلٍ أيضًا، ولكن من بين هذه الصور كلها تنبثق واحدة فقط، الأكثر دلالة، تلك التي رأيته فيها، حاملًا عصاه في يده، وهو على أهبة الانطلاق من داندي، إبان انطلاق مسيرة الملح في عام 1930. كانت تمثل صورة الحاجّ الباحث عن الحقيقة، الهادئ والمسالم والحازم والمقدام[1].

(1) جواهرلال نهرو، الوفاء بالعهود، باريس، لارمانان، 1986.

تكرار

المشي مُكدِّر، ومُتكرِّر، ورتيب. هذا صحيح تمامًا. ولكن هذا هو السبب أيضًا في أنه ليس مملًا أبدًا. يجب، كما كان يقال، أن نعارض الرتابة بالملل. الملل يعني غياب المشاريع، والآفاق. ندور في حلقة مفرغة حول أنفسنا، محبطين. ننتظر، دون انتظار أي شيء محدد: لا نحتفظ من الانتظار سوى بالبعد اللانهائي المعلق من الوقت الفارغ. يستلقي الجسد المال، ويستيقظ، ويضرب الهواء بذراعيه، ويلقي ساقيه في اتجاه معين ثم يغيرهما إلى اتجاه آخر، ثم يتوقف فجأة، ويبدأ من جديد، ويتحرك مرة أخرى. يحاول يائسًا ملء كل ثانية. يُشبه الملل تمردًا، بلا طائل، ضد الجمود. لا أجد ما أفعله، ولا أحاول أن أفعل أي شيء. عندما نشعر بالملل نصبح يائسين من أنفسنا. كل شيء يُشعرنا بالملل على الفور، لأنه يصدُر من مبادرةٍ شخصية. يجب أن تأتي القطيعة من الخارج. عندئذ سيكون الاختبار ساحقًا، لا يطاق، لفرط عوز رغباته. إن الملل عدم رضًا يتكرر كل ثانية، إنه اشمئزاز البدايات: يصبح كل شيء مُرهِقًا بمجرد القيام به، لأنني أنا من سيقوم به.

من هذه الزاوية المشي ليس مملًا. ولكنه يُعدّ ببساطة رتابة. عندما نسير، ونذهب إلى مكان ما، فإننا نتحرك، بخطوة موحدة. هناك الكثير من الانتظام والتنقل الإيقاعي في المشي لإستثارة الملل، الذي ينتج عن تحريض بلاجدوى (تدور الروح حول نفسها داخل جسم جامد). لذلك اقترح الرهبان القيام بالنزهة كعلاج للأشيديا (acedia)، هذا المرض الخبيث الذي ينخر الروح. لهذا السبب يجب عمومًا أن نفرض المشي، الذي يفترض أن يكون هدفًا نتقدم نحوه في تجوالٍ حزين.

تحدث مونتين عن «منتزهه»، الذي كان مصدر إثارةٍ لأفكاره، ومنطلقًا لتأملاته العميقة، ولكي تكون قوة الابتكار أعمق، يجب مساعدة العقل بواسطة تدريب الجسم:

تنام أفكاري إذا أقعدتها. عقلي لا يعمل لوحده، كما لو كانت ساقايَ تحركانه[1].

---

(1) مونتين، الكتاب الثالث من المقالات.

لذلك عندما ينحبس التفكير لا قيمة للجلوس في مكتبنا. يجب النهوض والقيام ببضع خطوات. والمشي، من أجل إعطاء الحركة ومن خلال هذا الاندفاع الجسدي، تكتسب الأفكار دفعة وتستعيد عملها.

تأتي الآلية من الانعتاق: يشبه المشي البدء بالحركة. بالإضافة إلى انتظامه، فإنه يمنح تمايلًا، هذه المرة يمكن أن يساعد على نظم الشعر: ننتظم في الإيقاع، ونستقر على تقطيع شعري. يقدم وردزورث، الرومانسي الإنجليزي، مثالًا هنا. عندما سئلت أخته عن مكان عمل الشاعر، أشارت إلى الحديقة وبطريقة مبهمة قالت: هذا مكتبه. في الواقع، فقد كان الشاعر يؤلف قصائده الغنائية الطويلة، أثناء المشي. كان يسير بخطىً معدودةٍ طولًا وعرضًا، وهو يغمغم، مستعينًا بإيقاع جسمه، بغية العثور على الأبيات.

يُعدّ وردزورث Wordsworth شخصيةً رئيسيةً في حكاية المشي، ويعتبره العديد من الدارسين المخترع الحقيقي للمشي لمسافات طويلة. كان أول من اخترع المشي -في عصر (نهاية القرن الثامن عشر)- حينما كان المشي الفعل الوحيد للمعوزين أو المتشردين أو قطاع الطرق الكبيرة (دون نسيان أصحاب الألعاب البهلوانية أو الباعة المتجولين). مثل فعل شعري، وتواصل مع الطبيعة، وتطوير للجسد، وتأمل للطبيعة -كتب كريستوفر مورلي عنه أنه «كان من أوائل من وضع ساقيه في خدمة الفلسفة». هكذا جاب فرنسا مشيًا على الأقدام، وعبَر جبال الألب، واستكشف منطقة البحيرات في إنجلترا، وبواسطة رحلاته كلها، صنع المواد اللازمة لقصائده. يقدم في مقدمته الهائلة (قصيدة السيرة الذاتية الكبيرة) نفسه بوصفه تناضدًا لثلاث خطوات، تلك التي درجت به من الطفولة إلى النضج، وتلك التي ألقت به على طرقات فرنسا وإيطاليا، وأخيرًا تلك التي صاغ فيها أبياته الشعرية المنظومة والإيقاعية:

«وهكذا اقتفيتُ هذا الدرب الصامت

جسدي يرتوي، بهدوء،

وفي النوم يُجدّد نفسه،

لكن ما في الأعلى، أمامي، وخلفي، أكثر عذوبة

وكل ما حولي: سلام، وعزلة»

إن سوء الفهم الذي اصطدم به وردزورث في ذلك الوقت، بالإضافة إلى بعض العداوة، يجعلنا نفهم جوهر الاختلاف بين المشي والتنزه. كانت النزهة، في الحدائق الكبيرة المجاورة للقصور، تعتبر تمييزًا طبقيًا اجتماعيًا. ذلك المشي الذي يحدث في الحدائق الإنجليزية، وفي المماشي المعقدة، والبساتين المتشابكة، وعند مفترق المسالك المدهشة، حيث نختبئ ونلتقي. إنه مشي خفيف، مؤلف من ذهاب وإياب، وتوقف متعاقب، تتخلّله محادثات رشيقة، ومداعبات من اللطف المصطنع، والاعترافات. كانت النزهة المكان المناسب لاستعمال فن الإغواء. إنها قبل كل شيء نقطة تباين دقيقة لخطوات العامل اليومي الذي يذهب إلى الحقول لبيع قوّته العضلية، أو بالنسبة إلى المتشرد بلا مأوى الذي يسحب بؤسه وحظه على طول الدروب المبهمة. في مسارات الحديقة، بالكاد نمشي: إننا نرقص.

كان وردزورث، يسير على الطرقات مثل فقير، بلا داع وإنما تلبية رغبته. أمام دهشة الجميع، أطلق على هذه التجربة صفة «الثروة». إلى جانب هذا الاختراع الثقافي الهائل (المشي لمسافات طويلة بين جمال المناظر الطبيعية)، يحمل شعره إيقاع المشي اللانهائي: المنتظم، الخامد، والرتيب. إنه يهدهد دون تعب، مثل صوت الأمواج.

ثمة شاعر آخر، يعد مشاءً عظيمًا أيضًا، سنجد لاحقًا في أبياته الشعرية هذه الرتابة الرائعة. إنه «بيجيه» Péguy، وخاصة في عرضه التقديمي لـ «بوس»، عندما انطلق للحج، متوسلًا علاج ابنه بيير، الذي كان يعاني من التيفوئيد، في طريقه إلى نوتردام دو شارتر في عام 1912، سينظم أبياتًا شعرية لانهائية:

نذهب قدمًا، بجيوب فارغة،

بدون أية وسيلة، هادئين، صامتين،

بوتيرة واحدة، دون تسرع أو فزع،

من الحقول الأكثر حضورًا إلى الحقول الأكثر قربًا،

ترانا نمشي، نحن المشاة،

لا نتقدم أبدًا إلا خطوة واحدة وفي اللحظة نفسها.

كانت كل مسيرةٍ طويلةً جدًّا تستدعي شعرًا مزموزًا رتيبًا. لذلك تنتمي المزامير دائمًا، وفي الأساس، إلى الحاجّ، والمشّاء: سواء أنشدا محنة المنفى، أو الغربة الأبدية («إذا نسيتك، يا بيت المقدس ...»)، أم أنشدا الجهد المبذول والأمل المرجو في الأرض الموعودة كما في نشيد الصعود («أرفع بصري إلى الجبال: من أين سيأتي الغيث؟»).

لا يتطلب المزمور مجهودًا خاصًا من الذكاء لتحديد مضمونه المعنوي: يجب بالأخص أن يكون ملفوظًا، مُفصلًا، مُغنى، مُتجسدًا. ويتطلب أن يستكمله الجسد، وإذا رتّله عدد غفير، يصبح داخل المجموعة أكثر تأثيرًا. عندما نمشي في الهند إلى بانداربور نسمع الناس حتى اليوم يغنون مزامير توكارام الذي كان صاحب متجر صغير، لا يعرف القراءة والكتابة، ولد في عام 1698 في طبقة الشودرا، وهي الأدنى اجتماعيًا (يقول «أنا من أدنى طبقة» توكا «، وأنا لم أقرأ الكتب»)، وحدث أن قابل توكرام إلهه على التلّ، وسرعان ما بدأ بتأليف أبيات شعرية ما فتئ يرددها، بينما مريدوه يسارعون إلى نسخها، لأنه لا يعرف الكتابة. ومنذ ذلك العهد والحُجّاج الهندوس يغنون، على الدروب، مزامير الشاعر الذي لم يكن يعرف القراءة:

اجعلني يا إلهي،

حصاةً صغيرةً، حجرًا كبيرًا أو غبارًا

فوق الطريق إلى بانداربور،

من أجل أن أُداس بأقدام القديسين!

يستدعي المشي تلقائيًا الشعر المتكرر والعفوي، كلماتٌ بسيطةٌ مثل صوت الخطو على الطريق. ما زال بإمكان المرء إيجاد صدى للمشي في ممارسة غناء المزامير المغناة «في جوقات متعاقبة». يجب إذن، أن تغني الجوقة بيتًا (بإيقاع واحد)، وتردّ الجوقة الأخرى ببيت آخر. هذه الممارسة الإنشادية تسمح بالتناوب في الغناء والاستماع. إنها تولد على الخصوص تأثيرًا بالتكرار والتناوب يقارنه القديس أمبرواز بصوت البحر: عندما تنكسر الأمواج بلطف على الشاطئ، فإن انتظام الصوت، لا ينكسر فحسب، بل يصدر إيقاعًا ويجعل الصمت مسموعًا. وهكذا، فإن الترتيل، في خضمّ الترديد المتعاقب، ينتج داخل الروح، ما يسميه أمبرواز، الطمأنينة

السعيدة. يشبه صدى الأغاني، ومد وجزر الأمواج، حركة تناوب الأقدام عند المشي. وهنا، لا يتعلق الأمر بمسألة الكسر، ولكن بجعل وجود العالم ذي إيقاع وأكثر تأثيرًا. وكما قال كلوديل إن الصوت يجعل الصمت متاحًا ومفيدًا، يجب أن يقال عن المشي إنه يجعل الوجود متاحًا ومفيدًا.

وهكذا نجد في المشي هذه القوة الهائلة للتكرار، تكرار الشيء نفسه. إنها تسمح بولادة المزامير، التي تُعدُّ تحديثًا لنشيد الإيمان المحرّك للأجساد. توجد قوة التكرار في مكان آخر: في شكلٍ معيّنٍ من الصلاة. أفكر هنا بشكل خاص يسمى عند العبادة الأرثوذكسية «فلسفة القلب». إنها تمرين يتكون من تكرار بسيط للصلاة الأصيلة تمامًا، وتتألف من بضع كلمات فقط: «يا إلهي، يا يسوع المسيح، ابن الرب، ارحمني، فأنا المذنب» يجب فقط أن يكرر هذه الصلاة (الصلاة- الجملة)، ويرتلها على مدار الدقائق، ثم على مدار الساعة، ليتمكن، بذلك من جعل يومه صلاة لا تنتهي. يمكن أن يكثف تمرين التكرار التحكم الصارم في تنفس الشخص، وذلك بمطابقة النصف الأول من الجملة المتكررة ذهنيًا («يا إلهي، يا يسوع المسيح، ابن الرب...») بالشهيق، والثاني منها («ارحمني، فأنا المذنب») بالزفير[1]. إن الهدف من تمرين التكرار، تحقيق حالة من التركيز (نحن لا نفعل إلا شيئًا واحدًا، وهو تكرار جملة واحدة)، ولكن التركيز لا ينبغي أن يكون فكريًا. ليس توترًا في الروح، (يتنفس الجسد كله ويهمس، فتصير الحواس كلها صدى له، وكل كليات الروح تعكس المحتوى المقدس للعبارة) ولكن مشاركة وجوده الكلي ينحصر في تلاوة الصلاة وحدها. هذا ما يسميه الآباء الأرثوذوكس «جلب الروح إلى القلب». في الواقع يكمن الخطر الكبير في التشتت، والذهول، والشرود، وهذه الحالات تعتبر بمنزلة نسيانٍ للرب. يتجلى هذا النسيان أيضًا في العمل الذي يذهل الجسد، وأيضًا ما يثير الخيال والتفكير الذهني اللذين يصبحان تخمينات مجانية. تتجاوز صلاة القلب الصغيرة، المتواضعة، المتكررة، الملحة تمامًا، كل ذلك الاغتراب، لتمكننا من إيجاد، كما يقول آباء الكنيسة، مملكتنا الداخلية. القلب هو نقطة التوحيد، لأنه كوة وطاقة الوجود، وهو القادر على معارضة إغراءات الجسد وانحرافات الروح. بواسطة تكرار هذه الجملة الوحيدة، ذات المعنى الوحيد أيضًا، تتجرد الروح بالكامل من ثروات الأفكار الخاطئة، التي تُمتَصّ في التكرار العقلي لمحتوى معنوي وحيد.

(1) هذا التنفس ما تزال له قيمة ميتافيزيقية، والشهيق يدل على توحيد القدرات والزفير يدل على تقليصها الضروري.

يتحقق التركيز، والانفراد، والتجرّد بواسطة جملة قصيرة تكرر بلا كلل أو ملل: «يا إلهي، يا يسوع المسيح، ابن الرب، ارحمني، فأنا المذنب». بعد بضع دقائق، وبضع ساعات، لم يعد الإنسان الذي يصلي، بل يصبح الرجل مجسدًا في الصلاة. لم يعد الأمر تضرعًا مستمرًا للمسبح، وشيئًا فشيئًا، ورغم الإحراج الرهيب، من تشبع الروح المختنقة من تكرار الشيء نفسه، ورغم تعب الفم من تكرار حركة الشفاه، وبعد قساوة اللحظة المقدسة، تأتي السكينة الخالصة (الهيسوخيا الشهيرة). فيصبح التكرار تلقائيًا، وسهلًا، ودون عناء، يصبح أشبه ما يكون بنبض القلب. يجد الراهب أمانًا تامًا في هذه الغمغمة الغامضة واللانهائية، في التنفس اللانهائي لصلواته. في الواقع، عندما نمشي، نعثر على تلك اللحظة فعلًا من التكرار الرتيب للخطو، التي ينبعث منها فجأة هدوء مطلق. لا نفكر في أي شيء، لم يعد أي قلق يثيرنا، لا يوجد شيء غير انتظام الحركة التي ترافقنا، أو بالأحرى: نصبح بكليتنا التكرار الهادئ للخطوات.

بالنسبة إلى آباء الكنيسة الذين قاموا بتدريس صلاة القلب هذه، فإنها كانت تشترط إلى حد كبير على المصلي أن يجلس، بلا حراك، واضعًا ذقنه على الصدر (على سبيل المثال في شمعون المجهول أو غريغوريوس السينوي)، منهمكًا لساعات في تكرار الجملة نفسها. لكن فلسفة القلب أصبحت شائعة في الغرب بواسطة السرد الشهير للحاجّ الروسي المجهول الذي عاش في القرن التاسع عشر والذي مارس هذه الفلسفة خلال ممارسته للمشي. إنها قصة روح بسيطة أرادت أن تنفذ موعظة القديس بولس كاملة: «صلوا دون توقف». لكن أحد الرهبان جعله يكتشف سر فلسفة القلب. انعزل الرجل الصالح، لأسابيع عدة في حديقة وانشغل بتكرار الصلاة آلاف المرات (ستة، ثم اثني عشر ألف مرة في اليوم). بعد أيام من التعب والجهد والإرهاق والضجر، شعر بأن ابتهاله المستمر باسم المسيح قد تغلغل إلى أعماقه كلها، فصار مصدر فرح وعزاء لا ينضب معينه. وعندما أصبح طبيعيًا تقريبًا مثل تنفسه، بدأ رحلته ماشيًا طوال اليوم دون أن يحس بالتعب. يمشي كما يتلو صلاته، حسب إيقاعه، وبلا تعب.

هكذا أنا الآن، أقول باستمرار صلاة يسوع، الذي يُعدّ بالنسبة إليّ الأحب والأعذب من أي شيء في العالم. أحيانًا أقطع أكثر من سبعين فيرستا (وحدة قياس) في اليوم ولا أشعر أني أسير؛ ولكنني أشعر فقط أنني أرتل الصلاة. وعندما يداهمني برد شديد، أنشد الصلاة بمزيد من الانتباه، أشعر سريعًا

بالدفء. وإذا أصبح الجوع أكثر شدة، استحضر اسم يسوع المسيح أكثر من مرة، فلا أتذكر مطلقًا أنني كنت جائعًا. إذا شعرت بالمرض وآلمني ظهري أو ساقي، أركز في الصلاة، فلا أشعر بالألم أبدًا [...]. لقد أصبحت غريب الأطوار قليلًا. لا يهمني أي شيء، ولا شيء يشغلني، لا شيء مما في الخارج يشدني، أريد أن أكون دائمًا في عزلة، كما هو الحال دائمًا، لا أريد سوى تلاوة الصلاة دون توقف[1].

نجد سر المشي دون تعب في الممارسات الدينية التبتية الذي يكون نتيجة هذا الإصرار على الانتظام، ونجدها أيضًا في الشخصية السحرية لمارس «اللونغ- غوم- با» المتمثل في تمارين تمتد على مدار عدة سنوات من التنفس والجمباز، تُمكّنه من الحصول على رشاقة وخفة كبيرتين. وفي الوقت الذي يتدرب فيه على التحكم في تنفسه تمامًا، يتعلم الراهب أن يركز بإتقان على تكرار الصيغ الروحية الباطنية. ثم بعد ذلك، سوف يعرف أيضًا كيف يجعلها تنتظم مع إيقاع خطواته. في نهاية تعلمه، يصبح مماثلًا لمارس اللونغ-غوم- با (Lung-gom-pa). عندها يصبح بمقدور الراهب، في ظروف معينة، أن يمشي بسرعة كبيرة قاطعًا مسافات هائلة، دون الشعور بأي نوع من التعب. يجب ربما أن تتوافر شروط خاصة: أراض مسطحة، مناظر طبيعية مقفرة، غروب أو ليلة مرصعة بالنجوم. في هذه الفضاءات الشبحية، لا يوجد شيء يلهي الانتباه، التركيز في أقصى حدوده. المشاء يتأمل، لا يفكر في أي شيء، لا ينظر لا ميمنة ولا ميسرة، يحدد نقطة أمامه، ويبدأ بالمشي، مرددًا صيغه الروحية بإيقاع، ثم سرعان ما يدخل في حالة نشوة مهلوسة، ناتجة عن تكرار خطواته، وعباراته المردَّدة بلا نهاية، وانتظام تنفسه. وأخيرًا يتمكن من القيام بخطوات كبيرة مثل أن يثب على الأرض وثبًا.

تروي ألكسندرا ديفيد-نيل Alexandra David-Neel أنها خلال مشيها الطويل في جبال الهيمالايا، وبينما هي تتقدم فوق هضبة معزولة ضخمة، لمحت في البعيد نقطة سوداء تدنو منها بسرعة. وبعد برهة أدركت أن الداني منها كان رجلًا يتحرك بسرعة عالية جدًا. ثم أخبرها زملاؤها في الطريق أن القادم كان أحد ممارسي اللونغ غوم با[2]، ولا يجدر بها

(1) حكايات حاج روسي، ترجمة. ج. لالوي باريس، باكونير / سوي، 1966.

(2) لونغ – جوم- با هي مهارة مقصورة على فئة معينة من البوذيين التبتيين، والتي تسمح بالجري بسرعة غير عادية لعدة أيام دون توقف. يمكن مقارنة هذه التقنية مع تلك التي مارسها رهبان كايهيوجيو من جبل هي وكذلك رهبان شوجيندو في اليابان.

الحديث إليه أو مقاطعة سيره، لأنه في حالة من النشوة، قد تؤدي إلى موته إذا استوقفته فجأة. فاكتفت بمشاهدته وهو يمر هادئًا مرحًا بعينيه الشاخصتين، لم يكن يركض، وإنما كان يهتز مع كل خطوة يخطوها، مثل قطعة قماش خفيفة في مهب الرياح.

المشي في ظل انسحاب الآلهة

أنا لست بحاجة إلا لحذاء[1].

قام هولدرلين برحلته إلى بوردو في منتصف حياته ولكن أيضًا عندما اقترب من فقدان قدراته العقلية. يعتقد أنه نفذها تقريبًا وبشكل أساسي مشيًا على قدميه. قضى في ستراسبوغ أسبوعين تحت المراقبة، ثم حصل على ترخيص للذهاب إلى بوردو مرورًا بكولمار وبزانسون وليون. بعد ذلك وابتداء من 10 يناير اجتاز الطريق الطويلة المؤدية إلى كليرمونت، من خلال معبر جبال أوفيرن حيث الطقس الجليدي، الأرض المتجمدة، السماء الواطئة جدًا، سماء سوداء فوق أرض مكسوة بالثلج، الشعوب البدائية، والعواصف. روى هولدرلين لأمه لياليه الصقيعية حينما كان ينام فوق سرير بئيس (9 يناير 1809) وكتب إلى صديقه بوهليندروف: «في فرنسا رأيت الأرض الحزينة المنعزلة» (خريف 1802). وصل في نهاية شهر يناير إلى بوردو والتحق بمنزل القنصل الألماني حيث اشتغل مدرسًا خاصًا لأبنائه، لكنه غادر في شهر مايو دون شرح مبرر لذلك، ودائمًا مشيًا على قدميه، سيسلك طريقًا أخرى: متوجهًا إلى باريس. سيتوقف في اللوفر متأملًا تحفه القديمة، ثم يواصل طريقه. عندما وصل إلى شتوتغارت بدا من العسير التعرف عليه: متشردًا بئيسًا، أشعث الشعر، متسولًا تائهًا، ملتحيًا وأبكم.

هل كان مشيه الهائل وحيدًا سببًا في فقدانه عقله؟ أم كان مصدر إلهام لقصائده الأخيرة المختلفة تمامًا، أم أن المشي كشف له هذا الصوت الفريد، الصوت العاري؟ يعتبر معظم كتاب سيرته الذاتية أن سفره إلى بوردو أحدث له قطيعة، بل يمكن القول إنه تسبب له في شرخ نفسي. هولدرلين نفسه قال إنه تلقى «ضربة من أبولو». كان إخفاقاته قد تضاعفت في السابق: معلمٌ خاص لأطفال غير مؤدبين، عاشقٌ لامرأة متزوجة، كاتب تراجيديا مستحيلة (إمبيدوقلس، التي لم ينهها قط)، نشر بالتأكيد روايته (هيبريون)، وبعض القصائد المتفرقة في المجلات. كانت تروقه علاقاته الجيدة مع: شيللر، هيغل، شيلينغ... لكن عندما سيأتي الاعتراف الحاشد، وعندما سيقرر العصر بأنه شاعر عظيم، سيكون في حالة لا يرغب فيها

(1) رسالة إلى أخته، 11 سبتمبر 1800.

سماع أي شيء. عندما عاد من بوردو سيكتب مرة أخرى أناشيد، شذرية، سيترجم سفوكليس، لكنه سيتعمق أكثر، فأكثر في صمت مهذب، تكسره بعض نوبات الغضب. سيغيب عقله في الغياهب تمامًا. سيمكث زهاء ثلاثين عامًا، في غرفته الصغيرة الكائنة في برج أسفل نيكار، تحت رعاية النجار زيمير.

أريد أن أعرف فقط، ما أسفر عنه هذا المشي الشاق والمنهك من ردّات شعرية يمكن أن نقرأها في نصوصه الأخيرة. لكن ينبغي سلفًا الإمساك عما تسببه تجربة المشي وحيدًا بين المساحات الشاسعة والمكدّرة وفي الطقس البارد.

ثمة في البداية بداهة الانفصال. نعرف بطبيعة الحال الخطابات العظيمة حول المشاركة بواسطة المشي، الانسجام، والالتحام، والتأمل الشطحي للطبيعة... لن نصرخ ضد التضليل، ولكننا في خضم المشي المضني نقرّ أخيرًا بـ «انسحاب الآلهة». سواء مشينا في ظل الغياب أو الفراغ، لكن في ظل البرد والثلج والعزلة التامة، والذعر المحيط، ليس لنا قريب غير المكابرة والعناد والإصرار. ويكون علينا أن نقف متماسكين في هذا الوجود الذي يفرط في الجثوم بشكل عمودي لانهائي. السماء، هناك في الأعلى دائمًا. قدرة التحمل: التماسك عند منعطفات الآلهة. انتهى الحنين والاندفاع نحو السماوات الميثولوجية، والتحول نحو الوحدة المفقودة (السديم اللانهائي، النار البدائية) مثلما كتب في مؤلفاته الأولى. ما ينبغي أن تمرّ منه القصيدة، هو فقط هذه المسافة المنجزة والمقبولة والمنقادة. إن المشي في ظل الإنهاك، هو المشي في ظل هذه المسافة دون الشعور بالانتشاء ولا الثمالة. يتعلق الأمر فقط، بالجَلَد والتحمّل والمشي من جديد، والإقامة بين ما يفصل المسافات.

إن المشي طويلًا، طويلًا جدًّا، ليس عبارة عن سماء في الأعلى وإنما حولنا قريبًا، كل هذا الوجود العنيد. بساطة الوجود المتشظية البارزة في أوراق الأشجار، وهذا اللحاء وفي بضع أحجار، جمالية بساطة أن تكون ثمة أشياء، تتجلى للمشّاء المتحمل للعناء. جمال مكشط موهوب بدون بهاء. لا يمكننا اختراع أساطير أخرى، أو اكتشاف الحكايات وراءها أو الشروع في الأحلام الخاصة، وإنما تسميتها. تغدو القصيدة صدى الوجود فحسب، الوجود البسيط للأشياء.

ظرقات المسافرين

ظلال الأشجار

وتلالٌ تحت الشمس، حيث

يذهب الطريق

نحو الكنيسة[1].

ستتخلص القصائد الأخيرة من الكتب المرجعية ومن الإيحاءات ومن الاستعارات الثقافية. شعرٌ مجردٌ وعار وحيّ. ما من داع لتجاوز الواقع، لبلوغ المثالي الذي سيلغيه ويمنحه معنى، وليس تاريخًا لاختراعه ولا قداسات تخمن خلفياتها ولا ذكريات قراءة لاستعادتها. عندما نمشي طويلًا، لن تستمر الطبيعة في الحضور، لن تعود تلك الخدعة الثقافية ولا ذريعة للشعراء ولا موضوعًا أدبيًا. ستصبح مجرد شظايا متناثرة الحضور في كل مكان. لا شك أنه يجب غضّ البصر قليلًا أثناء المشي، ليس من أجل الاستمتاع بكل شيء، كما يقال، وليس من أجل التلاشي في الكائن، ولكن من أجل إغماض العينين من أجل الذات، والإقامة في جوف هذا الطلاق.
- قال هولدرلين: ابق وفيًا للخيانة. مثل شجرة فوق قمة ربوة، مثل صخرة فوق حافة جرف، هكذا حال المشّاء على الطريق.

ولكن بالنسبة إلى المسافر فهو وحده سيد خطواته

لكن يقيسها دائمًا من يحب الحياة

ها هي الطرقات

تزهر وتزداد جمالا[2].

(1) أناشيد غير مكتملة- اليونان (النسخة الأولى).

(2) أناشيد غير مكتملة- اليونان (النسخة الثالثة).

نهاية العالم

ربما، عندما يتدمر كل شيء، وتختفي الحضارة بعد كارثةٍ عظمى وعلى أنقاض الحطام المحترق لبشريةٍ غارقةٍ، لن يبقى أمامنا، إذن، سوى المشي.

في شهر أغسطس، كنت في منزلٍ معزول كبير. وكانت العواصف الهائلة تُمزق الليل، وضوء البرق يستولي على الجدران لبضع ثوان في توهُّج أبيض يشتد لمعانه ثم يسقط كل شيء في ظلمة دامسة. كان الصخب مرعبًا. دام ذلك طويلًا، طويلًا جدًا. في الصباح، وعند الفجر، كانت السماء منخفضة جدًا، والأمطار خفيفة ومنتظمة وباردة تسقط دون توقف. خرجت لأمشي، بين أحضان نور أصفر. لا يوجد أحد، كانت أبدية باردة، أبدية من الأمطار اللامبالية، والغمام الرمادي الثابت. وأنا أمشي خيّل إليّ أنني أسير للأبد، لن يتوقف المشي مطلقًا، كنت أشعر بنوع من عذوبة اليأس المحايد الأكثر عمقًا حتى من المأساوي. في رواية «الطريق» لمكارتي، نسير رفقة أبٍ وابنه، وندرك سريعًا أنه لم يبق من البشر في العالم إلا القليل: يوجد هائمون قليلون. يدفعون عربات تسوُّقٍ مثل ملعوني منجم في الهواء الطلق. إلى أين هم ذاهبون؟

أحيانًا نمشي بهذه الطريقة، التي تتجاوز حالة الكآبة كثيرًا. تعتبر الكآبة سوداء اللون ومُضطربة ومُعذبة ومُترعة بالبروق الزرقاء. أريد، بالأحرى أن أتحدث هنا عن مشي رمادي، وأصفر حائل، وأخضر شاحب. نمشي إذن كما نتنفس. "الرجل الذي ينام" لبيريك[1] رجل مشّاء أيضًا. أنا مستلقٍ والقلب فارغ، ليست الشجاعة ما يغوز، ولكن فيمَ سينفع امتلاكنا للشجاعة؟ لا شيء لنفعله ولا شيء يستحق العيش. لم أتعلم من الحياة شيئًا. لا نتعلم من الحياة سوى الحكايات التي يرويها بعضنا لبعض. نهايات الحكايات. وعندما لا نتعلم أكثر مما تعلمناه، فإننا نصل إلى القاع ونتفحّط، ثم ننهض لأن المكوث في حالة استلقاءٍ مرهق جدًا. منهك كثيرًا لأننا نقول حتمًا ونحن ممددين: لا أفعل شيئًا، وأنا ممدد هنا، لست نائمًا حتى، ولا أفعل شيئًا، بطبيعة الحال، لن أفعل شيئًا، لأنه لا يوجد شيء لأفعله، لا

(1) رواية الكاتب الفرنسي جورج بيريك تحمل عنوان « الرجل الذي ينام» صدرت عام 1967 عن منشورات دونويل. فرنسا.

شيء مقنع ولا شيء حاسم. ولفرط تكرار ذلك يصبح الأمر مرهقًا. حينئذ أنهض وألتقط المفاتيح الموضوعة أرضًا، وأضع سترة فوق كتفيّ وأخرج لأتمشى. لكيلا أسمع ببساطة الصوت المرهق وهو يردد: «لا أفعل شيئًا، ولا أرتاح حتى، لا شيء». عندئذ نمشي وهذا يعني في حد ذاته القيام بلا شيء، لكن دون الصوت، يرافقني فقط الضجيج القادم من الشارع والخطوات. إنه السير الرمادي، لأن الخارج كل شيءٍ فيه رمادي. هذا، ليس الهيمان الشعري ولا النزهة الصحية، لا شيء فيه غنائي، ولا ملحمي ولا حتى مأساوي. المشي كما نتنفس، لا للشعور بأننا أحياء، ولكن لأننا لفرط بقائنا بلا حراك نُحسّ إحساسًا مضاعفًا بأننا لا نفعل شيئًا. بينما في الخارج كل شيء رمادي، ولا أحد يتكلم. لا شيء يبزغ وينادي ويجذب ويلمع: كل شيء متشابه ومنصهر. تصبح مصابيح السيارات شموسًا حزينة، والواجهات غير مرئية، والناس جلبة صامتة. أمامي امرأة تنادي سيارة أجرة، لكنها لا تريد أن تتوقف، تستشيط غضبًا، تمسك حقيبتها جيدًا، وتعود إلى جريها بحيوية. تشبه الحياة سيارة أجرة لا تريد أن تتوقف، نناديها لكنها لا تتوقف. وأنا أمشي. لست بحاجة إلى قيامةٍ نووية، لست بحاجةٍ إلى سماء من الرماد، أريد فقط هذه «اللامبالاة» (نُحيل دائمًا على بيريك) أحيانًا نحو كل شيء، لا شيء تعلّمناه من الحياة، نسينا كل ما حفظناه. ونحن نرى أنفسنا تمشي عما قريب، نمشي بعضنا خلف بعضٍ على مبعدة بضعة أمتار، نتبع بعضنا بعضًا. ننعطف تارة إلى اليمين وتارة أخرى إلى اليسار: من أجل مواصلة المشي فحسب. ليست نهاية العالم حينما يتوقف كل شيء، ولكن حينما نستمر بلا نهاية: ولا نفعل أمرًا آخر غير وضع قدمٍ أمام أخرى، تحت الأقمار الباردة.

في بعض الأحيان، هكذا، مشيتُ في باريس.

النصوص والمراجع الأصلية.

مراجع عامة:

Chapitre 1: المشي ليس رياضة

- M. Jourdan & J. Vigne, Marcher, méditer, Paris, Albin Michel, 1994.
- C. Lamoure, Petite philosophie du marcheur, Paris, Milan, 2007.
- D. Le Breton, Éloge de la marche, Paris, Métailié, 2000.
- Y. Paccalet, Le bonheur en marchant, Paris, J.-C. Lattès, 2000.
- R. Solnit, L'Art de marcher, Paris, Actes Sud, 2002.
- S. Tesson, Petit traité sur l'immensité du monde, Paris, Pocket, 2008.
- Le Goût de la marche, textes choisis par J. Barozzi, Paris, Mercure de France, 2008.

Chapitre 2: حريات

- J. Kerouac, Sur la route, et autres romans (Les Clochards célestes, trad. M. Saporta, etc.), éd.
- Y. Buin, Paris, Gallimard, 2003.
- S. Ramdas, Carnets de pèlerinage, trad. J. Herbert, Paris, Albin Michel, 1953.
- G. Snyder, La Pratique sauvage, trad. O. Delbard, Paris, éd. du Rocher, 1999.

- H. Zimmer, Les Philosophies de l'Inde, trad. M.-S. Renou, Paris, Payot, 1978.

Chapitre 3: لماذا أنا مشّاء جيد (نيتشه)

- F. Nietzsche, La Naissance de la tragédie; Humain trop humain; Aurore; Le Gai Savoir; Ainsi parlait Zarathoustra; Ecce Homo; Le Cas Wagner ; Nietzsche contre Wagner (Paris, Gallimard); Dernières lettres (trad. C. Perret, Paris, Rivages, 1992).
- C.P. Janz, Nietzsche, biographie, tomes I (Enfance, jeunesse, les années bâloises, trad. Marc de Launay, Violette Queuniet, Pierre Rusch & Maral Ulubeyan), II (Les dernières années bâloises, le libre philosophe, trad. Marc de Launay, Violette Queniet, Pierre Rusch & Maral Ulubeyan), III (Les dernières années du libre philosophe, La maladie, trad. Pierre Rusch & Michel Valois), Paris, Gallimard, 1984 et 1985. Les traductions ont été modifiées.

Chapitre 5: بطء

- P. Sansot, Du bon usage de la lenteur, Paris, Rivages Poche, 2000.

Chapitre 6 : هوس الهروب (رامبو)

- A. Borer, Rimbaud en Abyssinie, Paris, Le Seuil, 1984. J.-J. Lefrère, Arthur Rimbaud, Paris, Fayard, 2001. A. Rimbaud, Œuvres complètes, éd. P. Brunel, Paris, LGF, 1999. A. Rimbaud, Correspondance, éd. J.-J. Lefrère, Paris, Fayard, 2007.

- I. Rimbaud, Reliques, Paris, Mercure de France, 1922.

Chapitre 9 : الأحلام اليقظة المشّاء (روسو)

- J.-J. Rousseau: Les Confessions; Mon portrait; Lettres à Malesherbes; Discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes (Paris, Gallimard). R. Trousson, Jean-Jacques Rousseau, tome I, «La Marche à la gloire»; tome II, «Le Deuil éclatant du bonheur», Paris, Tallandier, 1988 et 1989.

Chapitre 10 : أبديات

- R.-W. Emerson, La Nature, trad. P. Oliete-Losos, Paris, Allia, 2004.

Chapitre 11: غزو البرية (ثورو)

- H. D. Thoreau, Walden ou la Vie dans les bois, trad. L. Fabulet, Paris, Gallimard, 1922; Journal 18371861-, trad. R. Michaud & S. David, Paris, Denoël, 1986;
- Je suis simplement ce que je suis: Lettres à Harrison G.O. Blake, trad. T. Gillybœuf, Paris, Finitude, 2007;
- La Désobéissance civile, trad. G. Villeneuve, Paris, Mille et une nuits, 1999: De la Marche, trad. T. Gillybœuf, Paris, Mille et une nuits, 2003; Le Paradis à (re)conquérir, trad. T. Gillybœuf, Paris, Mille et une nuits, 2005; La Vie sans principe, trad. T. Gillybœuf, Paris, Mille et une nuits, 2004; De l'esclavage, plaidoyer pour John Brown,

trad. T. Gillybœuf, Paris, Mille et une nuits, 2006. Les traductions ont été modifiées.

Chapitre 12: طاقة

- Pieds nus sur la terre sacrée (textes rassemblés par T. C. McLuhan), trad. M. Barthélémy, Paris, Denoël, 1974.
- H. D. Thoreau, Balade d'hiver, trad. T. Gilly bœuf, Paris, Mille et une nuits, 2007.
- S. Tesson, Éloge de l'énergie vagabonde, Paris, Pocket, 2006.

Chapitre 13: حج

- F.-L. Alsina & P. Caucci von Saucken, Pèlerinages: Compostelle, Jérusalem, Rome, Paris, Desclée de Brower, 1999.
- J. Biès, Mont Athos, Paris, Albin Michel, 1963.
- J. Chélini & H. Branthomme, Les Chemins de Dieu: Histoire des pèlerinages chrétiens des origines à nos jours, Hachette, 1995.
- J. Chélini & H. Branthomme (dir.), Les Pèlerinages dans le monde à travers le temps et l'espace, Paris, Hachette, 2004.
- A. Dupront, Du sacré: croisades et pèlerinages, images et langages, Paris, Gallimard, 1987.
- A. Dupront (dir.), Saint-Jacques de Compostelle, Paris, Brépols, 1985.
- Le Guide du pèlerin de Saint-Jacques de Compostelle, trad. J. Vielliard, Paris, Vrin, 1997.

- H. Engelman, Pèlerinage, Paris, Fayard, 1959.
- A. Guillaumont, Aux origines du monachisme chrétien, Abbaye de Bellefontaine, 1979.
- R. Oursel, Les Pèlerins du Moyen âge : Les Hommes, les chemins, les sanctuaires, Paris, Fayard, 1963.
- P.A. Sigal, Les Marcheurs de Dieu, Paris, Armand Colin, 1974.

Chapitre 14: بعث وحضور

- Lama Anagarika Govinda, Le Chemin des nuages blancs. Pèlerinages d'un moine bouddhiste au Tibet, Paris, Albin Michel, 1969.
- M. Benzi, Les Derniers Adorateurs du peyotl, Paris, Gallimard, 1972.
- G. Roud, «Petit traité de la marche en plaine», inEssai pour un paradis, Lausanne, L'Âge d'Homme, 1983.

Chapitre 15: نهج الفلسفة الكلبية

- Les Cyniques grecs. Fragments et témoignages, éd. L. Paquet, Paris, Le livre de poche, 1992.
- Diogène Laërce, Vies et doctrines des philosophes illustres (particulièrement le livre VI), dir. M.-O. Goulet-Cazé, Paris,
- La Pochothèque, 1999. Épictète, Entretiens (particulièrement le III, 22), trad. A. Jagu & J. Souilhé, Paris, Les Belles Lettres, 1943.
- M. Foucault, Le Courage de la vérité, Paris, Gallimard-

Le SeuilHautes Études, 2009.

- M.-O. Goulet-Cazé, L'Ascèse cynique. Un commentaire de Diogène Laërce, Paris, Vrin, 2000. Les traductions ont été modifiées.

Chapitre 17: التيه الكئيب (نيرفال)

- G. de Nerval, Les Filles du feu; Promenades et Souvenirs; Aurélia (Paris, Gallimard).
- C. Pichois & M. Brix, Gérard de Nerval, Paris, Fayard, 1995.

Chapitre 18: الخروج اليومي (كانط)

- L.E. Borowski, R.B. Jachmann, E.A. Wasianski, Kant intime, trad. J. Mistler, Grasset, 1985.
- T. de Quincey, Les Derniers Jours d'Emmanuel Kant, trad. M. Schwob, Paris, Allia, 2004.

Chapitre 19: نزهات

- M. Proust, Du côté de chez Swann (Combray), Paris, Gallimard, 1987.
- K. G. Schelle, L'Art de se promener, trad. P. Deshusses, Paris, Rivages, 1996.

Chapitre 20: حدائق عمومية

- M. Poëte, Au jardin des Tuileries: l'art des jardins, la

promenade publique, Paris,

- A. Picard, 1924. M. Poëte, La Promenade à Paris au XVIIe siècle, Paris, Armand Colin, 1913.

Chapitre 21: متسكع المدن

- L. Aragon, Le Paysan de Paris, Paris, Gallimard, 1972.
- W. Benjamin, Charles Baudelaire, trad. J. Lacoste, Paris, Payot, 2002.
- W. Benjamin, Paris capitale du XIXe siècle: Le livre des passages, trad. J. Lacoste, Paris, Le cerf, 1997.
- A. Breton, Nadja, Paris, Gallimard, 1973.
- T. Paquot, Des corps urbains: sensibilités entre béton et bitume, Paris, Autrement, 2006.
- G. Debord, « Théorie de la dérive », inŒuvres, Paris, Gallimard, 2006.

Chapitre 24: تصوف وسياسة (غاندي)

- Gandhi, Mes expériences de vérité (Paris, P.U.F., 1982),
- Résistance non-violente (Paris, Buchet-Chastel, 1986).
- G. Deleury, Gandhi, Paris, Pygmalion, 1997.
- L. Fisher, Vie du Mahatma Gandhi, Paris, Calmann-Lévy, 1952.
- R. Payne, Gandhi, trad. P. Rocheron, Paris, Le Seuil, 1972.

Chapitre 25: تكرار

A. David-Neel, Mystiques et magiciens du Tibet, Paris, Pocket, 2003.

C. Péguy, Les Tapisseries, Paris, Gallimard, 1957.

Petite Philocalie de la prière du cœur, trad. J. Gouillard, Paris, Le Seuil, 1979. Récits d'un pèlerin russe, trad. J. Laloy, Paris, Baconnière/ Seuil, 1966. Toukârâm, Psaumes du pèlerin, trad. G.-A. Deleury, Paris, Gallimard, 1973.

W. Wordsworth, Le Prélude, trad. L. Cazamian, Paris, Aubier, 1978.

شكر

أتوجه بالشكر إلى بونوا شانتر الذي جعل الكتاب «يمشي على الطريق» ورافقه حتى صار جاهزًا للطبع...


MANA.NET



يقدم الكتاب جوهر فلسفة المشي ضمن سلسلة من التأملات برفقة مُفكرين لامعين. يصبحُ المشي هنا عملًا فلسفيًا وإبداعًا خلاقًا وتجربة روحية، بدءًا من المشي إلى النزهة ومن التجوال إلى الحجّ، ومن الهيمان إلى الرحلة التعليمية، ومن الطبيعة إلى الحضارة. يستمدّ المؤلف مظانّ كتابه من الأدب والتاريخ والفلسفة. وبذلك هو يقدم أطروحة فلسفية وتعريفًا لفنّ المشي، مُستعيدًا الأسلوب الأصيل للفلسفة التأملية التي ترافق حركة الجسد وتسبر مشاعره تجاه الفكر والطبيعة وكل مصادر النور والإشراق والحياة.


ISBN 978-603-91578-9-2
9 786039 157892
الطبعة الأولى: 2021

